رواية

الرجل الذي شاهد هتلر يبكي

مهاب عارف

الرواق للنشر والتوزيع

الرجل الذي شاهد هتلر يبكي

مهاب عارف

■ الطبعة الأولى .... يناير 2019

الغلاف: أحمد مراد

التصحيح اللغوي: محمد حمدي أبو السعود

رقم الإيداع: 22345/ 2018

الترقيم الدولي: 8 - 052 - 824 - 977 - 978



186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

الرجل الذي شاهد هتلر يبكي

روايـــة

مهاب عارف

-١-

حملت صحراء الرمل بالإسكندرية آثار خطوات صغيرة لصبيين، يتسللان بحذر تحت ضوء شمس صباح لم تسطع على الوجود بكامل عافيتها بعد. حمل أحدهما بندقيـة رش صغيرة، وتكفل الآخر بمهمة الاستطلاع ممسكًا بنظارة معظمة، بينما وضع على كتفه سلة صغيرة من القش. حملت الرياح المنعشة إلى أنفيهما رائحة البحر، قبل أن تتلاعب بشعر أحدهما موزعة إياه على جبينه، في الوقت الذي أبى شعر الآخر المتمـوج الانصياع لهـا فمرت عبره خائبة. أشـار الصغير الذي يحمل النظارة المعظمة والسـلة مرشدًا زميله إلى تل لا يبعد كثيرًا عن البحر، فاتجهـا ناحيته في تحفز وهما يمسـحان المنطقة بأعينهما وقد ارتسـمت على وجهيهما الجدية، قبل أن يصلا إلى مقصدهما ظهر سرب عصافير يطير على ارتفاع قريب. أحكم الصبي الكبير التصويب وأطلق طلقة أرادها محكمة ولكنها طاشـت دون أن تصيب هدفًا. احتج الثاني على تسرعه قائلاً بالألمانية: لم تأخذ وقتك في التصويب يا رودلف، أعطني البندقية.

اختطفها منه وشرع في تعميرها بيد متسرعة وهو يقول: هذا المكان مقفر. قلت لك أن نذهب إلى أرض البوص.

عندما انتهى من تعمير البندقية كانت العصافير قد ابتعدت. نظر إليها ساخطًا بينما رودلف المسيطر يقول في استهانة: هذا المكان أفضل، هيا بنا نصعد هذا التل وسنجد العصافير في كل مكان.

غاصت أحذيتهما في الرمال حتى وصلا إلى قمة التل ثم استويا عليها، لم يَريَا سوى نورس يحلق فوق البحر. أمسك الكبير بالمنظار وبحث حوله قليلاً دون نجاح، قبل أن يثبت عينيه على بقعة معينة ثم يشهق ويصرخ في صديقه: انبطح يا محمود.

أطاعه محمود وهو يتساءل في قلق: ماذا هناك؟

لم يرد الآخر وإن تعالى صوت تنفسه وهو يكمل النظر. نظر محمود فرأى فتاة تتجه إلى البحر لتستحم. ضيق عينيه طالبًا رؤية أفضل فميز شعرها الطويل يطير خلفها بفعل الهواء. ظل سبب حماس صديقه خافيًا عنه فسأله في لهفة: ما الأمر؟

ناوله رودلف المنظار قائلاً: انظر بنفسك.

عندما أصبحت الفتاة كما لو كانت على بعض خطوات منه فهم ماذا ألمّ بصديقه. رآها تقف عارية في المياه حتى خصرها لا يسترها شيء، بدوية في نحو العشرين من عمرها تركت ملابسها على الشاطئ الخالي في تلك المنطقة الصحراوية. راقبها في انبهار وهي تمسح كتفيها وصدرها بالمياه. تجاهل نداءات رودلف المتكررة بإعادة المنظار إليه وهو يتأمل الفتاة في تعجب. كانت المرة الأولى التي يرى فيها مشهدًا مماثلاً. لم يستوعب أيًا من التفاصيل المدهشة التي تتشكل منها

منحنيات هذه السمراء، ولكن فتنه المشهد. مرت عليه لحظة مضاءة بنور الاكتشاف وإن ظلت أركانها معتمة بجهل البراءة. مشهد حفر في عقله بإزميل من صلب أحدث شررًا مخلفًا وراءه نقشًا فرعونيًا غائرًا، لن يمحى أبدًا من على جدران معبد طفولته.

قال رودلف وهو يحاول نشل المنظار من يديه: أعده إليّ.

ـ لا.

قالها محمود متملصًا من قبضته.

ـ حسنًا، احتفظ بمنظارك السخيف.

قالها ساخطًا ثم اتجه ناحية الفتاة رغبة في رؤيتها بشكل مفصل. حاول محمود إثناءه عن فكرته ولكنه تجاهله، ونزل التل قاصدًا كثيبًا صغيرًا يحاذي الشاطئ، وتعلوه بعض النباتات التي طمع في الاختباء خلفها للتلصص.

ـ عُد فقد تراك.

قالها محمود محذرًا، ولكن نداءه تشتت وسط الرياح.

تراجع محمود وأكمل مشاهدته ليرى الفتاة تغطس فيتموج جسدها تحت صفحة الماء. تخرج فتلمع كتفاها وما ظهر من جسدها الأسمر تحت الشمس. نظر إلى صديقه فوجده ما زال يتقدم بلا حذر طامعًا في أفضل موقع.

انتهت الفتاة من استحمامها القصير وخرجت من الماء راكضة وهي تعصر شعرها الأسود. أطار المنظر الكامل عقل محمود، وأربكته المعرفة فضاع في الاختلافات بين الذكر والأنثى، وقبع في مكانه ينهل من التفاصيل الغريبة وهو يسمع دقات قلبه تتسارع.

لم يلاحظ أن الفتاة قد تسمرت في مكانها ناظرة في شك إلى حيث يختبئ صديقه الذي كشفت كثرة حركاته عن مكانه. لم ير أم الفتاة التي كانت تقترب من الجانب الآخر للشاطئ. كان غارقًا في تأمل ما لم يره من قبل مشغولاً باستيعابه، فانتبه متأخرًا إلى صرخة الفتاة عندما ظهر أمامها رأس رودلف الذي أعماه فضوله لتؤكد شكها.

تعالت صرخاتها وهي تجري إلى ملابسها تنتشل منها ما تطاله يدها وتغطي جسدها. خالطت صرخاتها صيحات غاضبة مصدرها أم الفتاة المتلفعة بالسواد، وهي تمد الخطى بقدر ما سمح به جسدها الضخم، صارخة في هذا الدخيل الصغير. انتظر محمود أن يفر رودلف، ولكنه لم يفعل وتسمر مكانه في خوف.

عندها قام محمود واقفًا وصرخ فيه منبهًا. ارتفع الصراخ الغاضب من الأم يخالطه المرتعب من الفتاة، بعد أن اكتشفا وجود شاهد جديد على الفضيحة. كأنما حررت الصرخات رودلف من قيود المفاجأة الخفية، ركض بقوة عائدًا إلى محمود الذي صرخ فيه: إلى الشاليه!

تناول البندقية وقذف بالنظارة بداخل السلة الخاوية، بعد أن تغير هدف هذه الرحلة القصيرة بمرأى الفتاة. ركض خلف رودلف تاركين وراءهما خطًّا من الخطوات المتعجلة، طغت على خطواتهما الحذرة في أثناء الذهاب.

جريا دون أن ينظرا وراءهما حتى دخلا حديقة الشاليه الخاص بوالد محمود. جذب رودلف محمود من ذراعه ليبطِئا الخطى، كي لا يثيرا ريبة الأهل المتجمعين في التراس حول مائدة الشاي.

كانت أول من لمحهما هي كارلا والدة رودلف التي تساءلت وهي تنظر إليهما في شك: ماذا بكما؟

قال رودلف وهو يلهث بوضوح: هاجمنا ثعلب.

قالت السيدة في جزع: هل أنتما بخير؟

تمتم تيمور والد محمود في استغراب: لم أر ثعالب في هذا المكان أبدًا، هل أنتما متأكدان؟

صعد الصبيان السلم الحجري الصغير وهما يؤكدان أن ما رأياه كان ثعلبًا، وأسهبا في وصف المطاردة ومدى صعوبتها، حتى حظيا بإشفاق الأهل الذين اهتموا بالأمر لبضع دقائق، قبل أن يعودوا إلى أحاديثهم تاركين الصبيين لقلقهما.

الوقت هو ما هدأ مخاوفهما. بعد نصف ساعة استعادا رباطة جأشهما واطمأنا إلى زوال الخطر، فتناسيا ما كان من خوف، وانشغلا بالتفاصيل الصغيرة الشائقة، فانتحى محمود برودلف ركنًا قصيًّا ليسأله عن بعض الأمور التي استعصت عليه.

تطوع رودلف للإجابة عن أسئلته كاملة، حتى وإن كان لا يملك حقًّا الإجابات اللازمة لها، وهو أيضًا يغمره التساؤل بمسببات حيرته، ولكن غرور الصبا منعه من التصريح بجهله، فأقنع محمودًا أن الفتاة تعاني من خطب شديد في نظافتها الشخصية، وأنها في الأغلب تتأرجح في منطقة رمادية غير سارة بين الأنوثة والرجولة.

استقبل محمود الأمر بدهشة. بدت له المعلومات التي بثها إليه صديقه متعارضة مع ما رأى من الاختلافات المفحمة التي لم يألفها في الرجال، لكنه في النهاية اقتنع برأي رودلف وسلم به كما يفعل دائمًا.

وبينما الولدان يتبادلان المعرفة والأسئلة، إذا بفهمي حارس الشاليه يدخل من الباب وهو ينظر إليهما نظرة ذات مغزى، استأذن

في الحديث مع تيمور الذي استمع إليه قبل أن تتحول العيون ناحية الصبيين المتهامسين في براءة. كانت النظرات تتراوح بين الشر من الآباء والاستنكار من الأمهات، فبدآ يشعران غريزيًّا بالقلق.

ذهب فهمي ثم عاد وبصحبته رجل بدوي ضخم. تقدم الرجل من الشرفة وحيا صاحبها وضيوفه بأدب، قبل أن ينطلق في حديث قصير بصوت لم يصل إلى آذان الولدين، ليرتفع بعده نداء تيمور يطلب منهما المثول أمامه فورًا.

ذهب الصبيان وقد تبدد ارتياحهما. بادر فريتز والد رودلف بسؤال مباشر إلى ابنه بصوت مخيف: هل صحيح أنكما تلصصتما على ابنة هذا الرجل وهي تستحم؟

فوجئ الولدان بما لم يتوقعاه فلم ينطقا بكلمة، ظنا لسذاجتهما أن الأمر قد مر دون عواقب، ولكن ما لم يدركاه أنه لم يكن من الصعب أن تتبع الأم الغاضبة خطواتهما، لتعرف من أين جاءا ثم تذهب لتشتكي إلى زوجها الذي انتفض لحرمة جسد ابنته، فحضر يشتكي هذه الفعلة النكراء.

نزل فريتز الثلاث درجات ليقف أمام ابنه، وهو يكرر السؤال بصوت أكثر خشونة. لم يرد رودلف، فما كان من الأب إلا أن قال مزمجرًا: سكوتك دليل إدانتك، انْفِ الجريمة عن نفسك أو تلقَّ عواقبها.

احتار رودلف بين الكذب الصريح المخزي والصدق الجالب للعقاب، فلم يمهله والده طويلاً قبل أن ينزل على وجهه بلطمة قوية أخلت بتوازنه. انقلب وجه تيمور في عدم رضا، ثم نظر إلى البدوي الذي تراقص شنبه على وجهه من التأثر لشرفه، بعد أن عادت منه

نقطـة في يمّ وقـال: أعتذر عـن سـوء أدب الأولاد، وأؤكد لك أنهما سـينالان عقابهما. أدعوك لأن ترحل الآن وأنـت واثق بأن حقك قد عاد كما تتوقع وتحب.

قال البدوي في إيحاء: وماذا عن حق ابنتي؟

ـ سيصلك مع فهمي ما يناسبها من تعويض نظير تلك الإساءة.

هز الرجل رأسه في رضا قبل أن يحيي الرجلَين وينصرف.

انتحب رودلـف من صفعة والده. صرخ فيـه فريتز فربت تيمور على كتف الرجل مهدئًا وقال: أظن أن هذا يكفي.

ثم نظر إلى محمود ورودلف وقال بصوت غاضب باعتدال: لقد أخجلتمونا بتصرفكما هذا.

ثم وجه حديثه إلى محمود قائلاً: سأنظر في عقاب مناسب لفعلتك الشائنة.

برجـوع كل عائلـة إلى منزلهـا في نهاية اليـوم، كال فريتز لرودلف المزيد من الضرب الذي لم تفلح توسلات كارلا في اتقائه، أما بالنسبة إلى محمود فقد أنّبه والده على فعلته تأنيبًا قاسيًا لم يخلُ من العبرة، فقال لـه: إن اللهو يظل مقبولاً مـا لم يؤذِ أحدًا أو يتجـاوز خطوطًا معينة، وإلا فإنه يصير خطأ يستوجب العقاب.

ثم أكمل: لولا مكانتك التي تكتسـبها منـي لكان عقابك على يد والد الفتاة فادحًا.

عوقـب محمود بالمكوث في المنزل أسـبوعًا طويـلاً، قضى رودلف مثلـه ولكن زاد عليه كل صنـوف المهانة والضرب اللذين تلقاهما من والده.

ما إن تقابلا حتى نسـيا ما نزل بهما مـن عقاب، وكل ما بقي عالقًا في الأذهان كان صورة السـمراء العارية وجسدها المبتل اللامع تحت شمس الصباح. ولا يزال رودلف مصرًّا أنها فتاة غير مكتملة الأنوثة، وهو يؤكد في ثقة: الرجال فقط هم من ينبت لهم الشعر في أجسادهم.

-٢-

والـد محمود هـو تيمور بـك عبد التـواب، القـاضي بالمحاكـم المختلطة، ووالدته هي أنجيلا فريدريتش، سـليلة أسرة أرسـتقراطية تعـود جذورها إلى إقليم بافاريا، تعرف عليها تيمور في أثناء دراسـته للحقـوق في ألمانيا، وأغـرم بها قبل أن يتزوجا هنـاك، ثم يعود تيمور بزوجته إلى مصر ليسـتقرا فيها وينجبا محمود عـام ١٨٩٥، بعد ولادة معقدة حرمت أنجيلا من أي فرصة إنجاب أخرى.

كان جـد تيمور بائعًـا سرّيحًا، اهتـم بفطنة سـليمة بتعليم أولاده الذكور، على الرغم مما شـكله هذا عليه من عبء مادي لم يسـتوعب من حوله أسبابه، فدأبوا على لومه لإضاعة نقوده في التعليم.

ولكـن مثابرة الرجل ورجاحة بصيرته طرحتا ثمارهما حين أصبح بِكريّه مدرسًـا إلزاميًّا في مدرسـة ابتدائية، بينما اتجه الثاني إلى الدراسة الأزهرية ليتخرج منها شـيخًا معممًا زاد من هيبة والده وسط الناس، أمـا الثالث فقد نبـغ في التعليم حتى التحق ببعثة لدراسـة الحقوق في

أوروبـا، وعاد منها ليتقلد المناصب وتنتهـي به الحال منعمًا عليه برتبة البكويـة. وهكذا تحـول ابن البائع السريح إلى بك يشـار إليه بالبنان، ورئيس محكمة ذي هيبة وسلطان.

وهكـذا شـاءت الأقدار لهـذا البائع البسـيط أن يتحـلى بالحكمة اللازمة لتسـليح أولاده بما لا يحتاجون به لأحـد، وكانت من تبعات هذه الحكمة أن يحظى الأحفـاد ومنهم تيمور بحياة مختلفة. إذ أصبح قاضيًا مثل أبيه بعـد أن كان من الأرجح أن يرث مهنة البائع السريح عن جـده، أو أن يتعلم حرفة فيصبح أسـطى صاحـب صنعة، حتى اسمه لم يكن ليحصل عليه، وكان في الغالب سيحظى باسم شعبي.

كانـت الإسـكندرية هي مسـتقر تيمـور وأنجيلا. سـكنا في فيلا بمحـرم بـك تطل عـلى قنـال المحمودية. شـاهدا من شرفـة منزلهما الأرض الفضاء المجاورة لهما تتحول إلى فيلا، يسـكنها التاجر الألماني فريتـز هيـس وزوجتـه كلارا. بطبيعة الحال أصبحـت كلارا صديقة مقربة لأنجيلا، وقضت العائلتان جل وقتهما معًا.

قبل ولادة محمود بعام كانت عائلة هيس قد رزقت بطفل أسـموه رودلف، قـرب عمر الصبيين أدى إلى أن يرثا صداقة الأهل، فتحولا إلى رفيقين قَلّ أن يُرى أحدهما دون الآخر.

تلقيـا تعليمهما بالمدرسـة الألمانيـة، يذهبان إليهـا صباحًا مع عم إبراهيم سائق حنطور تيمور، فيُخرِجان أَيْمانه بشقاوتهما، ثم يستنفدان ما تبقى للرجل من جلد في أثناء رحلة الإياب. يهددهما طوال الطريق بأنه سيشتكيهما للبك والهانم حال عودته، ولكنه لا يفعل أبدًا.

عـم إبراهيم من النوبة، تحسـبه درويشًـا هائمًا في ملكـوت اللـه.

ابتسامته الودود لا تفارق ثغره في أغلب يومه، إلا عندما يتعبه الصبيان، عندها تختفي الابتسامة ولكن يبقى الوجه على حاله سمحًا لا يشوبه اكفهرار. وإذا ما انشغل عنه الصبيان فإنه يمضي وقته متأملاً، قبل أن يقطع صمته ليقول كل برهة بعد تنهيدة واضحة: «مكتوب». يقولها ممطوطة الواو كأنه يتنفس الحرف مع الهواء ثم يزفره منطوقًا، كما لو كان يزن ما اتخذه من قرارات في حياته، ثم يريح نفسه بالتأكيد على حقيقة أن الأقلام قد رفعت والصحف جفت.

على الرغم من طابع المدرسة المتشدد في الالتزام، كان الصبيان يجيدان التحايل على القواعد الصارمة والإفلات من العقاب. كان محمود هو الصبي الوحيد المختلط الأعراق وسط أقران من الألمان الخالصين؛ الأمر الذي جعله محل تربص الطلبة المشاكسين، الذين رأوه غير كفء لمصاحبتهم بسبب مصرية والده، فاختبر على أيديهم الكثير من صنوف التكدير. عندها تشكلت مقدمته عن الاختلافات بين البشر، عرف أنه يكفي أن يكون لون بشرة المرء أغمق بدرجة ليشعر بالتمييز، حتى وهو لم يتعلم معنى الكلمة بعد ولم يفهم لها سببًا. لهذا تحولت أيامه إلى سلسلة لا تنتهي من محاولات إثبات الجدارة، فحصل عليها أحيانًا وتجاوزته أحيانًا أخرى.

ولكن رودلف لم يكن عنده أدنى مشكلة في العراك من أجل صديقه، فوفر له الحماية وإن لم يفلح في الحصول له على القبول. كان يتحول مع الوقت إلى صبي شرس بسبب ما يقاسيه من شدة والده، وعقابه الهاوي على رأسه لأهون الأسباب. محمود كان خجولاً لا يتشجع إلا في وجوده.

في صيف تلك السنة قررت والدة رودلف قضاء الإجازة في

منزلها، في جبال فيشتل بشمال شرق بافاريا بألمانيا، وسرعان ما غادر رودلف إلى هناك تاركًا لمحمود الخواء بعينه، لا أصدقاء حقيقيين، فقط بعض الجيران يقضي معهم الوقت بلا متعة حقيقية، حاسبًا الأيام التي تبقت على عودة صديقه.

كان فريتز يتردد على تيمور من وقت لآخر ليقضي معه الأمسيات، وقال له ذات مرة: رودلف صبي معدوم الموهبة، ولن يكون رجلاً ذا شأن في المستقبل. أتمنى فقط أن يقف الأمر عند هذا الحد وألّا يجلب لي العار.

سمعه محمود الذي كان مارًّا بالصدفة فتألم من كلامه. سمع أيضًا والده يدافع عن صديقه قائلاً لفريتز: أولادنا هم انعكاس لنا، نحن نشكل شخصياتهم بما نربيهم عليه.

ثم أضاف ناصحًا: قرِّب ابنك منك وأعطِه ما يحتاج من التشجيع، عندها ستجد منه حتمًا ما يسرك.

ومع بداية العام التالي ملأ محمود البيت صخبًا؛ معلنًا عن رغبته في السفر إلى ألمانيا في الصيف أسوة برودلف. لم تلقَ الفكرة قبولاً من أنجيلا، ولكن إلحاحه المستمر أدى إلى طرحها في المنزل، ثم جعلتها المناقشات واقعًا في الأذهان، حتى انتهى الأمر بتيمور يقول لأنجيلا وهما جالسان في غرفتهما: ألم يأن لمحمود أن يزور جدته؟

ردت وهي تمشط شعرها الذهبي الطويل: أنت تعلم كيف هي علاقتي بأمي.

ـ الواجب تجاه الوالدين يكاد يكون مقدسًا.

ـ لم تغفر لي زواجي بك دون موافقتها.

- هذا ماضٍ يا عزيزتي، يمكنك تغييره بحكمة النضج.

تنهدت وهي تقلب الفكرة في رأسها بغير حماس ثم قالت: بعض الأشياء لا تتغير.

جاء الصيف يحمل لمحمود تذكرة سفر إلى ألمانيا. بثت فرحته الهائلة بعض التشجيع في قلب أمه؛ فقررت أن سعادته ستهوّن عليها مشاق صحبة أمها.

فوق الباخرة قضى وقته يتأمل معالم الإسكندرية وهي تبتعد، وما إن اختفت حتى أدار وجهه شطر الجانب الآخر منتظرًا ظهور هامبورج. ظل على هذه الحال طيلة الرحلة، وعندما رأى الأرض أخيرًا كانت فرحته مشهودة.

في ألمانيا أثارت سيطرة اللون الأخضر على كل شيء دهشته، لم يكن قد رأى الغابات إلا في كتب الأطفال المصورة. انبهر تمامًا بالطبيعة، حتى بدأ يسأل أمه عن سر قبولها بالعيش في مصر إذا كانت ألمانيا بهذا الجمال.

أسكتته بقولها: ليس كل ما يبرق ذهبًا.

لم يعنِ هذا له الكثير، وفُتِن بالبريق الأخضر المغري أينما ولى وجهه، حتى ود لو ضاع في ألمانيا إلى الأبد.

كان منزل آل هيس لطيفًا، مبنيًّا من الأحجار والأخشاب في حضن جبل صغير، ومحاطًا بغابات لا يعلم أين تنتهي حتى تبدأ غيرها. مارس محمود القادم من الشرق دور المستغرب باقتدار، يسأل عن كل شيء وعيناه لا تكتفيان من تأمل ما حوله.

أخذه رودلف إلى ملاعبه وعرفه على أصدقائه، أشعروه باختلافه

ولكن على نحو مغاير لما تعود عليه في مصر، لم يترفعوا عليه أو ينبذوه بـل كان الفضـول يدفعهـم إليه، وعندمـا يعلمون أن والـده مصريًا يزداد فضولهم كأنهم يشـاهدون كائنًا مدهشًا. سُر بالاهتمام متجاهلاً دوافعه، فاسـتقر لديه انطباع بأن هؤلاء الناس لا يعرفون العنصرية، وتنامى في داخله شعور حب لهذا البلد طغى على حبه لحياته في مصر.

مرت الأيام سـعيدة في صحبة رودلـف وأصدقائه، ولكن كحال كل شيء لا بـد مـن أن يصل إلى نهايـة. كان الطريـق إلى منزل جدته طويلاً فشـق عليه، وأضـاف إليه فراق صديقه وحشـة فانقبض قلبه وفارقته السعادة التي لازمته منذ بداية الرحلة.

منزل جدته لم يكن يشـبه أي شيء يعرفه، ضخم وحديقته تترامى مـن حوله مختلطة بمحيطها بلا أسـوار. مشـيد من الحجـر الرمادي يعلوه سـقف من القرميد أضفى عليه زهـوًا يفتقده. وقفت أمه تنظر إلى المنزل، وشـعر بيدها تنقبض على كتفه النحيلة قبل أن تنفرج لتبدأ قدماها الحركة.

في شرفة كبيرة تتوسـط الواجهة استطاع تمييز سيدة تجلس، وتنظر إليهما وهما يخترقان المدخل الذي تراصت على جانبيه نباتات مقصوصة بعناية داخل أصص ضخمة صنعت من حجر بلون المنزل. وقفا أمام باب خشـبي مزدان بزخارف نحاسية، يتوسطه مجسم لبجعة مفرودة الجناحين ورأسـها مطوي على صدرها، يمثل شـعار عائلة أمه. دقت أنجيلا الباب ثـم تراجعت خطوة للخلف، وأوقفت صغيرها أمامها كما لو كانت تحتمي خلفه، وقد ضمته إلى جذعها في رفق.

فتح رجل أشيب وقور الباب، فابتسمت له أنجيلا وقالت في ود:
كيف حالك يا ألفريد؟

أجاب الرجل بود متبادل جلّله تحفظ رسـمي: بخير حال يا سيدة أنجيلا، تفضلي بالدخول.

ثم أكمل قائلاً: إن سيدتي تنتظركما بشوق في الشرفة العلوية.

قالت أنجيلا بصوت رتيب وهي تتقدم في بهو المنزل الفخم: ليس عندي شك في هذا.

كان البهو مُعتمًا فاختفت تفاصيل زخارفه وأثاثه. تسـللت رائحة ثقيلة مصدرها أخشاب الأرضية وكسوات الحوائط إلى أنفه. لا تشبه أي رائحة يعرفها، فخزنها عقله كرائحة للأبهة والفخامة، بالنسـبة إلى أنجيلا فقد أثارت الرائحة ـ التي تألفها جيدًا ـ في نفسها شجنًا غزلت خيوطه من لحظات سعيدة، تتداخل معها أخرى غير سارة.

كانت أنجيلا أكثر قربًا من أبيها عنها من أمها التي كانت تزعجها بشـدتها عليها، وبعد أن توفي الأب بفـترة قصيرة تعرفت على تيمور، رفضت أمها العلاقة فعاندت حتى وصلت الأمور بين السـيدتين إلى شبه فراق، اكتملت عقدته بزواجها ثم سفرها مع تيمور إلى مصر.

أشـارت أنجيلا إلى لوحة زيتية لرجل أنيق ذي لحية كثة وشـارب مـبروم، وقالت لمحمود هامسـة: ألقِ التحية على جـدك. لو كان هنا لأحب رؤيتك.

نظـر محمود إلى صورة الرجل ذي الهيبة، وحـاول تخيله حيًّا أمامه ففشل.

انشـغل باستكشـاف المنزل، لا يعنيه قلق أمه ولا ما سيأتي، يعلق بصره على السـقف المدعم بعروق خشـبية ضخمة تتدلى منها ثريات فخمـة، ثم يغرق فيما تحفل بـه أركان الغرفـة وحوائطها من لوحات

وتماثيل، وهو يملأ صدره بالرائحة الثقيلة الغامضة. تقدموا إلى الشرفة، حيث جلست كريستينا جدة محمود على مقعد يطل على الحديقة الأمامية، وما وراءها من مروج لا تنتهي. كانت تحوك قطعة كانافا تصور طائرًا فوق غصن شجرة يقف تحتها ثعلب جائع يراقبه في جشع.

رسمت ابتسامة تلاشت بسرعة، بينما أنجيلا تقبل جبينها، وتبعها محمود فقبّل يد جدته التي كان يقابلها للمرة الأولى في حياته.

سيدة نبيلة بيضاء الشعر إلا من بعض الخصل المحتفظة بلونها الذهبي القديم، ملابسها تتكون من الكحلي والأبيض فقط، كما لو كانت لا تستسيغ الألوان. سيدة لا تعرف عن البهجة إلا القليل.

تفحصت محمود ثم قالت في امتعاض: يشبه أباه في كل شيء.

ابتسمت أنجيلا وقالت: إنه ولد ذكي ومطيع.

مضت كريستينا تستفسر عن أحوالها، قبل أن تقول وهي تنظر لها بعين غير راضية: تبدين في حالة مزرية؛ قلت لك إن جو الصحراء لن يناسبك.

- بل يناسبني تمامًا، شكرًا لاهتمامك. ثم أضافت محاولة كسر البرود المخيم على اللقاء: سعيدة برؤيتك يا أمي، كيف حالك؟

- في خير حال. أجلس في بيتي وتأتي ابنتي الكبرى لزيارتي بانتظام، معوضة على نحو فعال غياب أختها وتقصيرها ناحية والدتها.

هزت أنجيلا رأسها وهي ترى الإجازة تتجه في المسار الذي توقعته منذ أن كانت في مصر، حطام من العلاقات الإنسانية.

لاحظ محمود تطابق السيدتين في الكثير من نواحي الشكل، إلى

جانب امتلاكهما نبرة الصوت نفسـها تقريبًا. كان حديثهما باردًا يخلو من الاشتياق، وفيه سردت أنجيلا بعضًا من جوانب حياتها في مصر، وفي النهاية قالت لها كريستينا: تمنيت لك رجلاً من بلدك ومن طبقتك الاجتماعية.

- تيمور زوج رائع، ومصر بلد جميل.

مطت كريسـتينا شـفتيها في غير رضا، قبل أن تقول بصوت آمر: لا بد أنكما متعبان من السفر، اذهبا لتغيير ملابسكما والراحة. العشاء سيكون جاهزًا في السابعة.

راقبتهـما للحظات وهما ينصرفان، ثم تناولـت الكانافا من المقعد المجـاور لها، وثبتت نظارتها على عينيها لتسـتكمل حياكة خيوط رقبة العصفور بلون أزرق قاتم يقارب لون ثوبها.

-٣-

أيـام وكان محمـود يصارح أمـه في أثناء تنزههـما في الحديقة: أريد العودة إلى مصر، لقد مللت هذا المكان.

ردت أنجيلا التي كانت تـود الرحيل أكثر منه: خالتك فريدريكا ستحضر غدًا، ستحظى مع أديلينا ابنتها ببعض المرح.

تذمر محمود بلا طائل، وتجاهلته أنجيلا المشفقة على نفسها.

في اليـوم التالي كان محمود يلحق بأمـه في صالون المنزل للترحيب بخالتـه. لفتت ابنة خالتـه نظره وحملقت هي إليـه في فضول، عيناها زرقاوان واسـعتان وشـعرها أصفر طويل معقود. لديها بروز لطيف في أسـنانها العلوية يزيدها عذوبة. دب فيه النشاط عندما رآها، فسلم عليهـا وعلى خالته بحماس، حتـى ابن خالته الطفـل ذي العام الذي جلس على الأرض يتذوق كل ما تطاله يداه حظي منه بقبلة، فنظر إليه مسـتطلعًا. جلست السـيدات الثلاث في صفاء عرف بعد معاشرتهن كم كان نادرًا، ثم جاءته أديلينا قائلة: تعال معي.

تبعهـا ركضًا إلى كـوخ صغير يقبع في الطـرف الشرقي للحديقة. فتحت بابـه في هدوء وأضـاءت قنديلاً صغـيرًا، تفتحت على ضوئه أركان الكوخ كزهرة في الربيع تكشف عن قلبها الممتلئ.

كان مؤثثًا كما ينبغي لطفلة، كراسي ومنضدة صغيرة على مقاسها، تحتـل العرائـس رفًا من جـداره وتحتها تراصت عـلى الأرض ألعاب أخرى خشـبية، بجانبها سـجادة صغيرة حمراء وضعـت فوقها علب شـاي معدنية، بداخل العلب خرز بكل الألوان والأحجام، وخيوط ملتفة حول بكراتها تنتظر فض عقدها. علمته كيف يصنع أسورة من الخـرز، فتفنن فيها قدر إمكانـه، ولكنها في النهايـة لم تقارب جمال ما تصنعه هي.

منذ تلك الليلة تقاربت النفوس الصغيرة، وباركت القـلوب هذه الصداقة الناشـئة كصبح يتنفـس فيعقبه نهار طويـل. وجدها محمود مسـلية وذات شـخصية قيادية. قضيا الأيام الأولى يتنافسـان، وبعد أسبوع كانت قد أثبتت جدارتها، فجعل يتبعها متسليًا بما تقترحه عليه من ألعاب وخطط لليوم.

في الوقـت الـذي كان فيه الاثنان يسـتمتعان بوقتهـما، كان النقار بين كريسـتينا وأنجيلا يشتد، يتواصل طوال اليوم كمعركة لا منتصر فيها، ولا يوقفها إلا هبوط الظلام. وما إن تظهر الشـمس حتى تعود لتسـتأنف وتحتـدم. في الليل كان بكاء أنجيلا الخافـت يجد طريقه إلى أذن محمود؛ فيثير سخطه على جدته.

انطلـق محمـود وأديلينا يلهوان لهـوًا صافيًا لا يشـوبه شيء، حتى ودّا لـو توقف الزمن لينعما إلى ما لا نهاية بهذا الصيف من عام ١٩٠٥، ولكن الحياة كدأبها تأبى إلا أن تزداد تعقيدًا، تأتي بكدر المسـؤوليات

فيخالـط الصفاء حتى يلوثه. تجري الأيـام بحلوها ومرها كنهر حفر لنفسه واديًا متينًا، فلا يوقفه شيء حتى يأذن له خالقه.

مر الصيف بطيئًـا ومرهقًا على أنجيلا، سريعًا كالريـح على محمود الـذي رحل في نهايته، تـاركًا أديلينا بعد أن ضربـت الصداقة والمودة جذورها بينهما.

وفي مساء أحد الأيام عند عودته إلى مصر، وبينما هو غارق في حل معادلات رياضية بسـيطة استعصت عليه سمع صوت مكابح سيارة كالعواء في الشـارع، أعقبه بدقيقة بكاء وعويل آتٍ من حديقة الفيلا، من نافذة غرفته وعلى الأضواء الشـحيحة رأى زوجة زينهم بسـتاني الفيلا تولول وتلطم خديها في عنف. سيارة تابعة للجيش الإنجليزي يقودهـا جندي مخمور دعسـت ابنها ذا الخمسـة أعوام، وفر سـائقها هاربًا.

اسـتجار زينهم بتيمور، فاصطحبه الأخير إلى قسم الشرطة حيث قابلهما مأمور القسـم الإنجليزي باستهانة أعقبها تعالٍ، لم يطق تيمور هذه العجرفة فاحتد على المأمور، لينتهي به الأمر في الحجز هو وزينهم حتى صباح اليوم التالي.

قـضى الليلة كلهـا في كظم كأنه يونس في بطـن الحوت، وفي اليوم التالي عرض على النيابة لتخلي سـبيله، عـلى الرغم من اتهام المأمور له بالاعتداء عليه.

عـاد إلى المنزل لا يكلم أحدًا، سـافر فـورًا إلى القاهرة لمقابلة ناظر الحقانيـة متظلـمًا، تصاعـد الموضوع بعد تدخـل الناظـر منصِفًا إياه، وانتهى الأمر بمأمور القسم منقولاً إلى سجن القلعة.

ولكن هذا الجزاء لم يشفِ غليل تيمور المهان، ووجده عقابًا لينًا، أما بالنسبة إلى زينهم فقد تسلم من الجيش الإنجليزي سبعة عشر جنيهًا تعويضًا عن ابنه المغدور، ورسالة مواساة بالإنجليزية لم يفهم منها حرفًا.

زأر الأب المكلوم في غضب عندما ترجم له تيمور الرسالة بصوت مكتئب، وقال: الأنجاس، يقتلون القتيل ويمشون في جنازته.

بعدها بيومين كان يلملم هو وامرأته أغراضهما، عائدين إلى قريتهما ومعهما من تبقى لهما من أبناء.

كان حنق تيمور على ما جرى له من إهانة على يد المأمور يجاوز المدى، ألمه من عجزه عن الحصول على حق زينهم ضاعف من غضبه، فانفجر في حملة نقد وامتعاض علني ضد الإنجليز، حذره المقربون من مغبات ما يفعل فلم يزده ذلك إلا إصرارًا.

تسببت مواقفه المتعنتة في تأخير ترقية له فلم يرتدع، تلقى تهديدات ولكنه اندفع في طريقه حتى أصبح معروفًا بين زملائه بكرهه الشديد للإنجليز وعداوته لهم.

ثم بدأ فصلاً جديدًا في ثورته بتصعيد هجومه، متجاوزًا مدى ما هو مسموح به عندما بدأ ينتقد ناظر الحقانية شخصيًا، ووصمه بالجبن تارة وبموالاة الإنجليز تارة أخرى، وبالطبع سمع القاصي والداني انتقادات تيمور، حتى وصلت إلى مسامع الناظر.

أوقف تيمور عن العمل وأُحيل للتحقيق. لم تغلب البيروقراطية المصرية العتيدة في إيجاد الأسباب المقنعة لمجازاته، فانتهى به الأمر محالاً على المعاش.

على الرغم من إلمامه السابق بعواقب ما يقوم به، إلا أنه عندما جاءه قرار الإحالة إلى المعاش تهاوى على كرسيه، شاعرًا بألم فادح في جانبه الأيسر. كانت ذبحة صدرية مرت بمعجزة، إلا أنه أصيب بأخرى في العام نفسه أجهزت عليه، فانتقل إلى جوار ربه على نحو مفاجئ، تاركًا محمود وحيدًا في مواجهة الدنيا.

زُلزلت حياة محمود بوفاة أبيه، أضيرت نفسيته فصار يميل إلى العزلة. قال له رودلف ذات مرة: أشفق عليك من هذا الصمت، تكلم حتى تخلص نفسك من آلامها.

قال محمود في مرارة: ليت الكلام يعيد من رحل.

مرت الأيام ومحمود يزداد تعمقًا في كآبته حتى صارت عنوان شخصيته، جاءه رودلف ذات يوم مطرق الرأس كالمعتذر، ليخبره بأن والده قرر إرساله ليستكمل تعليمه في ألمانيا. كره فريتز هيس من صميم قلبه، وتمنى لو كان هو من مات بدلاً من أبيه. برحيل رودلف أظلمت الدنيا في وجه محمود، وتأكدت في نفسه معاني الفراق وآلامه.

بقي هو ورودلف على اتصال بالخطابات ما استطاعا، يحكيان لبعضهما ما يحدث في حياتهما، ويتفقان على ما سيفعلانه في الإجازات، ولكن محمود لم يسافر إلى ألمانيا في الإجازة اللاحقة، فألقى البعد بأسواره القاتمة على صداقتهما، وبدأت وتيرة الخطابات في الخفوت.

كانت أنجيلا تحاول لململة ما تبقى من حياتها بعد رحيل تيمور. تبحث عما يملكه من أراضٍ زراعية ورثها عن والده، والتي تداخلت على نحو مزعج مع أرض إخوته، ذهبت إليهم للتفاهم فعهدوا إلى توفيق -الأخ الأكبر والمسؤول عن إدارة أراضي العائلة- بالتكفل

بترتيبات إعطائها حقها غير منقوص، خرجت من عندهم وهي تشعر بالتفاؤل، وإن كانت لم ترتح لنظرات توفيق إليها.

بعد أسبوع زار توفيق الإسكندرية لمقابلة أرملة أخيه، توقعت أن يحمل إليها أخبارًا سارة، ولكن غرض الزيارة الحقيقي لم يخطر لها على بال. كان ما يحمله توفيق هو عرض زواج انعقد له حاجباها في استنكار، تلاه رفض قاطع.

انتهت الزيارة القصيرة بتوفيق خارجًا من الفيلا كالعاصفة، تتمايل خلفه عباءته السوداء وهو يتوعد بالثأر لكرامته المهدورة في صالون منزل أخيه.

انقلبت الشهامة الموعودة إلى دناءة لا تصح. تعبت أنجيلا في محاولات استمالة باقي الإخوة والأخوات لجانبها، ولكن نبذوها جميعًا خشية إغضاب توفيق، وما قد يتبعه من تأثير على عائدهم الشهري السخي.

لم تر شيئًا من أموال زوجها فقررت اللجوء إلى القضاء، ثم تلقت من أمها رسالة تدعوها فيها للعودة إلى ألمانيا، ولكنها أرجأت العودة حتى يبت القضاء في أمر الميراث. جاء الحكم أخيرًا بتمكينها وابنها من ميراثهما، ولكن هيهات، لم يذعن توفيق الواسع النفوذ للحكم، وظل يجد العلات القانونية التي سمحت له بالتهرب من تنفيذه. طرقت أنجيلا كل الأبواب ولكن دون مغيث. استمر توفيق في طغيانه ورفض أن يعطيهما قرشًا من مالهما.

في النهاية قررت الاستسلام، فحزمت أمتعتها استعدادًا للرحيل مع ابنها، آخر ما فعلته في مصر كان زيارة قبر زوجها لتوديعه.

كانت المشـكلات التي يعيشـها محمود قد وجهت بوصلة سخطه ناحيـة أبيـه، فوقـف متبرمًـا يراقـب أمه وهـي تبكي مفسرة سـبب رحيلها، ومدافعة عن نفسـها أمام شـاهد قبر زوجهـا الراحل. فوق رخامه الأبيض كتب اسـم تيمور بخط رقعة أنيق. كل ما قاله محمود لأبيـه في سره وهو ينظر إلى حروف الاسـم حتى زاغ بـصره، هو أنه يكره هذا البلد ولن يعود إليه ثانية.

كانت الخطابات بين محمـود ورودلف قد توقفت تقريبـًا، ولكـن محمود بعث إلى صديقه ينبئه بقرب انتقاله إلى ألمانيا، تأخر رد رودلف المحمـل باللهفة، وعندما وصل أخيرًا كان محمـود قد ترك المنزل هو وأمه وغادرا مصر كلها.

-٤-

في خريف عام ١٩١٠ سافرت أنجيلا ومعها محمود وهو ابن خمسة عشر عامًا إلى ألمانيا. كانت نظرتها منكسرة وهي تدخل منزل عائلتها لاجئة، عائدة بخسارة من مغامرة مصيرها الفشل كما أصرت أمها دائمًا.

انتقلت عدوى توجسها إليه، فنظر إلى جدته في قلق وانتظر منها تأنيبًا يطوله هو الآخر، ولكن السيدة العجوز احتضنت ابنتها في مشهد نادر، حتى إن أنجيلا نفسها دُهِشت قبل أن تبادل أمها العناق وتذرف دمعًا عزيزًا.

ولكن كريستينا أذاقت أنجيلا مر الكلام في صبيحة اليوم التالي، كأن استقبال الأمس الدافئ ذاب تحت شمس الصباح. قالت كل ما تريد فسمع الكثير من الذم في والده وبلده، على الرغم من تحفظه على الاثنين لم يطق جدته لهذا، وصار يتمنى كل ليلة أن يستيقظ فلا يجدها.

كانت المدرسة هي متنفسه الوحيد من السواد الجاثم على روحه،

ليس لأنها مما يسر، ولكن لكونها عذرًا مشروعًا يتغيب به عن المنزل. نجح في كسب بعض المعارف، ولكنه لم ينجح في تكوين صداقات تدوم. كان خجله وروحه المقيدة إلى الأرض بأصفاد الغضب لا تجعل منه صحبة تؤنس نفوس أقرانه، يقتربون منه مستكشفين ثم يبتعدون في سرعة عندما يصليهم لهيب حقده الدائم.

فور وصوله بعث إلى رودلف ينبئه، ولكن المقابلة بين الصديقين تأخرت.

كانت المناقشات المحتدمة بين السيدتين في المنزل تزداد في حضور فريدريكا، التي كانت تتفنن في إثارتهما على بعضهما، ثم تجلس مستمتعة بجدالهما المهذب الهادئ كمبارزات النبلاء. في النهاية سيؤذيان بعضهما، ولكن أحداث هذا الأذى تدور في إطار من الأناقة والرقي.

حضور فريدريكا للزيارة يعني بالنسبة إلى أنجيلا وصول موسم المبارزات إلى ذروته، أما بالنسبة إلى محمود فقد كان يعني أديلينا، الصحبة المؤنسة للروح.

ولكن اختلفت نوعية اللعب باختلاف العمر، كان كلاهما قد خطا خطوات خجولة في عالم المراهقة، فتفتحت أمامهما أبواب لم يكونا يعلمان بوجودها، من نتائجها أتت قبلة بعينين مغمضتين وشفاه مضمومة في غرفة مكتب جدهما، خلفهما وقف فارس مدرع على صهوة جواده يحرسهما من داخل لوحة زيتية كبيرة. تجربة محركها الرئيسي رغبة محمود الذي نظر حوله ولم يجد غير ابنة خالته، فأشركها معه في تجاربه.

مكث إحساس القبلة الساذجة في روحه طوال الليل، بينما تنازع تأنيب الضمير مع لذة الشغف في نفس أديلينا. تكررت تلك القبلة دون زيادة في الأيام التالية حتى حان موعد الرحيل. نظرت هي ومحمود إلى بعضهما نظرة اختلطت فيها الانفعالات. خطوط من المودة والحب البريء تقاطعت معها رغبة بضة لا يعرفان إلى أين تتجه بهما.

كان محمود حائرًا يشعر بتغيرات غير مسبوقة تطرأ عليه. إلحاح المراهقة يتزايد وهو لا يعرف كيف يجيبه. بدأ يراقب نساء الدار والضيفات، حتى أمه لم تسلم من نظرة يختلسها منها بعين آثمة، يعقبها تأنيب ضمير حار وهو يقول لنفسه في قرف: يا لقذارتي! ولكن حتى هذا التأنيب لم يردعه.

عاملات المنزل كن موجودات دائمًا، ولكنه بدأ ينظر إليهن نظرة مختلفة. فجأة اكتشف أنوثتهن، ومن ثم بدأ يختلس منهن النظرات المفضوحة.

حتى ظهرت برناديت، ظهرت له أنوثتها حيث إنها كانت تعمل لدى جدته منذ عصور ما قبل الشهوات. خادمة في منتصف الثلاثينات ذات جسد ممشوق فائر؛ يغري أي مراهق يتلمس طريقه في عالم النساء بالنظر إليها وتخيلها.

لاحظت برناديت نظراته المفضوحة التي تنبئ بما يعتمل في نفسه من تشوش المرحلة الجديدة. قررت أن تتفنن في إظهار مفاتنها أمامه عن طريق صنع بديع الحركات في أثناء تأدية عملها. هو ولد ذكي وسيفهم المطلوب منه مقابل بعض الخدمات التي ستعطيها له عن

طيب خاطر. الحياة ليست دائمًا متيسرة، والمعيشة تتزايد متطلباتها في إلحاح؛ فطوبى للأذكياء.

وكما توقعت فقد التقط محمود الإشارات فورًا وأصبحت هي المفضلة لديه. إذا رآها قادمة دق قلبه بقوة طمعًا. صارت معذبته ومخلصته في الوقت ذاته. أذاقته في يوم سعيد بعضًا من رحيقها، ثم تمنعت وتهربت منه بعدها. لم يعرف ماذا يفعل، وتلاعبت به الظنون بين حيرة ورجاء، حتى قرر أن يحاول استمالتها بالنقود. ذهب إليها وهو في شدة الحرج ونفحها ورقة نقدية فاخرة، نظرت إليها في سعادة قبل أن تقول: يا لكرمك!

وبعدها صارت على أتم استعداد لأن تقدم له ما يريده من خدمات، ولكن بمقابل مادي. كانت امرأة شرهة لا تكتفي، وكان هو صبيًّا لا يعرف متى يتوقف. علمته الكثير وتركت في ذهنه ذكرى لها في كل ركن. صار يستخدم مصروفه ليشتري الحلوى من متجر برناديت. وإذا لم يكفِ المصروف إلحاح شبابه كان يمد يده إلى أموال من في البيت، حتى إنه في مرة دخل جناح الخدم متخفيًا، وسرق أموال برناديت نفسها ثم أعطاهم لها مرة أخرى في صورة نفحة جديدة. سارت الأمور على أفضل ما يكون حتى اكتشف ألفريد أمرهما ذات يوم. طردت برناديت من المنزل شر طردة، بينما تم توبيخه هو بإفراط من أم مصدومة، ومن جدة مستاءة تظن في قرارة نفسها أن لو كان والده ألمانيًّا لصار سلوكه أقوم.

فقد في لحظةٍ مصدر متعته ولعبته الأثيرة، ولم تقف الأخبار السيئة عند هذا الحد، فقد تقرر إرساله إلى معسكر صيفي عوضًا عن إفساده بالجلوس في المنزل كالفتيات. لم يكن محمود حينها يعلم أن المصائب

في حياته لا تأتي فرادى أبدًا، وإنما دائمًا واحدة بصحبة الأخرى.

ولكن هيهات لهذا الباب الذي فتح عن آخره أن يغلق، فعلى الرغم من قسوة أيام المعسكر في البداية تأقلم عليها سريعًا. الأنشطة اليومية كانت لا تعطي مجالاً لخيالاته الجامحة في التوسع، بحلول مساء كل يوم كان الإنهاك لا يسمح له بأكثر من التباهي بمغامراته وسط زملائه. انبهر الصبية بما يسمعونه منه، وتحول إلى مصدرهم للمعلومات عن ذلك الكائن الغامض المسمى المرأة، وكانت هذه بداية عودة ثقته بنفسه.

بعد عودته من المعسكر لاحظ بعين متحسرة تغير ملابس الخادمات لما يشبه ملابس الراهبات. خشي الاقتراب مرة أخرى منهن، فقرر تغيير وجهة نشاطه إلى مغامرات خارج المنزل، وكانت الفتيات هن من أخرجنه من حالة الكآبة المزمنة والغضب المستمر، كن هن دواءه لعلة ظن أنها ستلازمه طويلاً. بدأ يصقل ما زودته به برناديت من خبرات مع فتيات يماثلنه في السن. فتيات يذهبن ويجيء غيرهن على صدى أخباره الشائقة. كان ما يفعله يسبق بسنوات ضوئية السذاجة التي يقوم بها أقرانه، إلى جانب أنه كان شابًا وسيمًا؛ بشعره البني الناعم وبشرته الخمرية وعينيه العسليتين. حاجباه الكثان يعطيانه نظرة مميزة، بينما جسده الطويل الممشوق يمنحه الحق في التباهي بشبابه، بل والظن أنه لن يزول أبدًا.

وبعد فترة كان محمود قد تحول إلى شخص مرح، كأنه نسي كل ما كان ينوء به حمله من ثقل، أصبح يبدل فتياته كما يبدل ملابسه. لا يبقى وحيدًا أبدًا وتتهافت الفتيات عليه.

عندما عادت أديلينا كانت ترغب في استكمال ما بدآه معًا في

الإجـازة الماضيـة، ولكنه كان تخطـى مرحلة القبلات السـاذجة منذ زمـن. تجاهـل وجودهـا، ولم يمكـث في المنـزل إلا قليلاً وهـو يتابع مغامراته بلا كلل.

أثار تغيره حيرتها حتى سمعت حكاياته الرائجة، حسدتها إحدى صديقاتها بوضوح على مشاركتها إياه المنزل نفسه، ووصفته بأنه فتنة، ولكن أديلينا لم تشعر بالسعادة، بل بغيرة جهلت سببها. قررت أن تأخذ موقفًا من تعاليه، فحكت لأنجيلا ما تتحدث به الفتيات عنه. ليس نصرة للفضيلة وإنما انتقامًا منه.

لم ترتح أنجيلا لما سمعت، فقالت له: أسمع عنك ما لا يرضيني. أصبحت كازانوفا المدينة ولك في كل مجلس قصة تروى.

قال متوترًا وعيناه تفران: وما الضير في هذا؟

ـ لا ضير فيه إذا كانت قصصك مما لا تخجل منه.

قال في ضيق: إنما هي وشايات الحاسدين.

قالت مغالبة قلقها: أخشى أن تكون فعلتك المنكرة مع برناديت قد أثرت فيك.

ـ ما دخل برناديت يا أمي؟ ألا يكفي ما نالني من عقاب بسببها؟

ـ أخشى أنها قد أرشدتك إلى طريق لذة الجسد قبل أن تعرف الحب والمشاعر الصادقة، فأصبحت اللذات هي كل ما تبحث عنه عند الفتيات.

قال محمود حائرًا: أليس الأمر واحدًا؟

ـ كلا يا بني، لقد اكتشفت طريقًا لم يحن وقت عثورك عليه بعد، وأخاف عليك من الضياع فيه.

ثم أضافت في رقة: لا تتعامل مع الفتيات كأجساد تعجبك، وإنما انظر إلى أرواحهن، فإن أعجبتك الروح سترضى عن كل شيء آخر، وسيعرف قلبك الراحة.

بطبيعة الحال قذف محمود بنصائح أمه وراء ظهره، وأكمل سعيه باحثًا عن السعادة بالطريقة التي اعتاد عليها، طريقة برناديت.

عاد كل شيء إلى أصله بينه وبين أديلينا، بعد أن رضيت الأخيرة بما جد عليه من اختلاف، وبأن تلك القبلة التي تبادلاها ليست دليلاً على أي علاقة قد تجمعهما معًا في المستقبل. بدآ يتواصلان باستمرار عن طريق الخطابات، يحكيان لبعضهما كل شيء كأن كلا منهما يتحدث إلى نفسه، إلا الأشياء التي يحتفظ بها الإنسان في داخله حتى تدفن معه.

في سنته النهائية في المدرسة قامت الحرب، صارت الشغل الأكبر للبلاد، وتمحورت الحياة حولها. بعد أسابيع معدودة من بدايتها تلقى خطابًا من رودلف يخبره أنه تطوع فيها، استنكر قراره كاتبًا له: اترك الحرب للفقراء الحالمين.

ولكن رودلف تجاهله ومضى قدمًا في خططه.

بحلول عام ١٩١٥ التحق محمود بالجامعة لدراسة الطب، وترك منزل جدته متنقلاً إلى برلين، وهناك تفتحت له الحياة على نحو مغاير لما عهده. استأجر غرفة في منزل يقع في منطقة هادئة في ضواحي المدينة، معتمدًا على نفحات أمه السخية؛ فعاش في بحبوحة.

أديلينا كانت قد بدأت تواعد شابًّا كالفرع المائل من عائلة أصيلة. حذرها محمود منه ولكن إعجابها به جعلها لا تلتفت لتحذيره.

لها الشاب بها قليلاً ثم تركها بعد أن هامت به، فتهشمت بقوة وفقدت بريقها. أراد أن يلقن الشـاب درسًا ولكن أديلينا قالت له: أليس هذا ما تفعله مع الفتيات؟

سـكت في غيظ، ولم يعلق ولا سـعى لتأديب الشـاب، ثم انتهت الإجازة وعاد إلى برلين دون أن يطمئن عليها.

ولكنه اضطـر إلى معاودة زيارتها سريعًـا، عندما وصله خبر وفاة شـقيقها بعد إصابته بحمى لم تنجح محـاولات علاجها. ذهب معزيًا فوجد مناحة في منزل خالته، قال لأديلينا وهو يحتضنها: لا تتصورين مدى حزني.

قالت له وهي تنظر إليه بعينين ذابلتين أسـهدهما الحزن: أنت الآن أخي الوحيد.

-٥-

في صيف عام ١٩١٦ تقابل محمود ورودلف بعد سنوات من الفراق. كان اللقاء عاطفيًّا مملوءًا بمشاعر الود. بديعة هي علاقات الصداقة التي تنشأ في الصغر بين روحين لا يقيسان صداقتهما بأدوات الكبار المبنية على الحسابات المعقدة. يلتقيان فتتآلف روحاهما هكذا بمنتهى البساطة. تصير صداقة مهما مر على أصحابها من تباعد فإنهم ما إن يتقابلوا حتى يشعروا كما لو كانوا لم يفترقوا للحظة، كأنهم عادوا صغارًا لا ينقصهم إلا أن يلعبوا ألعاب الصبية والفتيات.

حكى لرودلف كل ما مر به منذ افتراقهما، وفاة والده ودناءة عمه، سخطه على مصر وعلى أبيه شخصيًّا. ألقى كل ما في حياته من أثقال تجثم على صدره فوق المائدة التي جمعته مع رودلف. كان من المريح أن يجد شخصًا يشاركه مشاعره؛ فيفرح له أو يشفق عليه في صدق.

قال له رودلف: لقد رأيت الموت مرات لا تحصى حتى صرت لا أهابه.

ـ لا يستطيع من لم يذهب إلى الحرب مثلي أن يعرف شعورك.

رد رودلف وهو ينظر إليه في عمق: لقد قتلت الكثيرين.

ـ لا أعرف هذا الشعور أيضًا.

أجاب رودلف وهو يشيح بنظره هائمًا في فضاء الحانة: يموت جزء من روحك عندما تقتل شخصًا.

ثم أضاف وهو ينظر إليه مشجعًا كأنه يلوذ به: لك أن تسعد بأنك احتفظت بصفاء روحك، ولم تعذبها مثلما فعلت أنا.

ثم أكمل بعد صمت: سنحتفل بلقائنا هذا كما الأيام الخوالي، بل أفضل، فأنا لا أعرف إن كنت سأحيا لأشهد إجازة أخرى.

كان حديث رودلف عن الأيام الخوالي لا يتعدى كونه أمنية مستحيلة، فكيف يمكن لعهد الطفولة أن يقاس بالنضج ومسؤولياته؟ إلا أنهما حاولا بصدق أن يستعيدا مشاعر الأيام السعيدة التي لن تعود. كانا كالنحل العطش للرحيق، يتنقلان بين زهور الملذات كأن مناديًا نادى في شوارع المدينة بصوت كئيب أن اليوم هو الأخير، وأن الغد لن يأتي. كانت الاحتفالات صاخبة بكل المعاني، الفتيات يرُحن ويجئن على منزل رودلف الصيفي كأنه بيت طالبات. الخمر سكبت بغير حساب فقضيا أسبوعًا يلهوان كما ينبغي لهما. اختلطت عليهما الأيام والليل بالنهار، لا ينامان إلا حين يسقطان منهكين. رودلف احتفل كأنه ينتقم، كأنه قرر ألا يترك متعة إلا وقد أخذ منها ما يكفيه ويزيد، وكان محمود يتبعه كدأبه.

انتهت إجازته وعاد بعدها إلى جبهات القتال، تاركًا محمود لوحدته الدائمة. وحدة لم يفلح على مر السنين في اجتيازها، حتى نسي شعور أن يحظى المرء بأصدقاء جدد.

ولكن هذا الشعور عاوده في محاضرة لأستاذ ذي نبرة صوت سقيمة، تحرض العين على النوم. جلس محمود يرسم خطوطًا في دفتر محاضراته متمنيًا أن تنتهي، فمال عليه جاره في المقعد وقال له بصوت منخفض: يقال إن ألبرت أينشتاين كتب بحثه عن التأثير الكهروضوئي في محاضرة من محاضرات الدكتور كريستوفر.

كان شابًّا حسن الصورة والهندام، يرتدي بذلة عليها ربطة عنق خضراء لونها يلفت الانتباه، ويضع منديلاً باللون نفسه في جيب السترة العلوي، كما لو كان يؤكد اختياره لهذا اللون الغريب.

رد محمود هامسًا: ترى كم من الأجيال تخرجت في جامعات إنجلترا وأمريكا منذ أن بدأت هذه المحاضرة؟

ابتسما وتعارفا، وبعد عناء الملل جلسا تحت ظل شجرة في الفناء يتحدثان كصديقين قديمين. اسمه يوهان كلاوس، شاب صغير البنية شديد البياض، ذو شعر أشقر خفيف وجبهة عريضة نبيلة. قال وهو ينظر إلى منديل محمود الأبيض الذي خرج بغير نظام من جيبه: هل هذا أحمر شفاه؟

وارى محمود المنديل ضاحكًا وقال: آه لو تدرك الفتيات كم المآزق التي يضعننا فيها بسبب حبهم للتجمل.

ـ الحذر واجب، اليوم ينبهك صديقك غدًا تمسخرك زوجتك.

رد محمود في استنكار: زوجتي!

ثم فتـح ذراعيه في هيام مسرحي وأكمل: الحيـاة حديقة مليـئة بالزهور يا صديقي. لماذا يحصر الرجل العاقل خياراته في زهرة واحدة؟

قال يوهان ساخرًا: نظرية تنذر بحياة بائسة تنهيها وحيدًا.

ـ ولكن تعيشها بطولها وعرضها.

ـ المشـكلة في النهايـة، عجوز وحيد قد طويـت صفحته وانفض الجميع مـن حوله؛ فلم يعد قادرًا على الاسـتمتاع بالملذات التي ترك الزواج من أجلها.

ـ أين نحن الآن من هذا اليوم؟

قالها وهو ناعم في شبابه.

صار هـو ويوهان صديقـين مقربين، ينهلان من متع الحياة معًا في برلـين التي كانت مدينة لاهية تغري العابثـين. قال محمود ليوهان في مرة بعد أن أنهيا سـهرة شرحت نفسـيهما: أنا أحب هـذه المدينة التي تزداد انفلاتًا كل يوم.

ـ عندمـا يشـعر الناس بعـدم الأمـان، وأن اليوم قـد يكون آخر عهدهم بالحياة؛ يعبثون حتى الفجور.

ـ فلتستمر الحرب إلى الأبد إذًا.

قال يوهان في حسرة: كم وددت الاشتراك فيها.

قال محمود ساخرًا: وماذا تفعل هنا إذًا؟

ـ لقد تطوعت، ولكنني رُفِضت لعدم لياقتي طبيًا.

رد مشاكسًا: ترى هل هذا رأي الفتيات فيك؟

قال مستنكرًا: أجمعن جميعهن على أنني محارب من طراز فريد.

مع الوقت اكتشف محمود أن يوهان أكثر من قابلهم حماسًا لبلده. كان يقول له في صدق: إذا ما جاءتني الفرصة للدفاع عن هذا البلد لن أتردد، حتى لو كان عمري تسعين عامًا.

مع الاستسلام لنداء الملذات صار محمود منفلتًا دون وازع أخلاقي، يسير في الدنيا بغرض تلبية كل ما توسوس له به شياطينه. أما يوهان فعلى الرغم من أنه يبرع في المرح فإن لديه بعض المثل العليا. كانت هذه الاختلافات تجمعهما وتخلق بينهما توازنًا مطلوبًا.

وفي يوم بين تقلبات فصول الأعوام توفيت جدته. قالت له أمه عندما ذهب لتعزيتها: لم ننسجم مع بعضنا أبدًا، ولكنني أفتقدها على نحو لا يوصف.

ـ ألهمك الله الصبر يا أمي.

كان هذا هو كل ما وجده ليقوله.

بتخطيه عتبة العشرين كانت نفسه قلقة، سريع الملل كأنه أمير مترف من روايات ألف ليلة وليلة، ولكن ما تحمله الحياة من تنوع في لذاتها أمّن له الجديد دائمًا، ووفر له ضالة مختلفة كلما احتاج إلى التغيير، رغباته تجاه الفتيات صارت أسلوبه في الحياة.

ظل يتنقل من فتاة إلى الأخرى حتى وقعت ماري في طريقه، وجهها بريء يشي بأنها لا تكاد تفقه عن الحياة شيئًا. لم تصقلها التجارب ولم تترك الآلام ندوبًا على روحها. ابنة رجل ثري تعيش حياة مرفهة، ولا يحتوي قاموسها على كلمات مثل المعاناة والكدح. ظلا معًا لفترة تعتبر طويلة بالقياس على ما جبلت عليه علاقاته.

لم ينقطع خلالها عن رؤية فتيات أخريات، ولكنه اتخذ التدابير اللازمة لكي لا تصل الأخبار إليها.

في يوم استلقت على الفراش تخفي جسدها النضر تحت غطاء ساتان ذهبي صامتة تدخن سيجارة، شيء آخر علمها إياه من ضمن ما علم. قالت له وهي تنظر إليه في تركيز: إنك غريب يا محمود، كما لو كانت لك روح شاردة لا تجد مستقرها.

أعجبته مقولتها، ووجد أنها تضفي عليه مسحة من التمرد الممزوج بالغموض. ابتسم لها قبل أن يحتضنها ويقبلها، بينما هي تستكين بين ذراعيه كمن وجدت موطنها.

فكر في نفسه أن البراءة لا تعني أن يكون الإنسان ساذجًا، بالعكس، فالبراءة تعطي للناس القدرة على قراءة النفوس والعقول، تمامًا كالأطفال، يستطيعون التمييز بين المشاعر دون أن تكون لهم أي خبرة في الحياة.

آمن محمود بما قالته له ماري وتصرف على أساسه، وكانت هي أولى ضحايا قولها فقطع علاقته بها، ولكن المسكينة التي كانت قد وقعت في غرامه على نحو أصابها في مقتل لم تستوعب هذا التغير، ظنت أنها قد فعلت ما لم يرضِه فحاولت إصلاح ما لا تعرف.

صارت تطارده في كل مكان. تحدث معها أكثر من مرة بلطف لعلها تفهم، ولكنها كانت تصر على محاولاتها على نحو شديد البراءة ككل شيء فيها. يجدها أمامه تنظر إليه بعينيها الواسعتين نظرة أشبه بالرجاء. يسألها في استياء: ماذا أتى بك يا ماري؟

فترد بعد صمت ثقيل: أنا أفتقدك.

يشعر بتأنيب الضمير يلح عليه، فيلجأ معها إلى قاسي الكلام ليبعدها.

في آخر مرة قابلها كان يخرج من مطعم بصحبة فتاة، وكل ما يشغل باله هو ما ستفعله هذه الوافدة الجديدة بادية التمرد في فراشه، غارقًا في خيالات ساخنة، سمع من تناديه باسمه، التفت ليجد ماري، وجهها منهك وقد طغت هالات داكنة على بريق عينيها. ابتسامتها الدائمة اختفت دون أن تترك خلفها أثرًا. مرتبكة كعادتها ومستسلمة لمصيرها على نحو موجع.

استأذن مرافِقته وذهب إلى ماري، عازمًا أن ينهي الليلة هذه المطاردة التي لا طائل من ورائها.

قال لها بقسوة: ماذا تفعلين هنا؟

قالت في رجاء: أنتظرك.

زم شفتيه ثم قال في هدوء طلبه بصعوبة: وإلى متى ستطول هذه المطاردات؟

ـ ألم تعد تحبني يا محمود؟

قال بوقاحة: لم أحبك قط يا ماري لأتوقف الآن. لقد كنا صديقين، وكانت بيننا أوقات جميلة، ولكن كل هذا انتهى.

ترقرقت الدموع في عينيها، وبدا عليها انكسار وقالت: ولكنني أحبك والحياة من دونك لا تستحق أن أحياها.

قال من دون تعاطف: الحياة لا تتوقف بسبب شخص، أنت فقط لم تحاولي أن تستكمليها من دوني.

انفجرت في بكاء مفاجئ، فقالت وقد فقدت التحكم في نبرة

صوتها: لقد حاولت يا محمود ولم أنجح. كل شيء في هذه المدينة يذكرني بك. إنك لا تبارح خيالي منذ أن أستيقظ حتى أنام، هذا إن استطعت النوم. أرجوك قل لي في ماذا أخطأت وأعدك أن أصلح خطأي، فقط عد لي.

نظر ناحية رفيقته الجديدة فوجدها تتبرم، خشي أن تفسد الليلة فقال: إذا كانت الأمور قد تطورت من ناحيتك لشيء أكبر من الصداقة فهذا ليس شأني. والآن أرجوك أن تتركيني لأنني مشغول، وأتمنى أن تتوقفي عن مطاردتي على هذا النحو الجارح لكرامتك، وأن تتحلي بما تبقى لك منها.

تشنج وجه ماري وانقلبت شفتاها إلى أسفل كطفلة توشك على البكاء، ولكنه ابتعد دون أن ينظر وراءه.

بعدها بيومين كان يجلس مع يوهان، فوقع بصره في الصحيفة على خبر به صورة جسد مغطى ومسجى على الأرض، يقف حوله عدد من رجال الشرطة يقول: انتحار فتاة في العشرين من عمرها بالقفز في النهر.

فُجِع بأن الفتاة المنتحرة هي ماري، ووضع الجريدة جانبًا وهو لا يصدق. انتابه شعور بالذنب الرهيب، زاده يوهان عندما قال له بعنف: أخشى ألا تعرف أبدًا طعم السعادة بسبب ما فعلته بها، لقد قتلتها يا محمود.

حاول الدفاع عن نفسه ولكنه لم يقدر. جلس مصدومًا وعقله لا يتوقف عن التفكير في تفاصيل صغيرة كلها تدور في فلك ماري. ملأ التأنيب نفسه فانعزل وتوقف عن ارتياد الجامعة. وفي يوم تحتم عليه

الذهاب لأداء امتحان، بعد أن انتهى منه وجد شـابين في طريقه بادره أحدهما متسائلاً: أنت محمود تيمور؟

ـ أنا هو، من يسأل؟

جـاءه الرد في صـورة لكمة عنيفـة مباغتـة أفقدته توازنـه، تلتها لكـمات أخرى عـلى نحو أنهـى مقاومته قبـل أن تبدأ. كانـا يضربانه بكراهية واضحة لم يعرف لها سببًا، وبينما هو على الأرض يحاول حماية وجهه ورجولته بطل تعجبه، إنهما شـقيقا ماري. يبدو أن علاقته بها لم تكن سرًا في منزلها، وأيضًا سبب انتحارها.

ضربـاه حتى شـبع، وعندما بـدأ إدراكه للوجود ينسـحب انتهى الأمر فجأة كما بدأ. رحلا وتركاه أرضًا يصارع المحتوم، ذراع وأضلع مكسـورة، إضافة إلى أنف مهشـم وإصابات متنوعة، احتاج التقرير الطبي إلى صفحتين لسردها.

مكث في المستشفى عدة أيام، وبقدر ما كانت الآلام مبرحة كانت المسـكنات قوية. غرق في دوامة لا تنتهي من التخاريف كانت ماري هي قاسـمها المشـترك. وكلما بـدأ في الأنين يعطيه الطبيـب المزيد من المسـكنات ليعود إلى دوامات كوابيسه. كان يحاول أن يقول لهم بعقل ملأه الضباب أن يكفوا عن إعطائه المسكنات، فالألم مهما كانت شدته أرحم من هذا العذاب، ولكن لم يكن أحد يسـمعه فكانت المسكنات لا تنقطع ومعها الخيالات بقسوتها.

-٦-

أخبره الطبيب أن أنفه المهشم سيبقى شاهدًا على هذه الحادثة المؤسفة، تلقى الخبر متشائمًا. سيتذكر ماري في كل مرة ينظر فيها إلى نفسه في المرآة؛ فأي عذاب هذا؟

قضى في منزله أيامًا طويلة قبل أن يتمكن من الخروج مضمدًا ومجبرًا. في الشارع حانت منه التفاتة إلى حيث كانت تقف ماري تنتظره، وجدها واقفة بينما ملابسها وشعرها يقطران ماء، وعلى وجهها النظرة المستسلمة الراجية نفسها، كره نفسه وانطلق هاربًا من خيالاته.

جاءه شيطانه موسوسًا بأن ما حدث لا يجب أن يمر، لا بد له أن ينتقم من الشقيقين اللذين أهاناه وشوهاه. سيطرت عليه الفكرة حتى كاد يبدأ في تقصي أثرهما. علم أن اسميهما فرانس وديريك بلاك. توقف مسعاه للانتقام عندما أدركه يوهان بالاعتراض فقال له: البحث عن الانتقام سيوقعك في دائرة مقيتة من العنف والغضب،

دائرة ملتهبة تنادي بصوت كالفحيح يمسّك حتى تدمر نفسك.

ثم أضاف: لقد تسببت في انتحار أختهما. يجب أن تشكر القدر لأنهما لم يفتكا بك. دع الأمر وانسَه.

أعـاده كلامه إلى رحاب التعقل فنحى فكرة الانتقام جانبًا، ولكنه وضع كل سـخطه على ماري. وصل إلى قناعة بأنه لا ينبغي أن يشـعر بالشـفقة تجاهها. مريض هو من ينهي حياته بسـبب حبه لشـخص. شـعر ناحيتها بنفور وازدراء، ومع ذلك فكلما وقف أمام المرآة ورأى اعوجاج أنفه طالعته بنظرتها المنكسرة البريئة، فيشعر بالشفقة ويؤنب نفسـه، ثم يتدخل عقله ليقلب هذا الإحسـاس إلى مقت، إنقاذًا له مما يثقل روحه من لوم الضمير الذي إذا انطلق دون ضابط فقد يجنّه.

ولكن كلام يوهان لم يمنعه من التستر في الظلام ومراقبة منزل ماري من وقت لآخر، يشاهد أناسًا يخرجون وآخرين يدخلون وهو لا يدري أيهم الأخوان. اكتشف حينها أنه لا يتذكر وجهيهما. لا يحمل لهما أكثر من تخيلات، ولكن لا صور يمكن التعرف عليهما بها.

في عـام ١٩١٧ وفي أثناء الامتحانات وصله خطاب من أمه تطلب منه زيارتها. لم يأتِ هذا الخطاب كما تمنى، كان ينوي أن يزورها ولكن بعد المرور على فرانكفورت لمقابلة صديقة تعرف عليها دون أن يصل إلى مبتغاه معها، فبقي طيفها يعده بالكثير ويحمسه. لم يستطع رد طلب أمه فغير خططه وفي نفسه ضيق خفي.

جزعـت أمه عندما رأته، حكى لها أنـه تعرض للضرب ذات ليلة من بعض السكارى فربتت على كتفه مشفقة، بدت له متألقة وسعيدة، قالـت لـه في صباح أحد الأيام مشـيرة إلى الأرجوحة تحت الشـجرة

الكبيرة: وأنا صغيرة كنت أحضر إلى هذا المكان عندما أغضب، فتهدهدني هذه الأرجوحة حتى أهدأ. وعندما كبرت وعرفت معنى مشاعر أخرى مثل الإحباط والغم، ظلت الأرجوحة هي وسيلتي المثلى للتغلب على همومي.

جلست عليها وقالت له بابتسامة: هلا أرجحتني؟

بادلها الابتسام وهو يلتف حولها، بينما يداها الرقيقتان تتشبثان بسلاسل الأرجوحة التي تعلقها في الشجرة. بدأ يدفعها بخفة وهي صامتة سارحة فيما لا يدريه.

قالت له فجأة: تمنيت دائمًا ألا أشيخ.

قال مازحًا: تريدين أن تظلي شابة إلى الأبد يا أمي؟

- إنما أريد أن أموت قبل أن أشيخ.

قال مستنكرًا: لا يعجبني ما تقولين.

- أتتمنى لي أن أعيش حتى أتحول إلى عالة على من حولي؟

- متعك الله بطيلة العمر يا أمي.

- الصحة أهم من طيلة العمر.

- ما جدوى هذه السيرة؟

- مجرد ثرثرة لا تضر.

ساد الصمت. بدت مستمتعة حقًا وهي تتأرجح، مثل طفلة صغيرة بهذه الابتسامة التي علت وجهها على الرغم من السيرة المقبضة. أراد تغيير الموضوع فسألها: ما الذي جذبك إلى أبي؟

سرحت قليلاً ثم قالت وقد اتسعت ابتسامتها: تيمور كان ساحرًا.

أنت تشبهه في الكثير ولكنه كان أجمل منك.

ـ وماذا أيضًا؟

وضعت قدميها على الأرض لتتوقف، وجذبته من يده ليواجهها. قالت له وهي تنظر إليه ويدها تربت على وجنته: كان رجلاً صادقًا، لم يحاول أن يلعب بي على الرغم من أنه كان يستطيع إن أراد، فقد كنت مفتونة به، كان محبًّا يسكب مشاعره على من حوله بلا حساب. ذكرني بأبي الذي فقدته دون أن أكتفي من حنانه.

قال محمود بنبرة محايدة: هذا جيد.

ـ لو كان موجودًا الآن، لعلمك أنه من السهل على شاب وسيم حلو اللسان مثلك أن يلهو مع فتيات كثيرات، ولكنهن في النهاية سيتذكرنه باللعنات. المهم هو أن تجعل امرأة واحدة فقط تحبك وتتذكرك بكل جميل قبل أن تنام كل ليلة.

قال ضاحكًا: هل ما زالت أخباري تصلك؟

ـ أعلم أنك ماضٍ في طريقك دون الالتفات لما قلته لك. كما أستطيع التكهن بأن أنفك المكسور هذا ليس مجرد حصيلة معركة لا ذنب لك فيها.

أدار وجهه وخيالات الحقيقة وراء إصابته تتراءى له. قال وهو ينظر إلى ساعة جيبه: أديلينا وخالتي على وشك الوصول.

قالت بهدوء: استمتع بشبابك وافعل كل ما تريد، فقط لا تؤذِ أحدًا لكي تمتع نفسك.

هز رأسه وابتسم ليطمئنها. كم تأخرت نصيحتك يا أمي. عادت الأرجوحة للحركة وساد الصمت مرة أخرى.

بعد وصول أديلينا دعته للخروج احتفالاً بقبولها في الدراسات

العليا في مدرسة الفنون ببرلين، وعزمها الانتقال والعيش هناك. سَعِد بأنها ستكون بجواره، ولكنه أشفق على حريته أن يكبلها وجودها حوله.

ذهبا معًا إلى حانة صغيرة كلاسيكية الطراز كل ما بها عتيق. أخشابها بنية مائلة إلى الأسود، وإضاءتها صفراء باهتة كأنها تعود إلى عصر اختراع الكهرباء. اتخذا مكانهما إلى منضدة تتسع لفردين لا ثالث لهما.

جلسا يشربان ويتحدثان. دار رأساهما فقالت أديلينا فجأة: هل تعلم أنك ستصير ذا شأن في المستقبل؟

ـ أهذه تنبؤات أم أمنيات؟

ـ الاثنان معًا.

ـ هل صرتِ عرافة تقلّبين رزقك بالدجل؟

ضحكت ثم بدأت تحكي: في يوم خرجت مع صديقاتي للتنزه، وجدنا عند مدخل الغابة مجموعة كارافانات للغجر، تتخذ شكل نصف دائرة، وتبيع أشياء متنوعة. ما لفت انتباهي كان كارافان لونه أبيض مزخرف بالأزرق، وتتوسطه عين كبيرة رسمت برمزية ولكن بإتقان، كان يقف بعيدًا عن المجموعة في غموض، منبوذًا أو متعاليًا، صاحبته عرافة تدعى ليتيشيا الزرقاء، وما قالته لي لا يفارق عقلي.

لمحتْ نيته الاعتراض، فأضافت قبل أن يبدأ: قراءات الطالع والنبوءات أشياء دائمًا ما استهوت الناس. الكل يريد أن يعرف ماذا يخبئ له الغيب.

ـ إن حجبه عنهم حكمة عظيمة لو يعلمون.

ـ ولكننا دائمًا نحاول العثور على باب خلفي لندخل منه إلى مستقبلنا، إنه إغراء لا نستطيع مقاومته.

ثم أكملت بعد رشفة نهمة من كأسها: كانت النبوءة بخصوص شخص قالت ليتيشيا إن طالعه ينعكس على كفّي، أذكر كلامها بالضبط، قالت «أراه يدخل الغابة حتى يصل إلى عرين الذئب، سيقربه الذئب منه ويدنيه فيفرح، ولكن هذا القرب سيصبح سبب نقمته وسر شقائه، فلا يوجد أمان في كنف الذئاب. في لحظة يطرد من كان في القرب منعمًا، فيتوه في الغابة بلا رجعة، فبعد المودة يأتي الجفاء، وبعد الهناء تأتي المشقة».

أكملت بصوت مفتون: أما أنا فقد كنت أتابعها بعينين مفتوحتين وأنا غارقة تحت تأثير الغيبيات. مررت أصابعها الطويلة على كفي مزيحة أستارًا وكاشفة حجبًا، بمزاعم علمها وإدراكها الذي يتخطى الحدود والمسموح، تتعمق في كفي بعينيها الزرقاوين الصافيتين، فتخرج الهدايات من فمها منيرة طريق القلقين، وراسمة مسارات الضائعين. قالت لي ليتيشيا بصوتها الآسر: «أما أنت فلا بد أن تبقي بقربه، هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيعين بها دفع بعض البؤس عنه، فقط بعضه، إنه بؤس لا مفر له منه. ولكن حبك له يا بنيتي له ضريبة يجب أن تدفعيها صاغرة».

بعد أن انتهت ظل صدرها يعلو ويهبط كأنما مسها شيطان الغيب فامتلك حواسها. قطع محمود الصمت قائلاً في تشكك: أتمنى ألا تكون هذه السيدة الزرقاء تقصدني أنا.

هزت رأسها بنعم، قبل أن تستريح مستندة بظهرها على مقعدها.

فقال مستنكرًا: أنت تبالغين يا أديلينا.

ـ أنـا أطالبـك بما يبدو مناسـبًا لـك، لا أظن أنك تكـره الحياة في برلين، ولا أظنك تمانع أن أكون فيها معك، فعلام التبرم؟

ثم التقطت يده وقالت: هل فهمت نبوءة العرافة؟

قال مستعيدًا عناده: لا أؤمن بقراءات الطالع.

أعادت سـؤالها فأجاب: سأصل إلى ما أصبو إليه. عظيم، ولكنني لا أرى كيف يصبح رجل مثلي بائسًا.

قالت وهي تضغط يده بأصابعها في حنو: لست أفضل من كثيرين تحـول رغد عيشـهم إلى بـؤس لا يحتمل. البـؤس ليـس الفقر فقط، هناك الوحـدة، فقدان الأحبة، ضياع الأمل. أصل الحياة هو الشـقاء والبؤس، وفرعها السعادة والرضا.

قال وهو يقوّس حاجبيه: البؤس حالة متأخرة جدًّا من الشقاء، لا يصل إليها المرء إلا بعد أهوال شديدة.

قالت بالحنو نفسه: فلتدعُ اللـه إذًا ألا يصيبك البؤس بضره.

هز رأسـه مؤمنًـا في صمت، فأكملت هي: سـألحق بك في برلين، أنت قدري الآن.

شربـا حتى ثملا. بانتهاء الزجاجة جاءت الأفكار متدفقة فنظرت أديلينا إلى ساعتها وقالت في حماس: ما رأيك في زيارة إلى ليتيشيا لتقرأ لك طالعك بنفسها؟

-٧-

قضيا الطريق إلى معسكر الغجر مترنحين ضاحكين، حتى لاح ضوء نار عالية في الأفق وارتفعت أصوات، فقالت أديلينا لمحمود محذرة: لو شعروا أننا سكارى فسيسرقوننا لا محالة، تماسك ولا تعرضنا للإهانة.

- أنا في خير حال، أصلحي أنت من خطواتك المعطوبة وسنكون على ما يرام.

وصلا فوجدا المعسكر يضج بالحياة، وبه زوار جاءوا بحثًا عن تذكارات وأشياء مسروقة يشترونها بأسعار بخسة. أشارت أديلينا إلى كارافان ليتيشيا الذي زاد سحره مع السكر فشعر محمود بأن لحظة الحقيقة قد حانت. التفتت إليهما الأعين للحظات ثم لم تعِرهما انتباهًا كبيرًا. لاحقهما ثلاثة صبية بإلحاح، فهمّ محمود بأن يعطيهم شيئًا إلا أن أديلينا منعته قائلة: ستجذب ألفًا غيرهم.

سـبها أحد الصبية بفحـش بعد أن منعت عنه هبـة محمود قبل أن يجـري بعيدًا، فضحكا غير مصدقين حتـى وصلا إلى الكارافان الذي كان مفتوحًـا ومنـيرًا بمصابيح نار خافتة. أعلنت السـتارة الخرز عن وصولهما بخشخشات طربة، واسـتقبل أنفاهما روائح البخور النفاذة فشعرا أنهما قد عبرا خطًّا فاصلاً بين السكر والسطل.

كانت ليتيشـيا تجلس على وسـائد وثيرة متعددة الألـوان تتأمل. قالـت بعد أن دققت في وجه أديلينـا: لقد عدت يا عزيزتي، ومن هذا الذي تصحبينه معك؟

قالـت أديلينا بصوت خافت يناسـب وقار الجـو: إنه من ينعكس طالعه على كفي.

نظـرت ليتيشـيا إلى محمـود في عمق قبـل أن تقول: هـل جاء بك الفضول أم الرغبة في الاستنارة؟

ـ خليط منهما.

ـ وماذا تريد؟

تدخلت أديلينا قائلة: يريد أن يرى إن كانت كفه ستُكمل النبوءة.

مدت يدها وقالت: عملة فضية كبيرة.

قال محمود مستنكرًا: هذا كثير!

تقلبت شـفتا ليتيشـيا في تبرم، بينما مـدت أديلينا يدهـا بما طلبت العرافة قائلة لمحمود في إيحاء: ما تقوله ليتيشيا يستحق.

عاينت ليتيشيا العملة الفضية قبل أن تنفرج شفتاها في رضا وتتناول كف محمود لتحدق إليها، بينما الأخير قد بدأ يضيق بروائح البخور التي فقدت سحرها فأثقلت روحه. تركها تجول في كفه بإصبعها، وإحساسه

بعدم الراحة يتزايد مع طول تحديقها الذي أتبعته نظرة طويلة مقطبة الحاجبين. لحظات أخرى من الصمت المزعج ثم قالت في صدمة: بل جاء بك قدرنا نحن!

انتظرا المزيد مـن الإيضاح الذي لم يأتِ، جاء بدلاً منه نظرة مقت وصيحة كأنها نذير الويل تقول بصوت مشروخ: أنت ملعون!

أطاحت بكفه من يدها وازداد المقت في عينيها وهي تكرر كلامها: ملعون، كشيطان لا يعرف الرحمة، سيصيبنا على يديك الوبال!

قام محمود واقفًا في عنف دفعه للترنح بينما أديلينا المندهشة تتساءل: ماذا رأيت؟

لم ترد ليتيشـيا التي بدأ صوتها الغاضب يرتفع والأزرق في عينيها يغلي ويتحول إلى أسـود، بينما الأسورة المعدنية حول معصمها تصدر أصواتـًا أشـبه بالصليل وهي تشـيح بيديهـا في عنـف، لاعنة محمود بتركيبـات مختلفة مـن ذات الكلـمات. تجمدت أديلينـا ولكن محمود الذي أنار الخوف طريقه جذبها من يدها وقال: هيا بنا.

خرجا من الكارافان بينما صوت ليتيشـيا يتبعهما هادرًا باللعنات: إنك شيطان لن تعرف للراحة طريقًا ما حييت!

أسرعا الخطى مبتعدين عن المعسـكر، بعد أن بدأ صوت ليتيشـيا يجذب جيرانهـا. نظر محمـود خلفه ليجدها تشـير ناحيتهـما للرجال الملتفين حولها يستطلعون، فقال لأديلينا في قوة: اركضي.

جريا كأن زبانية الجحيم يطاردونهما حتى ابتعدا. عندما توقفا مالت أديلينا إلى جذع شـجرة تفرغ مـا في جوفها من شراب ورعب. وقف يسـتطلع الطريق ثم شـعر برغبة في أن يحذو حذوها بعد أن تقلصت

معدته، ولكنه تماسك وهو يسند أديلينا مطالبًا إياها بالاستمرار في الابتعاد. عند طرف المدينة وقفا يلتقطان أنفاسهما فقال محمود في خشونة: انظري ماذا حدث لنا بسبب عرافتك.

ـ لا أدري ماذا أصابها، عهدي بها أنها لطيفة وهادئة.

ـ إن هؤلاء القوم مجانين يا أديلينا.

ـ ترى ماذا رأت في كفك لتقول ما قالت؟

قال في عنف: لقد أخذت منا مبلغًا كبيرًا لكي تلعننا وتخرجنا من معسكرها هاربين! يا له من عمل رائع.

ـ انس النقود، أنا قلقة مما قالت.

قال مغالبًا انفعاله: هذا جنون لا وزن له، إنه نصب!

صمت مقطبًا قبل أن يستدعي الهدوء ثم يقول هازئًا: لم أحب رائحة بخورها.

قالت في شك: هل أنت متأكد من أنك لست قلقًا؟

هز رأسه وقال ببساطة: بالطبع نعم، هذه ترهات مخابيل.

ولكن شيئًا في داخله اهتز من كلمات ليتيشيا والطريقة التي نظرت بها إليه، كأنه عدو قديم بينها وبينه ثأر لن تنفك له عقدة.

في الأيام التالية تلاشى وقع كلمات ليتيشيا، تذكراه ببعض التفاصيل عندما سمعا من أصدقائهما أن الغجر قد رحلوا قبل الميعاد، وتركوا معسكرهم إلى وجهة مجهولة.

أيام أخرى وتبخر الموقف تمامًا فلم يترك خلفه إلا رواسب لا معنى لها. قضى محمود مع أمه وقتًا جميلاً جعله يشعر بوخزات تأنيب

بسبب تثاقله في الحضور لزيارتها. قال لنفسه إن المرء يكتشف بتقدمه في العمر أن صحبة الأهل ليست سيئة.

ولكن عندما طلبت منه أمه مد إجازته أسبوعًا لم يفعل. خشي أن تفسد ترتيباته مع فتاة فرانكفورت إذا طلب تأجيلاً آخر. اعتقد أنه وفّى أمه حقها فتعلل واعتذر. ابتسمت أنجيلا وتمنت له التوفيق وهي تقبله قبلة طويلة وضعت فيها كل حبها له.

قال في صدق: سأحضر لزيارتك في أقرب فرصة.

في يوم رحيله رآها تذرف الدمع لفراقه فتعجب.

ثم جاءت أديلينا إلى برلين، ووجدت سكنًا قريبًا منه فعدت الأمر ميزة حاول هو أن يقنع نفسه بها. روى لها ما استجد في حياته دون الاستغراق في تفاصيل لا تسر. حاولت الحديث عن نبوءة ليتيشيا ولكنه أغلق باب الكلام فورًا، لا يريد أن يتذكر هذا اليوم الثقيل.

عندما التقى يوهان أديلينا التمعت عيناه ببريق مفضوح وتوتر في حضورها. أوضح له محمود بعد أن لاحظ ما لم يطمئنه أن الاقتراب من هذه الفتاة ممنوع، وإلا ترك العنان للعرق الشرقي ليفتك بيوهان. كان يقولها مازحًا وإن عنى كل كلمة فيها، فضحك يوهان في عصبية وغيّر الموضوع.

حرص يوهان على مشاركة محمود في كل نشاط تكون فيه أديلينا قاسمًا مشتركًا. في صمت اشتعلت مشاعره في ربوع عشق أديلينا، هام بها حبًّا وزهد في كل نساء الدنيا الأخريات. كان محمود يتعجب كلما اعتذر له عن عدم حضور حفل أو نزهة مع فتيات كما كانا يفعلان دائمًا، ثم فطن إلى أن ذلك اللمعان في عيني يوهان تجاه أديلينا هو

السبب وراء رفضه، وبعد فترة نجح يوهان في إصابتها بعدوى حبه فغرقت فيه حتى قمة رأسها.

في يوم من أيام شهر أكتوبر أصبح الوعد الذي قطعه محمود لأمه بخصوص زيارتها مستحيل التحقيق، إنه ذلك اليوم التعيس الذي جاءه فيه خطاب من خالته يفيد بأن أمه قد توفيت.

عرف أنها كانت تعلم بمرضها، وعندما شعرت بأنه لم يتبق من عمرها ما يكفيها حتى نهاية الصيف بعثت له تطلب لقاءه.

لم يصدق قدرتها على ادعاء المرح والسعادة طوال الإجازة، بينما هي تعلم أنها تعيش آخر أيامها.

ولكن أديلينا قالت بحكمة: لو كانت صرحت لك بمرضها لكانت الإجازة قد انقلبت جحيمًا، ولكنها استمتعت بوجودك معها ثم ودعتك كما يليق قبل أن ترحل في هدوء. ستبقى دائمًا صورتها المبتسمة بكامل صحتها في ذهنك، خير ألف مرة من صورة لها ذابلة ومنهكة.

قال محمود باكيًا مقهورًا: لقد طلبت مني البقاء لأسبوع آخر وأنا رفضت من أجل ما لا قيمة له.

احتضنته أديلينا وهي تبكي معه: لم تكن تعلم يا مسكين، فلا تقسُ على نفسك.

قضى محمود فترة من عدم الاتزان ازداد فيها مجونًا، كأنه رد فعل على ما يعانيه من ألم. ثار على الحياة يحركه رفضه لوفاة أمه، ثم هدأت الثورة وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها حتى استوت مرة أخرى بفضل نعمة التعود، وإن ترك الرحيل جرحًا بالغًا لا يندمل. لا يمكن أن يفقد الإنسان أمه ولا ينكسر بداخله شيء.

عندما زار رودلف في إجـازة عيد الميلاد فاجأه الأخير بقوله: لقد قررت أن أصبح طيارًا، لدى والدي معارف في الجيش سيلبون طلبي.

قال محمود في وضوح: خذني معك، فقد مللت من حياتي.

ابتسـم رودلف وقال: تريدنا أن نلهو معًا في السـماء كما نفعل على الأرض؟

قال محمود دون أن يبتسـم للدعابة: بل أريد أن أعرف إحسـاس القتل.

قال رودلف في توجس: هذا ليس سببًا كافيًا للانضمام إلى الجيش.

ـ لن أذكره لأحد، سأتحدث عن الوطنية والفداء عندما أطلب من والدك التوسط لي لألتحق بالقوة الجوية.

قال رودلف وقلقه لم يتلاشَ: سأسعد بانضمامك إليّ أيًا كان دافعك.

كلل طلبـه من فريتز بالنجاح فألحقه مع رودلف في سـلاح الجو. أخـيرًا شيء ما يسـير كـما يريده. بعدها فاجـأه يوهـان وأديلينا بقرار زواجهما.

قال وهو يحتضنهما مهنئًا: لم أفرح على هذا النحو منذ زمن.

-٨-

عندما علمت أديلينا برغبته في الالتحاق بالجيش أصابها الرعب، حاولت أن تنهاه ولكنه كان مصممًا. محاولاتها المستميتة لإثنائه عن قراره والنابعة من حب مخلص حملت له القليل من ريح أمه، شعر بامتنان لها ورفع منزلتها في نفسه درجات، ولكنه لم يرجع عن قراره واستمر في طريقه غير عابئ بتوسلاتها، بل وزجرها. يوهان شجعه في حماس معرضًا نفسه لتوبيخ عارم من أديلينا، ولكن نزعته الوطنية غلبت عليه فلم يذعن لزجر زوجة المستقبل قوية الشكيمة. قال لمحمود في فرح: إن حلمي بالدفاع عن بلدي سيتحقق على يديك.

تقدم بطلب إجازة من جامعته ثم ذهب مع رودلف إلى ميونخ، ومنها إلى قاعدة ليشفيلد الجوية في بلدة أوبيرشليسهايم، ومنها إلى فالينسيين بفرنسا. عندما حلق بالطائرة أول مرة وقع في غرام الطيران.

قال لرودلف: إننا مميزون عن باقي البشر، كأننا الوسطاء بين الأرض والسماء.

في الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩١٨ تم إرسالهما للالتحاق بسرب جاجستافل ٣٥ بي البافاري، وكان حماسه عاتيًا. أنباء قرب انتهاء الحرب تأتيه، ولكن كان لديه يقين بأنها ستستمر حتى يشارك فيها.

في يوم تزينت القاعدة في حلة جميلة احتفالاً بزائر مهم سيشرفها بالزيارة، هيرمن جورنج، بطل من أبطال الطيران في الحرب وقدوة كل الطيارين الألمان، حتى أعداؤه يرونه كذلك في الخفاء. شاب أشقر الشعر حاد الأنف ضيق العينين، نزل من سيارته وصافح قائد القاعدة الذي كان باستقباله شخصيًّا، وظهر عليه التواضع وهو يلتقط صورة تذكارية مع الضيف البطل. نظر إليه محمود في تفحص، ثم مال على رودلف وقال: سأجعله يغار مني يومًا.

ولكن الأمر بالانطلاق لم يأت، ولو حتى مرة واحدة. وفي الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩١٨ كان يجلس مسترخيًا في مخدعه عندما أتته من الخارج ضجة ضخمة تشبه العويل. تخيل أن الأمر قد صدر أخيرًا فخرج مستطلعًا في شوق، ولكن ما وجده حطم آماله، لقد أعلنت ألمانيا وحلفاؤها استسلامهم وانتهت الحرب. لهذا يبكي هؤلاء المأسوف على شبابهم.

وسط زملائه المنتحبين بضراوة وقف هو على مهبط الطائرات ينظر حوله غير مصدق، وهو يشعر أنه تم التلاعب به في مزحة سخيفة لا طعم لها. رأى أحد الزملاء ينهار على الأرض باكيًا ويتبعه الكثيرون. يا لكم من عجزة لا رجاء فيكم. أقلعوا بطائراتكم واقتلوا عدوكم انتقامًا، اصعدوا إلى السماء حيث المجد وصبوا نيرانكم على معسكراتهم بدلاً من بكائكم على الأرض كالثكالى، أنتم طيارون، أنتم المختارون.

إذا كانت الحرب قد انتهت فهو من سيشعلها مرة أخرى، راودته فكرة متسرعة لم يقاومها. ارتدى سترته الجلدية ووضع غطاء رأسه ونظارته وهو يجري مسرعًا باتجاه طائرته، التي تقبع في مكانها مستعدة بخزان ممتلئ وذخيرة كاملة. كل ما عليه فعله هو أن يقودها ليوقف هذه النهاية المخزية ويعيد إشعال فتيل الحرب.

تجاهل كل من حاول إثناءه عن قراره وهو يدير محرك طائرته ويتحرك بها على الممر، كاد يدهس زميلين تحمسا فوقفا أمامه ليمنعاه من التقدم. ارتفع في الجو وبداخله ثورة لا تهدأ. في السماء كانت السحب المتجمعة رمادية كأنها تبارك ثورته. ستخفيه عن العيون حتى يصل إلى هدفه. الهواء البارد على وجهه يزيده عزمًا ويثير بداخله شجنًا غريبًا تجاه شتاء الإسكندرية. ما الذي ذكره بهذا الأمر الآن؟ يحاول طرد الشجن فتتداعى الذكريات. تمر أطياف من رحلوا أمام عينيه حتى يكاد يضل طريقه. لا يريد أن يموت ولكنه أيضًا لا يريد أن يعود إلى بيته خائبًا دون أن يطلق طلقة واحدة. وصل إلى خطوط الأعداء فهبط فوق رؤوسهم من بين السحب. لم يروه من قبل في أي معركة وليست لديه سمعة بينهم. الآن سيعرفون معدنه واسمه، ستشتهر طائرته وتصنع الرعب في السماء، لقد طلاها بلون أسود مثل الليل لهذا الغرض. سيشعل هذه الحرب مجددًا وسيخشاه الجميع عندما يرونه في معركة. كان الجنود من تحته متجمعين بأعداد كبيرة كأنهم يحتفلون. أعد مدفعه وقال: فلنحتفل معًا.

أطلق النار بلا تمييز وهو يمر على ارتفاع منخفض فوق الرؤوس التي بوغتت بوصوله فبدأ الجنود يجرون في كل صوب مبتعدين عن طريقه. زخات لا تنتهي من الرصاص صبت فوقهم، كأنه سحابة

قررت أن تمطر. شاهد بعينيه رصاصاته تخترق أجسادًا فتسقط أصحابها أرضًا، إذًا فهذا هو القتل، ما باله إذًا لا يشعر بشيء؟ ماذا يجب عليه أن يفعل لكي تصل النشوة إليه؟ المدافع الأرضية انطلقت خلفه في جشع. الجنود يطلقون عليه الرصاص، الجميع ضده، ارتفع لكي يدور دورة أخرى ويهاجم من جديد. لماذا ترفض الطائرة الانصياع لأمره؟ كما لو كانوا رموا عليها حبالاً تشدها إلى الأرض. نظر حوله فوجد كل شيء طبيعيًّا، إلا بضعة ثقوب في الجناحين لا ضرر منها. نظر إلى الخلف فوجد ذيل الطائرة معلقًا من أحد أطرافه ويكاد ينخلع. لحظات وانفصل ثم اختفى وسط الغيوم وبدأت الطائرة تهوي. فقد قدرته على توجيهها إلا أنه لم يتوقف عن المحاولة العبثية، كأنه إذا ثابر واجتهد يمكنه تغيير المحتوم.

في لحظة مزعجة اصطدم بالأرض واختلط كل شيء ببعضه. اختفى وجوده في سحابة سوداء غاضبة. موجة آتية من أعماق سحيقة تنوي شرًّا. فقد إحساسه بما حوله وزاد في ضياعه حتى ظن أن الموت قد حضر، لا يشعر بالارتياح، كما لو كان يتألم، ظنه أن الموت راحة من كل شيء، وإلا فلِمَ ينتحر المنتحرون؟

قضى زمنًا في غياهب لا يعلم لها قرارًا، ثم فتح عينيه ليجد نفسه في مكان يغلب عليه اللون الأبيض. حاول التحرك فشعر بألم حقيقي، وليس مثل ذلك المبهم غير الموصوف الذي شعر به عندما سقطت طائرته. جاءته امرأة نظرت إليه في اهتمام قبل أن تقول له شيئًا لم يتبينه، فسألها بصوت لا يكاد يخرج: أين أنا؟

عرف بعدها أنه عندما انطلق من القاعدة اقتفت سيارة فيها رودلف أثره، رآه ركابها وهو يهوي من السماء في حقل بعيد عن

خطوط الأعداء فاستطاعوا الوصول إليه قبلهم. بجانب الكسور المتعددة التي أصابت جسده فإن الطائرة اشتعلت فيها نيران التهمت جزءًا من ظهره. يقول زملاؤه إن نجاته من سقوط مماثل معجزة، بينما يقول الأطباء إن استفاقته من غيبوبة استمرت أسبوعًا هي المعجزة الكبرى.

لم يستسِغ إصابته التي تركت ظهره بمظهر غير سار. كل ذلك اللحم المحترق والجلد الذي انكوى بنار تهوره وغضبه فتجعد بشكل منفر. تخيل فتاة تراه فتنقبض روحها من منظره، أو أخرى تمرر يديها على ظهره وهما منتشيان فتنفر وتفسد اللحظة.

بعودة عافيته بكاملها عاد إلى الجامعة بعد أن خسر سنة، وبرجوعه إلى حياته الطبيعية بدأ يحن إلى مغامراته، ولكنه لم يستأنفها حقًّا إلا بعد فترة من التردد، بسبب خشيته من رد فعل الفتيات من تشوهه.

ولكن في محيطه الاجتماعي الذي نأى غالبية شبابه بأنفسهم عن الحرب، كان هو الأكثر رجولة وشجاعة في عيون الفتيات. كن يتأملن جرحه في تمعن كأنه لوحة لفان جوخ، يمررن عليه أصابعهن فيجفلن من قسوة الملمس، ثم يُقبِلن في حرارة على صاحبه مثمنات جسارته. نسب اعوجاج أنفه إلى نفس الحادثة وصدقه الجميع، ولكن ظلت نفسه تأبى إلا أن تذكره بماري مكذبة بطولته الزائفة.

مرت الأيام عليه متشابهة، يوزعها بين الدراسة واللهو بحيث لا يغلب أحدهما على الآخر. نجح في صياغة توازن معقول أتاح له الاستمتاع بوقته ونيل إعجاب أساتذته في الوقت نفسه.

في عام ١٩٢٠ جاءه رودلف ذات يوم، وقد أصابه الهوس بشخص

استمع إليه في ميونخ في أثناء حضوره لمؤتمر عقده حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني، أو ما يعرف اختصارًا بالحزب النازي، كأنه وجد المخلص الذي سيأخذ بيده من ظلمات الهزيمة إلى رحاب النصر.

قال له محمود ساخرًا بعد أن سَئِم من كلامه المستمر عن الرجل: ومتى ستتزوجان؟

تجاهل رُودلف تعليقه ونبأه متحمسًا: ستحضر معي المؤتمر المقبل.

رد في امتعاض: السياسة لا تشغلني.

- هذه ليست سياسة، استمع إليه وإذا لم يعجبك حديثه ارحل، الأمر بسيط.

ظل رودلف يلح ومحمود يتهرب حتى كانت بداية صيف العام نفسه، عندما قال له حازمًا أمره: ستصاحبني إلى ميونخ.

- اللعنة يا رودلف، أنا لا أحب ميونخ.

- ستحبها من الآن.

وجد نفسه في الأول من شهر يوليو عام ١٩٢٠ على متن قطار متجه إلى ميونخ،على عكس رغبته وبغير رضاه. انتهت بهما الحال في قاعة بيرة، واحدة من تلك القاعات الكبيرة المشهورة باحتضانها لاحتفالات أكتوبر «أكتوبر فيست». كان الجو خانقًا وقد ضربت الحمرة الوجوه، وتجمعت حبات العرق فوق جباه الحاضرين القلائل. قال لرودلف في عتاب: هل أحضرتني لكي أستمع إلى هاوٍ لا يعرفه أحد؟

قال رودلف في ثقة: سترى كم هو محترف.

جلسا ينتظران بدء المؤتمر. رودلف صامت يهوّي على وجهه بمجموعة من الأوراق، بينما محمود يقرأ ملخصًا مختصرًا عن الحزب وأهدافه. نظر إلى رودلف في سخافة وقال وهو يحرك الورقة في يده: هذا ابتذال.

ـ اخرس قليلاً وتحلَّ بالصبر.

ثم تركه ليصافح بعض الناس. بدوا لمحمود رجالاً متحمسين، ولكن ليس بالحماس وحده يُدرك النجاح.

صعد رجل على المنصة الخشبية المنصوبة في صدارة القاعة، متوسط الطول ذو تسريحة شعر مميزة وشارب صغير، نظرته أكثر ما يميزه، نظرة حادة من عينين تبرقان كنجم يهوي في سماء ليلة سوداء لا قمر لها.

وقف مكانه قليلاً يرمق الناس التي بدأت بالتصفيق له، يراقبهم في تمعن كما لو كان يعاتبهم على شيء ما. ثم بدأ يتحدث، ويا له من حديث، حضوره طاغٍ يشعر من حوله أنه يقتحم عالمهم ويزاحمهم فيه حتى يملأه، شخصيته كاسحة وأسلوبه في التعبير والانفعال من أغرب ما يكون، كما لو كان لديه عشر أرواح تتزاحم في آن لإلقاء انفعالاتها على وجهه، فيتبدل كانعكاسات مختلفة على صفحة الماء. يصلح من وضع شعره كثيرًا في أثناء الكلام، ولغة جسده لم ير لها محمود مثيلاً.

متوقد الذكاء، خطيب مفوه يعرف كيف يكسب اهتمام مستمعيه، والأهم من كل هذا أنه مؤمن بأفكاره بصدق. إنه لا يبيع الوهم لمستمعيه، إنما يشاركهم حلمه. فمن أعجبه ما يسمع فمرحبًا به، ومن

شاء الرحيل فليتفضل الآن، ولكن ستنتهي به الحال عائدًا متأخرًا.

لم يدخل في مقدمات ولم يأخذ وقته للتمهيد، وإنما طرق على لُب المواضيع دون تهاون، طرق بشدة وبعنف. كان موضوع حديثه عن اتفاقية فرساي، استمع محمود إلى ما شجعه ونال استحسانه. بدأت جلسته المسترخية على المقعد تتغير إلى جلسة متأهبة على طرفه. نظر إلى رودلف كما لو كان يهنئه، بينما الأخير يحدجه بنظرة ظافرة.

بعد انتهاء الكلمة قال له رودلف: لا أحتاج لسماع رأيك فهو واضح.

قال محمود متراجعًا: كيف شككت للحظة في رجاحة أحكامك؟

ـ يعتريك خجل الشك والجهل.

ثم أضاف: لقد قررت الانضمام إلى الحزب، فماذا عنك؟

قال محمود في حذر: لا شأن لي بالسياسة.

قال رودلف في إيمان: أدولف متفرد في اختلافه.

رد محمود منبهًا: هذه ليست ميزة بالضرورة.

ـ هذا زمن مختلف يحتاج إلى رجال مثله.

قال محمود ملتفتًا إلى ما هو أهم: دعك منه الآن وأخبرني أين سنبيت وكيف سنقضي ليلتنا؟

قال رودلف وهو يشد على كتفه: امنحني بضع دقائق.

ذهب ثم عاد يحمل بطاقة عضوية للحزب، ما إن أمسكها محمود حتى ضحك بقوة ثم قال: عضوية رقم ١٦؟ أهذا حزب أم فندق؟

قال رودلف متنبئًا: سيكون هذا الرقم سبب تميزي ذات يوم.

ـ تعني عندما ينضم العضو رقم ١٧؟

- قصير النظر كدأبي بك، ولكنك سترى الطريق يومًا.

ثم وضع يده على كتفه وهو يقوده خارجًا قائلاً: والآن تعال معي لأريك كيف تحسن فتيات ميونخ وفادة الضيوف.

-٩-

في عام ١٩٢١ أنهى محمود دراسته وأصبح طبيبًا بشهادة جامعته، وضع هذه الشهادة التي كتب فيها اسمه بخط جرماني منمق في إطار أنيق، وعلقها في مكان واضح بغرفته كدليل على فخره بإنجازه. إذا لم يضع وقته في الجيش لكان حصل عليها منذ عام مضى، ولكن لا يهم؛ فقد تعلم الطيران.

منذ أن تحطمت طائرته في ذلك الحقل الفرنسي لم يقترب من مطار. كان أحيانًا يشعر بالحنين للفحات الهواء الباردة على وجهه، للحرية غير المقيدة بشيء، ولكنه لم يجد فرصة ليطير ثانية ولم يسع لخلق واحدة.

فكرة الانتقام من إخوة ماري اتخذت ركنًا قصيًّا في عقله وإن لم تتلاش، إنها ترتبط مباشرة بحاله، إن كان جيدًا انزوت بعيدًا، أما إن كان لا يسر فإنه يشعر بها تتمطى في عقله محاولة الخروج، لتفرض نفسها في توحش. إنه يعيش هذه الأيام إحدى فتراته الجيدة، فلم ينظر إلى الوراء وهو يتطلع أمامه في تفاؤل.

تم تعيينه في مستشفى برلين العام، انكب على عمله الجديد مستكشفًا عالمًا مختلفًا عن الذي أَلِفَه خلف أسوار الجامعة. كان متحمسًا ومقبلاً، لم يقتنع بعد بأنه صار جزءًا منه، عقله يحتاج إلى وقت للتعود على حقيقة أن الطالب صار طبيبًا يداوي الناس، أو يدق مسامير نعوشهم.

قضى رودلف جل وقته يتبع أدولف هتلر، فكان محمود لا يراه إلا نادرًا، حتى كان يوم من شهر نوفمبر جاءه فيه اتصال يعلمه بأن رودلف تلقى بوفاء انفجار قنبلة، عوضًا عن أدولف هتلر، بعد أن حماه بجسده.

عندما وصل إلى غرفة رودلف في المستشفى كان قلبه يدق بعنف خشية رؤية ما قد يسيئه. وجده مستلقيًا في فراشه وإلى جواره شخص يتحدث إليه بصوت خافت، إنه أدولف هتلر، تجاهله محمود وهو يتقدم ناحية صديقه ليطمئن عليه. منحه رودلف ابتسامة لم يبادله إياها محمود الذي أنهكه قلقه وهو ينظر إليه متفحصًا. ارتدت نظرته الأولى إليه حاملة طمأنينة مبكرة، ولكنه سأل رودلف: هل أنت بخير؟

قال رودلف في امتنان: بخير حال. ثم أكمل وهو يميل مشيرًا إلى ضمادات على ظهره: إصاباتي مزعجة ولكنها غير مميتة.

انبعث صوت هتلر عميقًا من خلفه يقول: لقد حماني رودلف بجسده من انفجار أخشى أنه كان سيودي بحياتي.

عاينه محمود بنظرة سريعة فقال: لم أصب بشيء، والفضل يعود إلى رودلف. أنا أغبطك يا سيد محمود على صداقتك الممتدة مع رجل مثله.

رد في ضيق: ليس جديدًا عليه أن يكون حاضرًا بجانب أصدقائه، ثم أضاف مؤنبًا: إلا أنني لم أضطره يومًا إلى تلقي انفجار بدلاً مني.

قال رودلف ضاحكًا: الدنيا تتغير.

قال هتلر بنبرة مترفعة: هذه حال من يصبو إلى العلا، وأنا سأعوضه في يوم ما عن شجاعته بمجد يحسده عليه كل من يأتون بعده.

ظهر الامتنان على وجه رودلف، وقال محمود: لقد استمعت إليك يا سيد أدولف وأعجبني كلامك، لكنني أخشى أن المجد الذي وعدت به رودلف سيتأخر قياسًا بشعبيتك التي لم ألمس منها للأسف الكثير.

ظهر أثر الكلام على وجه هتلر ولكن رودلف انبرى له قائلاً: هل تظن أن أحدهم سيتكبد عناء محاولة اغتيال شخص لا يسير في الطريق الصحيح؟

أبى سخط محمود أن يتوقف، فانهمر مكتسحًا الاجتماعيات وهو يقول: وماذا كنت تبغي من هذه المجازفة؟ كلمة رثاء يلقيها السيد أدولف على قبرك قبل أن يعود إلى منزله فرحًا بنجاته؟

قال رودلف في صدق: إنما فعلتها لكي أحمي رجلاً أؤمن بأن ألمانيا كلها تنتظره.

رفع محمود حاجبيه في دهشة وقال: يا للمبالغة، كيف ينتظرون من لم يسمعوا به من الأساس؟

هنا تدخل هتلر قائلاً: أتفهم استياءك يا سيد محمود، ولكن دعني أطمئنك بأن من لم يسمع اسمي اليوم لن يكف لسانه عن ذكري غدًا.

أراد محمود أن يرد ولكن رودلف أوقفه، تحدث إليه حديثًا ودودًا

حتى تخطى سخطه، بينما هتلر يجلس مراقبًا في صمت.

بعد فترة بدأ محمود يلين تجاه هتلر وانفكت أزمته معه رويدًا. بدأ يتقبله ويتحدث عنه بإيجابية بعد أن قابله بضع مرات سمحت بالتعرف عليه أكثر. على الرغم من ذلك فقد حرص على الوقوف على مسافة بعيدة؛ لا تسمح للرجل بأن يسحبه إلى عالمه الممتلئ بالآمال والتعقيدات.

مضت الأيام حتى كان مساء شتوي بارد من عام ١٩٢٣، جلس محمود في مقهى دافئ يقرأ كتابًا ويحتسي القهوة حتى اكتفى فقرر الرحيل. كان المطر خفيفًا ففتح مظلته وهو يخرج من باب المقهى الخشبي العتيق. أعداد المارة في طريقه قليلة، وكلهم يحثون الخطى نحو وجهاتهم عالمين بما سيأتي بعد هذا الرذاذ، وقد كان، فسرعان ما نزل مطر شديد جعل الناس يختفون من الشوارع فجأة كأنهم ذابوا.

غير بعيد عن منزله لمح كومة من الأجساد المتلاحمة. اقترب مستكشفًا فرأى رجلين يضربان ثالثًا ضربًا مبرحًا دون مقاومة تذكر منه. انطلق محمود ليخلصه منهما وهو يصرخ فيهما أن كفى، استدار أحدهما ناحيته بينما جثا الثاني على ركبته يفتش في ملابس الرجل المتلوي على الأرض.

لم يكن فريسة سهلة، طرح مهاجمه أرضًا بعد معركة قصيرة ثم التفت إلى الآخر ليجده قد أخذ مأربه واختفى في زقاق مظلم قبل أن يلحق به الأول. تركهما يفران وهو يساعد الرجل على النهوض فشكره بهدوء كما لو كان يوقظه من غفوة لذيذة. ترنح وعندما استقام عوده مشى خطوة عرجاء بشكل ملحوظ، قبل أن يتسرع محمود ويسأله إن كان مهاجماه قد أصاباه، اكتشف أن سبب العرج ساق أصابها شلل أطفال في مقتل.

كان الرجـل نحيفًـا ضعيـف البنيـة ذا عينـين حادتـين نظرتهـما متوجسـة. عظام وجنتيه البارزة التي يغطس بعدهما محجرا عينيه تزيد من حدة نظراته. بسـيط الحال حتى تعجب محمود من اختيار اللصين له لسرقته. شـعره الأسود المصفف بالبريانتين امتزج بالماء فتبعثر على رأسه. صعد به إلى شقته ثم ساعده على الاستلقاء على الأريكة مشفقًا من البلل الذي سـيصيبها. كان الضيـف يتأوه ألمًـا دون توقف بينما محمود يشعل المدفأة.

أحضر له منشـفة وضمـد جراحه، فاعتدل في جلسـته في الوقت الذي كان محمود يعد كأسي ويسـكي، ناوله إحداهما ثم جلس قبالته مبتسمًا.

شـبيه بقط ضـال أحضره رجل محسـن إلى منزله. جلـس الرجل بجسـده النحيف المرتجف وشعره الذي أثارته محاولات التجفيف إلى ما يشبه الزوبعة فوق رأسه. يرتدي قناعًا من التماسك المهزوز يفضح ما اسـتقر في نفسـه من ذعـر خلفته تجربتـه غير السـارة. ترتجف يده الممسـكة بالكأس كعلامة إضافية على توتـره، وقد بدأت عينه تختفي خلف كدمة زرقاء ليست بالهينة.

سأله محمود: هل كانا يريدان سرقتك؟

هز رأسه بنعم وأوضح: قادتني قدماي إلى هذه الضاحية المبهجة. أمطرت السـماء فلم أكن مسـتعدًا بمظلة، ثم اكتملت مأساتي بظهور اللصين.

قال محمود وهو يتأمل رقة حاله: إذًا فأنت لا تسكن هنا.

رد ساخرًا: هل يبدو لك مظهري أنني من جيرانك؟

- لم أقصد زيادة متاعبك فسامحني.

قالها محمود معتذرًا قبل أن يضيف وهو يتأمل كأسه: لقد تسببت الأزمة الاقتصادية في فقدان الكثيرين لوظائفهم، فزاد عدد اللصوص. لا أستهين بما حدث لك ولكنني أجد أن معظمهم ضحايا وأتعاطف معهم.

- جرب الوقوع في أيديهم ثم حدثني بعدها عن التعاطف.

قالها الرجل في مقت.

قال محمود: جرب أن تحيا حياتهم وأخبرني عما تبقى لك من اختيارات لكسب العيش.

- تعني سرقة العيش! إنهم كالجرذان، يسرقون ما لا يستحقون ثم يهربون ليتواروا في الظلام.

قال محمود بشكل خرج حادًا على الرغم منه: الحديث عن الشرف والكرامة يعتبر ترفًا لشخص جائع.

رد الرجل بذات الحدة: والكلام عن معاناة الفقراء وأنت جالس في دفء منزلك الأنيق لا يبدو متناسقًا.

لم يشأ الانجرار في خلاف مع ضيفه، ولكنه اندهش من جراءة قوله وجاءه خاطر خفي بأن هذا الرجل أبعد ما يكون عن الرضا بحاله.

نزل السكون على الغرفة إلا من صوت قطرات المطر على زجاج النوافذ وطقطقة خشب المدفأة. نظر محمود إلى الشارع اللامع تحت إضاءة أعمدة الإنارة ثم قال: أعتذر عن افتقادي للباقة، ولكنني أراقب أحوال الناس ولا أراها تسير إلا إلى الأسوأ.

هز الرجل رأسه مؤمّنًا ثم قال: لم أتعرف بعد على اسم صاحب الفضل عليّ.

- محمود تيمور، طبيب بمستشفى برلين العام.

تفحصه الرجل باهتمام قبل أن يعرفه بنفسه ثم يقول بوضوح: اعذر لي تطفلي ولكن من أين أنت؟

- والدي مصري وأمي ألمانية.

قالها محمود باقتضابِ مَن سئم الإسهاب في شرح شجرة عائلته لكل عابر سبيل.

صمت الرجل قليلاً قبل أن يرفع كأسه ويقول فيما يشبه التهنئة: هذا ويسكي فاخر، يبدو أنك ميسور الحال.

رد محمود دون مجاملة: ظننت أننا قد اتفقنا على هذه النقطة بالفعل.

ابتسم الرجل وقال: صحيح.

شابت ابتسامته عكارة حقد لم يستطع إخفاءه. بدا لمحمود كمثال صارخ لمن يكرهون ما هم فيه. رجل لا يرضيه شيء حتى لو وصل إلى النجوم.

انتهت الكأس وأعقبتها أخرى فانطلق لسان الرجل، كان حديثه مسليًا؛ لماح وذو قدرة حسنة على ترتيب أفكاره والتعبير عنها إلى جانب جراءته.

كان أصغر من محمود بعامين ولكن يفوقه خبرة، حصل على دكتوراه في الفلسفة؛ الأمر الذي كان له عامل في إضفاء عمق على

حديثه وعلى مفرداته. تحدث عن معاهدة فرساي فاتفق معه محمود على أنها إذلال كامل لألمانيا.

أخذه الحماس بوصول حديثه إلى هذه النقطة، فتكلم عنها بإسهاب وارتفع صوته لاعنًا بفحش من قبلوا بها.

ثم تأفف وهو يشيح بيده مضيفًا: الوضع الطبيعي هو أن ألمانيا تأمر فيطيع الكل.

قال محمود بصدق: الناس محبطون بشكل هز ثقتهم في قدرة البلاد على القيام من هذه الكبوة.

ـ مخطئ من يعتقد أنه ستستمر بنا هذه الحال المؤسفة طويلاً. الجنس الآري هو سيد أجناس الأرض، ولا ينقص شعبنا سوى القيادة الملهمة ذات الرؤية.

ثم أضاف وعيناه تبرقان: أجد هذه الصفات في أدولف هتلر زعيم الحزب النازي.

قال محمود متعجبًا: يا لصغر الدنيا.

تمسك الرجل بحنايا الأمل وهو يسأل بلهفة: هل تعرفه؟

تصنع محمود التواضع وهو يقول: معرفة جيدة.

عندها بدأ الرجل حديثًا مشبعًا بالإجلال والتقدير لهتلر، حتى خيل إلى محمود أنه يتحدث عن نبي جديد.

كان من ضمن ما قاله الرجل وهو في نشوة: هتلر هو من سيرفع هذه البلاد إلى المجد، سيثبت لك الوقت صحة ما أقول.

تساءل محمود في نفسه: ما بال النبوءات تتزايد من حوله هذه الأيام، يبدو أن الواقع محبط لدرجة أن الجميع يتشبث بالخرافات

لمعاونهم على مواجهته.

هز رأسه وقال: أتمنى صدق ما تقول.

رد عليه الرجل ضاحكًا في تعب: عندها يجب أن تحضر لي زجاجة من هذا الشراب.

ـ لك مني صندوق كامل.

هز رأسه مسرورًا قبل أن يقول في ضراعة وهو يتشبث بفرصة مواتية: هل يمكنك أن تعرفني بهتلر؟

قال محمود دون حماس حقيقي: سأحاول.

ـ أرجوك، سيعني هذا لي الكثير.

قال محمود تاركًا باب الاحتمالات مفتوحًا كبوابة مدينة عتيقة: لنر ماذا سيحدث.

قام الرجل واقفًا على مهل وقد ارتسمت على وجهه علامات الألم وهو يقول: أشكرك على استضافتك وكرمك. لا بد أن نظل على اتصال، واعتبر نفسك قد حصلت اليوم على صديق جديد.

تبادلا الكروت التي تحتوي على أرقام الهواتف، قبل أن يسلم الرجل على محمود بحرارة ويرحل.

أعطاه محمود عصا ذات مقبض فضي عاينها في إعجاب، ومبلغًا ماليًّا يعينه على العودة إلى منزله بعد أن سرق اللصوص نقوده. رفضه في البداية ثم قبله ممنونًا بعد إصرار محمود. راقبه من النافذة وهو يبتعد بخطوات غير متزنة أصلحت العصا عطبها جزئيًّا، ثم نظر إلى الكارت في يده ليقرأ عليه: «جوزيف جوبلز».

يا له من شخص مثير للاهتمام!

-١٠-

انهالت عليه مكالمات جوبلز بعدها حتى كره اليوم الذي قابله فيه. في أي فرصة لا بد أن يسمع صوته متفانيًا في المرح ومسمعًا إياه ما يحب سماعه من فنون المديح، قبل أن يطلب منه مقابلة هتلر في التماس مباشر أو خفي، ولكن لا بد أن يطلب.

ضاق صدر محمود منه، دعاه جوبلز لمقابلته أكثر من مرة فتهرب. لم يتجاهل مكالماته ولكنه طفق يراوغه. لم يؤثر هذا في جوبلز، ولم تفتر عزيمته التي كانت أمضى من كل محاولات محمود لإشعاره بأنه غير مرغوب فيه.

في نوفمبر من العام نفسه انغمس محمود في مغامرات رودلف مرة أخرى. لقد حاول هو وهتلر القيام بانقلاب عسكري مُنِي بالفشل وترتب عليه فرار رودلف إلى النمسا. قال محمود ليوهان وأديلينا ساخطًا: من فشل إلى فشل، متى يقتنع أن صديقه هذا سيدمره معه؟

عاد رودلف من النمسا ليحكم عليه بالحبس ثمانية عشر شهرًا في

سجن «لاندسبرج» بينما حكم على هتلر بخمس سنوات. هز محمود رأسه في يأس مشفقًا على صديقه الذي ضاعت من عمره سنة ونصف السنة.

عندما زاره وجد معنوياته مرتفعة كأنه في رحلة العمر. قال له في حماس: أدولف وأنا نؤلف كتابًا.

هز محمود رأسه مشجعًا وقال كاذبًا: أتشوق لقراءته.

سألته أديلينا وكانت قد انتقلت مع يوهان إلى منزل صغير استأجراه: ألم يحن الوقت لكي تترك سكن الطلاب هذا؟

قال حائرًا: أين أذهب؟

أجابت مؤكدة: التغيير سيفيدك.

اقتنع بكلامها فاشترى بجزء من ميراثه فيلا حسنة العمارة، تحيطها حديقة مبهجة غنية الأشجار، في إحدى ضواحي برلين الراقية. اعتبرها اللبنة الأولى في طريق اقتنائه منزلاً بضخامة منزل عائلته.

اجتهد في عمله وتخصص في الجراحة فأحرز فيها نجاحات مشهودة. في إحدى الليالي وصلت إلى المستشفى فتاة في الثانية عشرة من عمرها في حالة سيئة. قالت بصوت خافت لا يكاد يُسمع إن رجلاً اعتدى عليها وهي تلهو بجانب منزلها. قالت له الممرضة في تأكيد: لا بد أنهم الغجر الذين تعج بهم الغابات المحيطة، هؤلاء الوحوش لا يتورعون عن شيء.

عندما فحص الفتاة ارتعد جسده مما فعله بها مهاجمها الذي شوه جسدها بفظاظة لا تحتمل. بعد ثلاث ساعات من العمل المعقد نجح في السيطرة على النزيف. ستجتاز الخطر وسيشفى جسدها في النهاية،

ولكن السـلامة لن تطال نفسـها إلا بمعجزة، ولن تسـمع أبدًا كلمة أمي.

ألقـي القبـض على رجل من معسـكر غجـر لا يبعد عـن المكان الـذي خطفت منه الفتـاة. اعترف بجريمته واكتشـف المحققون أنها لم تكن الأولى، كان هذا بمثابة شـهادة خبرة للممرضة المتمرسـة التي استنتجت الجاني دون عناء.

حين طلبت المحكمة شهادته في القضية بصفته طبيب الفتاة ذهب مصممـًا. تراكم الحنق بداخله وهو يتابع المتهم الذي بدا عليه الإجرام يجلس مسترخيًا كأن ما يدور حوله لا يعنيه. لم يبد عليه الندم كأنه كان يمارس حقًّا طبيعيًّا. بقي أن يسـتنكر القبض عليه حتى تكتمل مهزلة عدم اكتراثه.

ازدادت كراهيتـه للغجر، الأمر ليس قصرًا على ليتيشـيا المجنونة وزملائهـا اللصوص، من الواضح أنهم كلهم يسـتحقون الحرق. لن ينسـى ذلك المسـتهتر الجالـس في القفـص يتفحص أظفـاره في أثناء إدلائه بشـهادته. إن لم يحكم القـاضي بإعدامه فيجب أن يقوم أحد ما بقتلـه. أمثال هذا الرجل لا يصح تركهم على الأرض، فهم خطر على من حولهم.

حكم على المجرم ببضع سنوات في السجن. انقلبت شفتاه في سخط لهذا الحكم الهين. ثبت في نفسه أن الغجر لا ينشرون إلا الفساد.

حـرص على زيـارة رودلـف بشـكل دوري على الرغـم من بعد المسـافة، وفي كل مرة كان يجده يزداد تصميمًا. كان هتلر يشترك معهما أحيانًا في جزء من الزيارة. لم يبد لمحمود أنهما مسجونان، كانا يتمتعان

بحرية شبه كاملة. يستقبلان من يريدان وقتما يحبان، كأنهما فقط محددا الإقامة.

حكى لهما قصة إنقاذه لجوزيف جوبلز من بند التفاخر وتزكية الوقت. أكد لهتلر أن أمنية الرجل في الحياة هو أن يلتقي به. قال له هتلر: لنرتب لقاء قريبًا.

وكان هذا ما قاله محمود لجوبلز عندما اتصل به الأخير ملحًّا كعادته. كادت الحروف تخرج راقصة في سعادة من فم جوبلز، وهو يفرط في شكره ويعبر عن انتظاره لهذا اليوم الموعود. استمر انهمار مكالمات جوبلز عليه على الرغم من البشارة، وفي كل مرة كان محمود يذكره بأن هتلر في السجن ولا مجال لمقابلته. عذر لم ينجح في إخماد حماس الرجل. أقسم محمود أن يجعل جوبلز يرد له هذه الخدمة -إن هو أداها له- أضعافًا.

في ديسمبر من عام ١٩٢٤، وبينما الثلج يغطي المدن التي اتخذت أوج زينتها استعدادًا لاحتفالات عيد الميلاد، أخلي سبيل أدولف هتلر من السجن.

بعدها بعشرة أيام وقبل السنة الجديدة بيوم أخلي سبيل رودلف هيس. عندها تأكد محمود أن هذا الرجل الذي اختزل فترة عقوبته من خمس سنوات إلى سنة واحدة ليس هينًا.

استأذن رودلف من هتلر في أن يسمح لمحمود بالاطلاع على ما كتباه، فسمح له. قرأ محمود مسودة الكتاب فلمست أوتارًا في نفسه مل من العزف عليها وحيدًا. أخيرًا وجد من يتفهم أحلامه. وصل إلى قناعة أن من كتب هذا الكلام يستحق فرصة في موقع القيادة. لم يشعره

التشدد ضد اليهود بغضاضة. النعرة الآرية الأصولية كانت تنضح من كل كلمة. شعر ببعض النقص ولكنه لم يلتفت له حينما تذكر أنه يقرأ مسودة الكتاب، إنه مقرب إلى هذه الدرجة ممن كتباه.

بعد تفكير أخذ الوقت اللازم جاء القرار، ذهب إلى رودلف وقال له مبتسمًا: أود الانضمام إلى الحزب.

ثم قال لهتلر عندما قابله: أين الحديث عن الغجر في كتابك؟ هؤلاء المجرمون لا بد أن يشار إلى تأثيرهم السيئ على أي مكان يحطون رحالهم فيه.

قال هتلر في عدم اكتراث: إنهم أقل شأنًا من أن نذكرهم.

ولكنه عاد بعد يومين بفقرة قاسية عن الغجر، وطلب من رودلف مراجعتها قبل دمجها في الكتاب.

عندما نقل رودلف الخبر إلى محمود، قال له في أريحية: يمكنك أن تقول بفخر إنك شاركت في كتابة كفاحي.

قال محمود في تطلع: أريد المشاركة في كل شيء.

في فبراير عام ١٩٢٥ رفع الحظر عن الحزب وأنشطته. كان الاحتفال الأمثل هو إقامة مؤتمر ضخم. انبعثت فيه حرارة الحماس فكادت القاعة التي تحتضنه لا تحتاج إلى تدفئة، الجموع أصابتها الوفرة وامتلأت بهم المساحة الفسيحة المسقوفة بمزيج من الخشب والطوب.

يومها دعا محمود أديلينا ويوهان فرحبا بالحضور بدافع من الفضول، وبعد مشاورة رودلف قرر أن يدعو جوزيف جوبلز، وقف مع أديلينا ويوهان على باب القاعة يشرح لهما ما رآه سابقًا من قلة الحضور وكيف تبدلت الحال، ثم أضاف: ستقابلان الآن من

أحسنت إليه تحت منزلي في ذلك اليوم الممطر.

كان التغير البادي على جوزيف جوبلز ملحوظًا. ازدادت حدة نظرته واكتسبت طابعًا أكثر ثقة، أيضًا وضح عليه تحسن حال لا يمكن نكرانه. أضفى على سلامه مع محمود مسحة من الصداقة والامتنان، بينما يوهان وأديلينا يتابعان في دهشة فنون المديح التي كالها له.

توقفت سيارة هتلر ورودلف وترجلا منها متجهين في سرعة إلى الداخل وهما يحييان الناس. توقفا عند محمود وصافحا أديلينا ويوهان حتى جاء دور جوبلز. التفت إليه هتلر متفحصًا فوضح على وجه جوبلز الانبهار الكامل به. انحنى حتى كاد رأسه يلامس يده التي شدها بقوة وهو يصافح هتلر. اتجهت أنظاره كلية إلى هتلر كأنه لا يرى غيره. شد رودلف محمودًا من يده لينضم لهما. قال له جوبلز في رغبة لم يستطع كبحها: أنا هنا يا سيد محمود إذا احتجتني.

ابتسم محمود وهو يتساءل عن المدى الذي يمكن لهذا الرجل أن يصل إليه، قبل أن يبدأ بالشعور بالخجل.

ازدانت القاعة بشعارات الحزب، شعار جريء يخطف الأبصار، السواستيكا، رمز الحظ السعيد والخير في حضارات عديدة.

تمنى أن ينال قسطًا من الحظ الطيب، وهو يمر من أمامه في طريقه إلى حجرة جانبية وجد فيها أعضاء آخرين، من بينهم هيرمن جورنج. عرفهم هتلر به وقال: أفكار هذا الرجل ساعدتني في كتابة كفاحي.

في اللحظة التالية وجد جورنج يشد على يده مصافحًا بابتسامة فاترة، إحساس بالغبطة اعتراه وهو ينظر إلى ذلك الرجل الذي كان

يعتبره مثلاً أعلى، ها قد أضحى بضربة قدر سعيد زميلاً.

انهمك هتلر في حديث مع جريجور ستراسر رجل الحزب المسؤول عن شمال ألمانيا. اختلس محمود النظرات من جورنج الذي وقف يتحدث في عظمة إلى بعض الرجال وهو يضع يده في جيب سترته. يبدو أنه هكذا يتحدث الأبطال. تمنى أن يصبح مثله وحينها لن يهمه ظن الناس فيه. فماذا تملك الشجرة الوارفة إلا الوقوف متعالية؟

أشار هتلر إلى محمود لينضم إليه في أثناء حديثه مع جريجور وقال: صديقك جوبلز يبلي بلاء حسنًا في الشمال.

قال محمود مبتسمًا: لقد أنعمت هذه الليلة عليه بأفضل لحظة في حياته.

قال هتلر: أكن التقدير للرجال المخلصين.

قال جريجور: لجوزيف قدرات دعائية فذة.

قال محمود وقد قرر أن يعطي جوزيف فرصة عمره: هل تود أن آذن له في الدخول؟

أجاب هتلر في كرم: لمَ لا؟

خرج باحثًا عن جوبلز فوجده قريبًا قدر ما أمكنه، يلتصق بحائط قريب من الباب كحرباء تتحين الفرصة للانقضاض، نظر إليه في أمل فأشار له. حضر مهرولاً بخطوات سليمة، سأله محمود في دهشة: ساقك تحسنت!

رفع الأخير سرواله كاشفًا عن دعامة من المعدن والجلد وقال: العلم أعطاني فرصة لم أكن لأحلم بها.

قال له محمود وهو يضع يده على كتفه في كرم فاق الذي أظهره

هتلر: وأنا سأعطيك الآن فرصة عمرك فانتهزها جيدًا.

قالها وفتح الباب لجوبلز بحركة مسرحية فوقف الأخير مشدوهًا كأنه مدعو لدخول الفردوس. دخل وفي عينيه شوق مبرح حتى وقف أمام هتلر فرحب به الأخير مجددًا وقال: أسمع عنك أخبارًا جيدة فاستمر.

قال جوبلز في امتنان: إنما هي فقط البداية يا سيدي.

هز هتلر رأسه في رضا وربت على كتفه مشجعًا. في هذه اللحظة حدث شيء عجيب. فقبل أن يبدأ هتلر بالابتعاد شد جوبلز جسده في قوة ثم رفع يمناه إلى أعلى مفرودة الكف أمامه بزاوية، وطرق كعبي حذائه ببعضهما بشكل شبه عسكري وهو يصيح بقوة: هايل هتلر!

لفتت صيحته الانتباه فاستحوذ على اهتمام كل من في القاعة. عاينه هتلر في دهشة قبل أن يبدو عليه السرور ويهز رأسه في رضا، ثم رحل محاطًا بجمع يتحرك معه كأنه المغناطيس الذي يجذبهم خلفه.

تساءل محمود قبل أن يلحق بالراحلين: ما هذه التحية؟

قال جوبلز وهو غائب في عوالم الحلم: لا أدري، لقد خرجت دون تدبير سابق.

قال محمود وهو يأخذ جوبلز معه: لقد حزت رضاه يا صديقي، أحسنت.

قال جوبلز في سعادة: سأتذكر فضلك عليّ دائمًا.

ابتسم محمود له مستحسنًا إدراكه لقدر الخدمة التي أداها له. لحظات وكان هتلر قد اعتلى المنصة فانطلق تصفيق طاغ يشي بحب القوم له. استمر التصفيق لدقيقتين متواصلتين بينما هتلر يقف على

المنصـة معاينًا رجاله كدأبه، ينظر إليهم في تركيز كأنه يحثهم على زيادة الترحيب ويلوم المقصرين في الحفاوة.

مضى الخطاب حماسـيًا ومرتجلاً، تتصاعـد قوته حتى كاد الحضور يفقدون عقولهم. كان جوبلز يقـف منبهرًا، ومحمود إلى جانبه يراقب النـاس بعين يزداد يقينها بأنه قد قـام بالاختيار الصائب عندما انضم للحزب. إذا ابتسـم الحظ فمن الغباء أن يعبس المرء في وجهه، فالحياة تجود بأفضل ما لديها من فرص للمبصرين.

كان يوهان مبـصرًا هو الآخر، أصابه جنون هتلر فانضم للحزب بعـد المؤتمر مبـاشرة متغاضيًا عن مطالبة أديلينا لـه بالتريث، وفي ليلة وضحاها صار من أشد مناصري هتلر وأكثرهم تحمسًا.

قال لمحمود شاكرًا: الآن أستطيع القول إن لدينا أملاً.

-١١-

مع توالي فصول العام بأيامها الغائمة والصحوة، أتاح قرب محمود من هتلر وضعًا معتبرًا له مع الرجل الذي كان كل شيء فيه يوحي بأنه القائد المتمكن من أدوات الزعامة.

استمر في حضور المؤتمرات التي تضخم عدد حاضريها على نحو ملحوظ، وكان هتلر في كل مرة يزداد توهجًا كأنما يستمد طاقته من الناس. كلما زاد الحضور حوله لمع نجمه أكثر. كان فيضه كاسحًا وبدأ اسمه يتردد في كل مجلس في ألمانيا. أصبح مثل شمس طال انتظارها بعد شتاء طويل، أصبح أملاً.

إلى جانب المؤتمرات كانت الجلسات الخاصة تجمعهما حتى أصبح من المقربين إليه.

ما أثار قلقه هو ملاحظته لزهد واضح من رودلف في السلطة وسطوتها التي تعطي الحياة طعمًا مميزًا. لفت نظره ذات مرة وقد وقفا

يلتقطان أنفاسهما في منتصف الطريق إلى قمة جبل عصي الارتفاع فقال: إن الكثيرين ممن تعلقوا متأخرين بركاب هتلر قد لحقوا بك بينما أنت تقف قانعًا في مكانك.

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أن تنفض عنك روح الأب المتسامح الذي يتمنى رؤية أولاده أفضل حالاً منه.

قال رودلف ضاحكًا: ألا تكفيني الأعباء التي أتخمني بها هتلر؟

ـ مباركة عليك الأعباء، ولكنني أخشى أن تستيقظ يومًا فتجد أن عليك استئذان أحد المنافقين الجدد للقاء هتلر، اعمل على ألا يجيء هذا اليوم.

ومضت عينا رودلف للحظات وبان عليه تفكير قصير ثم قال: هيا نتحرك، فما زال أمامنا شوط طويل.

قال محمود المتعب: إنك تتهرب.

ـ بل أتقدم!

ـ أعطني وقتًا لأستريح.

قال رودلف وهو يشرع في الصعود: التدخين سيقضي عليك يا صديقي.

صاح محمود مستنكرًا وهو يلاحقه: وأين المتعة في حياة بلا دخان ولا شراب، بل ولا حتى قطعة لحم!

قال رودلف وهو يتقدم في قوة: إذا كنت تحسب أن الامتناع عن تلك الأشياء ضرر فانظر إليّ ثم عاين تهالكك المخزي في ريعان شبابك.

ـ وماذا يبقى لي من متع الحياة بعد أن أتخلى عن كل شيء؟

ـ الصحة والعنفوان!

ـ لا يكفيانني.

قالها معاندًا بينما هو يعاني لكي يلحق بصديقه. ملأه خجل مختلط بالعجز فلم يجد في صدره نفسًا جريئًا يطالب رودلف بالتمهل. شعر رودلف يعانده عنادًا صبيانيًا يألفه منه فرده إليه كاملاً وبذل جهدًا مضاعفًا حتى لا يتقهقر خائبًا. شعر بكل ذرة في جسده تحتج على هذا المجهود المضني. كانا معتادين على تسلق الجبال معًا من وقت لآخر، ولكن رودلف كان يرفق به في العادة ولا يضغط عليه، إلا أنه اليوم يكاد يقتله وهو يقفز من صخرة لأخرى في رشاقة مستخدمًا عصاه، بينما محمود يحذو حذوه مقلدًا وهو يرجو ألا يفقد توازنه فتتكسر عظامه.

عندما بلغا القمة وقف رودلف في أعلى نقطة منتصرًا، تجاهله وهو يحاول إخفاء تعبه حتى تكلم رودلف فقال: ما رأيك في نظام حياتي الآن؟

أعطاه محمود ابتسامة باردة، سرعان ما تلاشت وهو يتأوه بعد أن نفض عن نفسه الادعاء وأطلق العنان لشكواه: كأنك ما زلت طفلاً تجرني خلفك لتثبت زعامتك، هذا دليل أنك لم تنضج بعد!

قال رودلف: هذه من متع الدنيا عندي، تحدي نفسي ودفعها لأبعد مدى، الجلوس هنا شاعرًا بالإنجاز بعد صعود مضنٍ، كلما كثر الألم زادت اللذة.

خلع محمود فردة من حذائه وهو يئن قائلاً: لقد جرحت قدمي.

قال رودلف ضاحكًا: هل سمعت أي شيء مما قلت؟

- نعم، الكثير من ادعاء اللذة الروحية، ولكنني أؤكد لك أن اللذات توجد فقط في الأشياء المادية.

- مثل التقرب من هتلر؟

قال محمود فاتحًا ذراعيه: السلطة والقوة، الهيبة والاحترام، الثراء والنفوذ. كلها أشياء يمكن الشعور بها.

هز رودلف رأسه نافيًا وقال: لا يهمني أيٌّ من هذا.

- لماذا تتبع الرجل بهذا الشغف إذًا؟

- حبًّا فيه وليس حبًّا فيما يمكنني أن أحصل عليه من ورائه.

- وما رأيك في أن تجمع بين الاثنين؟

قال مازحًا: يبدو أن والدتك كانت محقة عندما حذرتك في يوم من مغبة ما فعلته بك خادمة جدتك. ماذا كان اسمها؟

- ما علاقتها الآن بما نتحدث فيه؟

- علاقة مباشرة، لقد شوشت على قدرتك في تقدير الأشياء ذات القيمة الحقيقية، الأشياء المحسوسة.

قال وهو يشير بملء كف يده: أتفضل أن تحظى بثدي ثري تسعد بامتلائه أم تجلس وحيدًا متأملاً تتخيله؟

- لكل إنسان أهواؤه، يبحث عما يرضيه ويسعده إن كان في باطن الأرض أو وسط السحاب.

قال محمود في اشمئزاز: هذه الكتب التي تقرأها ستصيبك بالخبال، إنك تتفلسف بشكل يثير الشفقة.

فاجأه رودلف وهو يقول: لقد قررت أن أتزوج إلسيه.

فوجئ محمود ثم قال في سعادة: مبارك يا صديقي.

وأضاف مشاكسًا: امرأة واحدة مدى الحياة! إنك كمن يحوك لنفسه الشرك الكامل.

ضحكا ثم صمتا وهما يتأملان الأفق الممتد دون أن يدركه بصرهما، كأنهما للحظة قد اتفقا معًا على شيء.

في تلك الأوقات لاحظ محمود أن مكالمات جوزيف جوبلز تتباعد. لم يفته أن الرجل يتصرف كأنه قد أدرك بغيته منه. لم يتمعن في الشعور بالضيق منتظرًا أن يأتي يوم يرد له فيه جوبلز الإحسان مضاعفًا. انهمك في عمله بالمستشفى وبنشاطه في الحزب. لم يكن مسؤولاً عن شيء بعينه أكثر من معاونة رودلف في مهامه، وعلى رأسها تدعيم قوات الحزب شبه العسكرية.

في يوم من صيف عام ١٩٢٧ كان محمود يجلس مع هتلر في منزله عندما حضر زائر غير متوقع. في تلك الغرفة الكبيرة دخل جوزيف جوبلز في خجل المرة الأولى، يتحسس خطواته على السجاد السميك، محاولاً تفادي الاصطدام بالمقاعد وهو يدور حولها باحثًا عن أقصر الطرق للوصول إلى أدولف هتلر، دون أن يضطر إلى السلام على شخص آخر قبله.

نظر إليه محمود في دهشة لم يستطع كتمانها، كأنما فطن هتلر إلى أن هذه الصدفة تحتاج شرحًا. قال بعد أن صافح جوبلز مخليًا سبيله لمصافحة الباقين: جوزيف سيقدم لنا الدعم الدعائي.

يومها جلس محمود يستمع إلى جوبلز الذي اختلفت طريقته

وأسلوبه عما عهدهما كأن روحًا جديدة تقمصته، استحوذ على أغلب الجلســة وحده حتى جعل الحاضرين كالنجوم الشاحبة وهو الشمس الملتهبة في الســماء. ظهر على هتلر الإعجاب بكلامه، بل به شخصيًا. انتهت الجلســة فمال رودلف على محمود قائلاً وهما يسيران خارجين: صديقك يشق طريقه إلى القلب بثقة يحسد عليها.

تساءل محمود: هل تظنه سيصل؟

ـ لقد وصل بالفعل.

قال محمود بنبرة مســتعدة لأســوأ الاحتمالات: لنرَ كيف سيعامل من له فضل عليه.

وفي ديســمبر من عام ١٩٢٧ تــزوج رودلف بإلســيه بروهل، فتاة لطيفــة لم يجد فيهــا محمود ما يجذبه تجاه النســاء فعدهــا عادية الجمال، وبينما هــو يكيل لها حلو الكلام كان بداخله مشــفقًا على رودلف من قضــاء بقية عمره مع امــرأة لا يجدها هو مغرية. ربــما كانت برناديت قد أثرت بالفعل على أحكامه في الحياة والنســاء، ولكن إلســيه ليست مغرية بحق. أخرس عقله المعترض على ما لا يخصه وهو يتذكر صدر برناديت العامر.

بعد فترة من انضمام جوبلز إلى مجلس هتلر، وبعد أن رسخ وجوده فيــه، لاحظ محمود نفوره من رودلف، نفــور هادئ يختبئ تحت أقنعة الود الكاذب والمجاملات. كــما لو كان رودلف يقف في المكان الذي يرى جوبلز أنه يســتحقه، حتــى جورنج الذي لم يكن محمود يرتاح له ناله بعض حقد جوبلز الواضح. وبعد ليالٍ طوال قضاها محمود يفكر في طريق النجاة من عواصف لا يدري إن كان يستطيع عبورها بسلام

لوصـــل إلى الحل، لن يجعل نفســه محســوبًا على أحــد إلا هتلر، الولاء صفة تقارب الفضيلة، من يومها حرص على ألا يأخذ جانب رودلف بشــكل واضح حتــى وإن كان هذا مكانه الطبيعــي وعمل على خلق علاقات متوازنة مع الجميع متمنيًا أن تعينه هذه الوسيلة على البقاء.

-١٢-

في عام ١٩٣٢ وبينما الحملات الانتخابية التي شارك فيها الحزب تتوالى وفي كل واحدة يحصد هتلر بعض النجاح ولكن ليس كله تصادف أن تقابل محمود مع جوبلز على عشاء.

كان جوبلز قد تخطى حظوة محمود لدى هتلر بل وتعداها. ارتضى محمـود بموقعه الجديد بما أنه ما زال يحتفظ ببعض المجد الغابر. وعلى المائـدة وبينما جوبلز يطرح على الحضور أفكاره عن الحملة المقبلة قال له محمود بحماس: يجب إيصال صوت هتلر إلى أكبر قدر من الناس.

قال جوبلز بثقة: بالفعل، ولهذا فإنني أسـتعين بصور ومقاطع من خطبه.

رد محمود مشـككًا: لا يكفي، الناس يريدون رؤية الرجل نفسـه وليس صوره.

قال جوبلز متعجبًا: وكيف أضعه في كل مكان في الوقت نفسـه؟ أتعرف ساحرًا جيدًا يا محمود؟

ضحك في استخفاف كأنما راقته مزحته، فشاركه الحاضرون الضحك تملقًا.

قال محمود بجدية تناهز التحدي وهو لا يرحب بهذا التطور الخطير في علاقتهما: نعم أعرف ساحرة جيدة.

ثم أضاف وسط تعجب الحضور: اسمها الطائرة، ستسمح لهتلر بأن يكون في أكثر من مكان في اليوم نفسه، يا حبذا لو أطلقت على هذه الحملة اسمًا جذابًا، ستضمن نجاحها.

برقت عينا جوبلز فورًا وقال في حماس: فكرة جيدة.

ثم أضاف متخيلاً وهو يرسم بيديه حروفًا وهمية في فضاء الغرفة: سأسميها «القائد فوق ألمانيا».

أبدى الحاضرون حماستهم للفكرة وتناسوا الإشادة بصاحبها، ولكن جوبلز رفع كأسه في صحة محمود عرفانًا، فصاحت الحناجر المأمورة باسمه.

بعدها قال محمود لرودلف في حقد معقبًا: الملعون يسخر مني أمام الناس، لو تراه وهو يتحدث تظن أنه قد ولد عظيمًا. ليته يتذكر مظهره يوم التقطته من تحت منزلي كالكلب الأجرب.

قال رودلف مشاركًا محمود همومه: إن تأثيره على هتلر يزداد كل يوم.

افترقا يومها وفي نفس كل منهما خيط من التشاؤم المقيت.

وفي صباح يوم منعش من خريف العام نفسه، كان على موعد مع زميل له يعمل بالجامعة ووصل مبكرًا، انتظره شاغلاً نفسه بقراءة

مقـال يتحدث عن صعود نجم هتلر عندما سـمع صوتًا عذبًا يقول: صباح الخير.

رفع رأسه فرآها، لحظة توقف عندها الزمن مشكورًا ليجعله ينعم بهذه النظرة الأولى كما شاء. كل شيء صمت من حوله، توقف الناس عـن الحركة وأوراق الشـجر عن التسـاقط، اختفـى الضجيج، حتى أنفاسـه كتمها، ما كل هذا السـكون؟ كأنها طيف جميل من حلم ليلة صيف، عيناها تعكسان لون السماء في صحوها وغيمها، رشيقة كأنها تمثال منحوت، شـعرها ينسدل ناعمًا كشـلال من الذهب على كتفين يغطيهما معطف أسود أنيق، خلق تجانسًا بين اللونين يدعو إلى التأمل.

لم ترحم انبهاره وهي تسأله عن مكان مبنى إدارة الجامعة، بصوت كأنه مهر شقي يوشك أن يفلت من زمامه ولا يمنعه إلا الحياء.

أكمل النظر إليها مفتونًا، قبل أن ينعم عليه عقل فتنه سحرها بالإجابة: إنه ذلك المبنى خلفي.

ابتسـمت وقالـت: أعتذر عـن إزعاجـك ولكنه أول يـوم لي في الجامعة.

آه لو تكفين عن الابتسام، كأن الشمس تشرق من ثغرك حين تبتسمين وهذا يأسرني. قال مبتسمًا وقد استعاد بعضًا من رباطة جأشه: هذا بالتأكيد من حسن حظي.

اتسعت ابتسامتها ثم شكرته. كفى شموسًا أيتها الفتنة المحببة!

قال محاولاً إطالة أمد اللحظة قدر المستطاع: أتمنى أن أراك قريبًا.

ندم بعدما بدا له ما قاله سخيفًا، هو الذي لا يأتي إلى هنا إلا نادرًا.

زاد توهج الشـمس للحظات قبل أن ترحل. جلس يراقبها وهي

انساب إلى وجهتها في خفة. هز رأسه في حبور قبل أن يعود إلى جريدته بعقل مفتون وروح خفيفة.

بعدها بفترة قصيرة كان يحضر مؤتمرًا للحزب فلمحها من بعيد، لا يمكن أن ينسى ذلك الوجه ولا تلك الابتسامة. لقد أحسنت إليه ببداية رائعة ليومه وهو لا يزال شاكرًا لها إحسانها. أحس بقلبه يخفق بشكل لا يناسب ثقته المعتادة بنفسه. رأته فحدقت إليه بريبة دامها تتأكد. هز رأسه محييًا في ثقة غير أصيلة قبل أن يختفي داخل غرفة ويتركها تتساءل أين ذهب. بالداخل وجد جوبلز الذي جعله الشراب ثرثارًا يقفز من موضوع إلى آخر كقرد متحمس فسخط عليه. كان يشرح للحضور ومنهم هتلر إستراتيجية الحزب الدعائية الجديدة. جلس محمود يعاني من خفقان القلب المتأرجح بين السخط والتوتر حتى أنهى هتلر الاجتماع بقوله: رائع يا جوزيف، سأحتاج إلى مراجعة التفاصيل قبل أن نبدأ.

فتح جوبلز حقيبته الجلدية في سرعة وأخرج منها ملفًّا سميكًا وهو يقول في تواضع: أرجو من سيادتك مراجعة هذا التقرير الوافي.

هز هتلر رأسه في رضا بينما محمود يزداد كرهًا لجوبلز المستعد دائمًا. ما زاد من سخطه أنه لم تتم الإشارة إلى فضله في هذه الخطة الثورية بأي شكل.

عندما توجه هتلر خارجًا وجه له الجميع تلك التحية التي حياه بها جوبلز في ذلك اليوم البعيد. لقد أصبحت هي التحية الرسمية للحزب، والفضل لهذا الرجل قليل البنية المثير للحنق.

في أثناء خروجه حرص على تبادل حديث لا معنى له مع من

وجده بجانبه، ليرسم على نفسه هالة من الانشغال. رآها لا تزال واقفة في مكانها فسر وحملته الرياح السعيدة ناحيتها محلقًا، رأته قادمًا فابتسمت، أكملت حديثها مع مرافقيها وهي منشغلة عنهم بمراقبته بطرف عينها. قبل أن يصل إليها مدت خطوتين رشيقتين ناحيته وقالت: لماذا أجدك دائمًا في الأماكن التي أذهب إليها للمرة الأولى؟

ـ أول يوم لا ينسى، هكذا لن تنسيني أبدًا.

أشارت إلى الغرفة وقالت: ماذا كنت تفعل مع الرجال المهمين؟

ـ أفكر في بركات المرة الأولى.

ابتسمت وعدلت من وضع شعرها خلف أذنها اليمنى، علامة على إحرازه لنقطة متقنة سرتها فسعد قلبه. تبادلا الحديث واستغرقا فيه، اسمها كاثرين، تدرس الاقتصاد وتصغره بأكثر من عشر سنوات، والداها متوفيان، ولديها عمة تعيش في فرانكفورت هي كل من تبقى لها من عائلتها. تعيش وحيدة في برلين، مثله بل أكثر وحدة.

كانت أنيقة وبسيطة، لكنتها الراقية إلى جانب يديها الناعمتين ورائحة العطر التي تفوح من أطيافها تشيان بيسر الحال. تحدثا كثيرًا بينما هو شارد في سحرها فشعر أن كل ما حولهما قد تبخر وبقيت هي فقط، مركز الجاذبية وسرها الأبدي. قطع حديثهما صوت تصفيق حاد. دارت الرؤوس ناحية المنصة فكان هتلر يصعد عليها بوجه متجهم وعينين متحفزتين.

مال عليها وقال: تعالي لنجد مكانًا نستمع منه.

تساءلت بينما ابتسامتها تشي بأنها تعرف الإجابة سابقًا: ألن تجلس في مكانك في الصدارة؟

أمسك بيدها في بساطة كأنه يعرفها منذ زمن وقال: إنما الصدارة معك أنت.

ابتسامتها أعلنت عن إحرازه لنقطة جديدة. شعر بامتنان للحياة كلها عندما تركت يدها في يده وهو يقودها ليصعدا السلم المؤدي إلى دور الميزانين، بحثًا عن بقعة خالية تطل على المنصة.

قالت له وهي تبتسم بعد أن استقرا: يمكنك أن تترك يدي الآن.

قال محرَجًا: لم أقصد التطفل.

اتسعت ابتسامتها ولم تعقب. بدأ هتلر الكلام ولكن هيهات أن يلتقط أيًا مما يقول. انصب عقله كله على تلك الفتنة جميلة الرائحة والملمس التي تقف شبه ملتصقة به بسبب ضيق المكان، عطر اللافندر يلعب أعصابه منذرًا بحدوث فعل مجنون في لحظة طائشة.

أنهى هتلر كلامه لا يدري متى، فبادر كاثرين قائلاً: ما رأيك في قضاء يوم غد في ضواحي المدينة؟ أعرف موقعًا ساحرًا يشبه الروايات.

تمنى أن توافق حتى لا يضطر إلى الإلحاح المبتذل. أفقدته اتزانه بقدرة غريبة فأصبح كمبتدئ لا خبرة له. رحمت عذابه عندما أخرجت ورقة خطت فيها شيئًا قبل أن تناولها له قائلة: الساعة العاشرة مناسب؟

أومأ برأسه مرحبًا فحيته وانسابت من أمامه في رقة.

في العاشرة من صباح اليوم التالي توقف بسيارته أمام منزلها، أشعل سيجارة طلبًا لهدوء أعصاب ضن عليه ولم يأت، عندما رآها أفعمته بالبهجة، ما أجملها في هذا الفستان المصنوع من الكتان بلون أزرق

سماوي، والحذاء الصيفي الذي تبرز من مقدمته المفتوحة أظفارها المطلية بالأحمر القاني محرك الأمنيات. قصعت خيوط الذهب في شعرها بأناقة وارتدت فوق رأسها قبعة بلون الفستان. كان متأنقا هو الآخر بعد أن قضى وقتًا طويلاً أمام المرآة، هو الذي يثق دائمًا في أناقته احتاج اليوم لوقت إضافي حتى يتمم رضاه عن مظهره. إنه موعد لزم الاحتفاء به والاهتمام بتفاصيله. لم يشعر بتلك السعادة الممزوجة بالتوتر منذ زمن طويل. شعور من حقبة المراهقة بكل لذتها أعطى لليوم خصوصية مسكرة.

المكان الذي اختاره عبارة عن أربع أشجار في مربع مفتوح الضلع يفرشون تحتهما بقعة ظليلة من العشب بجانب بحيرة صغيرة، بعيدًا بما يكفي عن أعين الفضوليين ليجعلهما على راحتهما وأكثر. توقف بالسيارة فوق العشب حيث وقفت الأشجار في انتظارهما مرحبة. في دقائق أعدت كاثرين جلسة وضعت فيها رتوشًا أنيقة، مفرشًا كبيرًا مضلعًا وفوقه طبق فاكهة وبعض الجبن والنقانق والخبز.

أحضر معه ثلاث زجاجات نبيذ أحمر معتق، تحسبًا لأي أمر سعيد يمكن أن يكشف عنه النبيذ فقرر أن يفرط في استخدامه. دارت الكؤوس والرؤوس والأحاديث. طلبت كاثرين منه أن يحكي لها قصته. كان في لحظة تصالح مع الوجود فلم يجد غضاضة في أن يحكي لها ما يريدها أن تعرفه عنه. شجعه اهتمامها وعيناها المثبتتان عليه كدعوة للاسترسال إلى ما لا نهاية.

إذا ضحكت على مزحة قالها لمسته بأصابع تشعل نارًا في القلب والجسد كأنها عصا جنية مسحورة. يزداد إغراؤها وهي تشعل سجائرها بين شفتين مخضبتين بالأحمر القاني فتصير لا تقاوم. أراد

أن يذهب بالكلام في طرق اللذة ولكن كان لديها أسئلة عن هتلر وعلاقته به، فتعلق بالصبر على ضعفه أمامها وأجاب عن أسئلتها، حتى قالت: لا أحب إثارته للناس بعضهم على بعض، ليس هكذا تبنى الأوطان.

تعجب من جراءتها ولكنه ثمنها فقال: تقصدين اليهود؟

قالت في سرعة: والغجر والشيوعيين وكل من ليس على وفاق معه.

شرح لها أفكار هتلر وهي تستمع في غير ترحاب وتقاطعه بأسلوب هادئ لا يخلو من الحدة، وعندما اكتفت من الكلام عن هتلر جنحت إلى مواضيع مختلفة. كان حديثها شائقًا وصوتها مسكرًا أكثر من النبيذ.

شعر بوخزات في قلبه. إن لم يكن كيوبيد حاضرًا بقوسه يلهو بقلبيهما في هذه اللحظة فأين يمكن أن يكون؟

قالت وهي تمسك بزجاجة النبيذ الخاوية وتقلب شفتها في حزن: لقد انتهت، أحضر الثانية.

ـ تقصدين الثالثة، فها هي الثانية تستلقي فارغة.

نظرت إلى الزجاجة في دهشة. وقفت فترنحت وضحكت في براءة. كانت قد خلعت قبعتها وحذاءها وأفرجت عن شعرها فانطلق مع النسيم كيفما شاء. أهي أجمل هكذا أم بشعر معقوص؟ سؤال صعب.

مشيا حتى حافة النهر ينظران إلى المياه التي انعكست أشعة الشمس على صفحتها فبدت كقطع الماس. قال لها: في صغري كنت أحاول عد النقاط المتلألئة على صفحة الماء.

ـ أنا كنت أحاول عد النجوم.

قال مجاملاً: يبدو أمرًا أكثر منطقية.

نظرت إلى الماء وبدأت تعد حتى وصلت إلى الرقم سبعة، ثم ضحكت وانثنت إلى الأمام قبل أن تعتدل وتسرح قليلاً ثم تقول بجدية: هل شعرت بالغربة من قبل؟

استعان بالمزيد من الصبر مشفقًا على نفسه من حديث جدي آخر، قبل أن يقول مجاريًا: نعم، كثيرًا.

أومأت برأسها وقالت: هتلر جعلني أشعر أمس بالغربة.

ـ لسنا يهودًا ولا غجرًا، لا أرى أن لدينا ما نقلق منه.

شردت قليلاً ثم قالت كأنها تستكشف الغيب: ساعة الفرز لن يُقبل المختلف أيًا كانت أسبابه.

وقف صامتًا يفكر فيما قالته. الحقيقة أنها نجحت في نبش باطن روحه. هل يمكن أن يصبح بما يحمل من إرث موضع اتهام ذات يوم؟ قالت له في جذل كأنها ترتدي ثم تخلع عباءة الجدية كل بضع دقائق: هل أحضرت معك ثوب سباحة؟

ـ لم يخطر لي هذا على بال.

قالها وهو لا يدري إلى أين تأخذه بسؤالها.

ـ ولا أنا!

قالتها وضحكت في مرح ثم نظرت إليه مفكرة وهي تعض على شفتها، قبل أن تضيف فجأة كأنها حسمت أمرًا: أدر وجهك.

ـ ماذا ستفعلين؟

ـ كاربي دييم. «انتهز الفرصة باللغة اللاتينية».

قالتها في تصميم.

أدار وجهه وهو يضحك، لحظات وسمع صوت جسدها يرتطم بالماء، نظر إليها فوجدها قد اختفت مخلفة وراءها ثقبًا في لآلئ الشمس، بينما ملابسها كلها ملقاة بجانبه. نظر غير مصدق إلى رأسها الذي برز من تحت الماء مزينًا كتفين تلتمعان كالمرمر تحت الشمس وقال: هذا جنون.

ذكرته للحظة بالفتاة البدوية التي تفتحت على يديها معرفته بالنساء، فوقف ينظر إليها مستأنسًا بالذكريات حتى قالت في إغراء: الماء جميل.

اجتاحته رغبة اللحاق بها ولكن الخشية وطئته في جشع، خشية أن ينفرها ظهره المشوه، وقف مكانه حائرًا لا يتقدم ولا يقول شيئًا، فقالت له مؤكدة: لقد رأيت حرق ذراعك من تحت قميصك فتعال هنا لتحكي لي كيف أصبت به.

قال متشجعًا: ليس ذراعي فقط.

قالت في خبث مغرٍ: هل مست الإصابة مناطق حيوية؟

ضحك متفاجئًا ثم قال مؤكدًا: على الإطلاق.

ـ ليس لديك ما تخشاه معي إذًا.

«كاربي هذه الدييم اللعينة».

قالها لنفسه وهو يتجرد من ملابسه، بينما هي تراقبه بنظرة ثاقبة. ترك قطعته الأخيرة على جسده وتوجه إلى الماء، فارتفع صوتها محتجة وهي تقول: أريد أن أتأكد من صدقك.

ـ أديري وجهك إذًا.

ـ لا.

ـ حسنًا.

خلعها وتهادى إلى الماء متجاهلاً نظراتها التي تفحصته بشغف. عندما وصل إليها اقتربت منه وعلى وجهها اشتهاء. شفتاها المنفرجتان كانتا تتوقان لقبلة، بينما جسدها تطلع إلى أكثر من ذلك. نظرت إلى ظهره ومررت يدها عليه ثم قالت في بساطة: أهذا ما كنت تخشى منه؟

ابتسم وهو ينتظر حكمها فقبلت كتفه المشوهة على نحو أثار امتنانه. عانقته بقوة وغرقا معًا في قبلة طويلة أعقبها الكثير.

عادا للجلوس في موقعهما الظليل بعد هذه المصارحة الكاملة بالغرام. تأمل كل قطرة ماء وهي تجف من على منحنيات جسدها الرشيق بينما هو يحكي لها قصة إصابته، فقالت ضاحكة: لربما كنا ما زلنا نحارب حتى اليوم فقط لنلبي لك رغباتك.

ـ كم كنت طائشًا.

قالت في مكر: أرجو أن تكون ما زلت تحتفظ ببعض من هذا الطيش.

قال متفهمًا: في ظروفه المناسبة فقط.

قالت في ارتياح: طمأنتني.

أطارت كلماتها عقله، وما أكثر تحليقه في حضرتها فود الانقضاض ولكنه فضل التريث. لم يكفا عن الكلام حتى غربت الشمس وأذن الظلام بالرحيل، في أثناء عودتهما إلى برلين دعاها لقضاء الليلة معه فوافقت.

استيقظ في اليوم التالي على صباح أكثر إشراقًا من كل ما فات به من عمر، أيقن أنه إن لم يكن هذا هو الحب فالمشاعر كلها هباء.

-١٣-

غـرق في رحيقهـا الذي لا ينضب حتى قمة رأسـه، سر السـعادة وترياقها الشـافي. جامعة الشـباب والحكمة في آن، حيث تبدأ الأماني وتنتهي، تلك التي يذوب العشـاق في سـحرها ولهًا، ويهيم الشـعراء من بعدها منشدين القصائد كالمجاذيب على باب فتنتها الذي لا يفتح أبدًا. تبتسم الحياة في حضرتها فتبدو زاهية كفراشة لا تموت، وتنبعث الضحكات من ذلك المكان الخفي في النفس فتتواصل كأنها لا تعرف انتهـاء. تجعل كل شيء جميلاً حتى يخيـل إلى المرء أن القبح لم يخلق من الأساس.

كل يـوم يمـر عليه معهـا يزيد نضارتهـا كأنها قد خلقـت لتَحب وتُحـب، شـعر معها بما لم يشـعر به من قبـل، حتى آمن بـأن الحياة لا يمكـن أن تكـون أبهـى من هـذا. كانت مرحـة تنتـزع ضحكاته بلا تكلف، رائعة حتى إنه كلما وقع نظره عليها ابتسم. قيّمة ومبهجة على نحو يجعله يغبط نفسـه لعثوره عليها. تستخدم يديها في الحديث، فإذا

ما تحمست في موضوع يرتفع صوتها ويزداد تلويح يديها مضفية على كلامها روحًا وقلبًا، عنيدة تحاول إثبات نفسها في كل ما تفعل فتفوز باحترامه، ببساطة كانت كاملة.

في عام ١٩٣٣ فاز هتلر بالانتخابات أخيرًا، كان يومًا سعيدًا دعي فيه للشراب كل عابر، حتى قيل إن الكلاب والقطط الضالة شوهدت وهي تترنح من السكر في أزقة برلين. أول ما فعله محمود بعد الفوز كان زيارة جوبلز، حاملاً معه صندوقًا خشبيًا ما إن رآه الأخير حتى لمعت عينيه عليه في فضول.

قال محمود موضحًا: أنفذ وعدًا قديمًا قطعته على نفسي.

أخرج زجاجة من الويسكي الذي شربه جوبلز في منزله تلك الليلة، ضحك الأخير وهو يربت على كتفه في سرور، قبل أن يقترح نخبًا في صحة هتلر.

أصبح محمود هو من يتصل بجوبلز، فسبحان مغير الأحوال ومقلب الأمور. مقابلة هتلر أضحت تحتاج إلى سلسلة معقدة من التحضيرات. اللهم إلا بصحبة رودلف الذي كان طريقه ممهدًا للوصول إليه في أي وقت.

شهدت علاقته بكاثرين تطورًا لافتًا، ففي لحظات الحب الأصيل يحسم القلب أمره فتتقافز المشاعر من حوله مبتهجة كأتباع فرحين برضا سيدهم. يترجم هذا الحب إلى طلب زواج يصاحبه خاتم ذو فص ماسي براق وابتسامة مبتهجة بصواب القرار، وأمل لا حدود له بالخير الذي تحمله الأيام التي لم تأت بعد.

تقدم محمود بطلبه وسط الشجرات الأربع شهود قصة غرامه على

ضفة البحيرة.. وافقت العروس فغابا معًا في عناق طويل تخللته دموع فرحة، وظللهما حب بدا كما لو كان لا يمكن أن يفنى أبدًا.

في حفـل زفـاف أنيق دعـي إليه كبـار رجال الدولـة، حتى بدت المنطقة المحيطة بمنزله كأنها سـاحة اسـتعراض عسكري، أسبغ هتلر بركته عليهما بتلبية الدعوة، فانتعشت الأجواء بحضوره، وكاد محمود يناطح الجبال فخرًا بهذا التشريف العظيم. ترك كل ما بيده وجلس في حـضرة زعيمه هو وزوجته، حتى اضطر هتلر إلى أن يقول مجاملاً: لا تقلق بشأني يا محمود والتفت إلى باقي ضيوفك.

قال جوبلز منافقًا: لهذا لا يحضر الفوهرر حفلات الزفاف، ولكنه كسر هذه القاعدة من أجلك أنت وزوجتك الجميلة.

تقبـل هتلر الإطـراء في عظمة، فـزاده محمود مضيفًـا: إنه لشرف ستتناقله العائلة إلى نهاية الزمان.

قال هتلر كأنه يلقي بتعويذة ملعونة: بالرفاء والبنين.

لم تفت محمود ملاحظة أن الزمن دار دورة قاسـية، فأصبح جوبلز هو من يشـيد بمحمـود لدى هتلـر في مجاملة مفضوحـة، بعدما كان من وقت قصـير يقف على عتبة بابه طامحًا في رجاء. مهما تناسـى هذا الرجل فإن محمود هو صاحب أكبر فضل عليه في حياته، وهو لا يزال لم يحصل منه على أي شيء في المقابل، اللهم إلا هذه النوعية من الكلام الذي يثير المقت لا الحبور.

كان مدعوو كاثرين قليلين، فشـعر بشـفقة مسـترة تجـاه حبيبته، المسـكينة لا عائلـة لهـا إلا عمتها فحاولـت ملء هذا الفـراغ ببعض الأصدقـاء. كمحاولة منـه لتعويضها احتفى احتفاء مهـولاً بالعمة،

ولكن المرأة بدت لـه متحفظة، بل وقلقة على نحـو محير، على الرغم من ترحيبه الحار.

منذ هذه الليلة سـمح لكاثرين بأن تقترب منه كما لم يسمح لامرأة من قبل، أيقن بأنه وجد الحب أخيرًا على باب كاثرين، ففتح له ذراعيه مرحبًا.

كانت وتـيرة التمييز ضد اليهود ترتفع على نحو لا يمكن تجاهله، أعربـت أديلينا عـن امتعاضها مما يحـدث وشـاركتها كاثرين. كانت المرأتـان غالبًا على وفاق، فأضفى هذا الأمر على علاقتهما مودة سـعد بها محمود. حاول في مرة تبرير أفعال هتلر فكادتا تنهشانه حيًّا، توقف عـن التبرير وإن لم يتوقف عن التبرم كلما فتحت إحداهما الموضوع في حضور الأخرى، كانتا تستقويان ببعضهما عليه.

عام ١٩٣٨ كان عام حراك مسـتمر دون أن يعلم أحد إلى أين تسير الأمـور. الاقتصـاد في ازدهار والحياة تتحسـن. بدا للألمـان أنهم قد فعلـوا الصواب بانتخاب هتلر؛ فرضوا. العروض العسـكرية في كل مكان يحل به، وخطبه الحماسـية أمام مئات الآلاف كانت تنذر بشيء. مواكبـه في سـيارته المكشـوفة كانت أشـبه بمواكب نـصر لم يحدث. نورينبرج شـهدت تجمعات أسـطورية تهدر له فيها الحناجر، ومحمود الجالس دائمًا في الصف الثالث يراقب هذه النشوة في رضا.

ثم قرر هتلر ضم النمسـا في فبراير، فتوجس البعض خيفة ولكنه أتم الأمر في مارس دون مشكلات، بعدها جاء دور تشيكوسلوفاكيا في سـبتمبر، وثانيـة توجـس النـاس وبدأ إحسـاس بعـدم الارتياح يعتري مجالسـهم وهم يتهامسون بأن الانخراط في حروب هو آخر ما يحتاجونه، خاصة وأن الاقتصاد ممتاز.

حتى كانــت ليلة الكريســتال في نوفمــبر من العام نفســه، عندما أحرقت الكثــير من الممتلكات اليهودية في طول ألمانيا وعرضها، قتل العشرات ليلتها وأرســل نحو ثلاثين ألــف يهودي إلى أماكن مجهولة. كانت الأيام التالية عاصفة لمحمود بما حملته معها من شــكاوى أديلينا وكاثريــن التي وصلت إلى حد الســباب في حق هتلــر وعُصبته. كان محمــود ويوهان مقتنعــين في قرارة نفســيهما بأن هــذا للصالح العام، ولكنهــما لم يكونــا يمتلــكان أدوات الدفاع اللازمــة للتصدي لهجوم المرأتين الضاري.

طلبــت كاثرين من محمــود أن يتدخــل لدى هتلر لكــي يتوقف، فحذرها من الخوض في هذه المواضيع، قبل أن يسأل أديلينا مستعجبًا: لا أفهم سر محاباة كاثرين الزائدة لليهود.

قالت مستنكرة: متى أصبحت الإنسانية أمرًا يدعو للتساؤل؟

ولكن كان هناك ســبب آخر صارحته به كاثرين في لحظة صدق لا تأتي إلا بصحبة حب وثقة. اعتراف عجل به تلاشى الأمل في السلامة وسط الأحداث السريعة. كقشة هي الملاذ الأخير قبل الغرق قالت له في تــردد وهي تقلب بصرها في أركان الغرفــة، كأنها تبحث عن شيء ضائع: عائلتي لها أصول يهودية.

صمتت كأنها تنتظر حكمه، ضعيفة ومترددة ومكسورة، منذ متى يحاسب المرء على دينه كأنه اقترف ذنبًا؟

أســقط في يده، هــذا أمر غير محســوب. كاد يغضــب لأنها أخفته عنــه ولم تصارحه به منذ البداية، ولكن لأن الحب كان ينشر شــجرته المثمرة فوقهما فقد احتضنها في قوة، بكت في استســلام كأنها ارتاحت بالاعتراف وتخلصت من وزر منكر.

حكى لرودلف الأمر طالبًا المشورة والحل معًا. قال له صديقه: لا تحمل همًّا، سأصدر لك إعفاء من قرار نورينبيرج.

لم يتخيل محمود أن يأتي الحل بهذه السلاسة، فقال له رودلف ضاحكًا: ألا تظن أنه يمكنك التمتع ببعض الامتيازات؟

صدر الإعفاء، وأصبحت بمقتضاه كاثرين غير خاضعة لقرارات نورينبيرج التي تميز بين اليهود وباقي الألمان. كم هي مفيدة معرفة الكبار في أزمان التقلبات والخطر، كم هي رائعة صداقة رودلف الذي لم يشعره بأنه يؤدي له خدمة ثقيلة.

عاد إلى كاثرين كفارس أنقذ أميرته من الشرير، لم تفرح، قالت ساخرة وهي تمسك بالورقة: هذه شهادة بخلوي من الأمراض المعدية، أصبح بإمكاني الآن الاختلاط بالناس دون أن يخشوا على أنفسهم مني.

قال محمود الذي كان ينتظر بعض الحفاوة: أليست أفضل من إخفاء الحقيقة كأنها تهمة؟

ـ ما زال عليّ إخفاؤها.

ـ ولكنك الآن تحت الحماية رسميًا، من المفترض أن تطمئني وتطبعي قبلة هنا.

قالها مشيرًا إلى فمه.

ابتسمت في مرارة واستأذنت بحجة الإرهاق، دون أن يحصل منها على شيء أكثر من عطرها الذي غمره مع نسمة هواء خلفتها وراءها وهي تبتعد.

لم يكره منها شيئًا من قبل قط، ولكن رد فعلها أصابه بالحنق. صمت وكتمه وإن شعر أن صنيعه لها لم يقدر حق قدره، ربما لأنه جاء

سـهلاً، ربما لـو كان تركها تنكوي بنار القلق فـترة لكانت قد تعلقت برقبته كالناجية فور رؤيتها للإعفاء.

في هـذا الوقت كانت الاسـتعدادات تجري عـلى نحو سريع لعقد تحالفـات وتفاهمات مع بعض البلدان المحيطة وعلى رأسـها روسـيا وإيطاليا. عندما سـأل محمود رودلـف عن سر هذه الخطوات قال له: لقد قرر هتلر ضم بولندا والتوسع شرقًا.

قال محمود في توجس: لماذا؟ لقد استعدنا الكثير بالفعل.

رد رودلف مبتسـمًا: هل تظـن أن هتلر يريد أن يكتب التاريخ عن أعوام حكمه أنها كانت أعوام رخاء؟ التاريخ لا يمجد إلا المحاربين، يفرد الصفحات للفاتحين بينما يذكر دعاة السـلام في سطور قليلة، إنه كتاب مداده الرئيس الدم والدموع.

ثم جاءه في يوم وطلب منه بهدوء أن يصحبه للقاء هتلر في مكتبه، فوجده يجلس مسترخيًا مع جورينج وجوبلز وهملر، رحبوا بمحمود في حـرارة ودار الحديـث في ود. لاحظ تمثـال رأس نفرتاري يتصدر مكانًا مميزًا فقام يتفحصه عن قرب ليبادره هتلر قائلاً: لقد أخذتها من المتحف، إنها تحت رعايتي الكاملة هنا.

ـ إنها باهرة.

ـ لك أن تفخر بأجدادك.

رد وهو لا يشعر بالراحة: هم أجداد والدي فقط.

قال جوبلز في خبث: هل تتبرأ من أصولك يا محمود؟

رد محمود في هدوء: الأم هي معين المرء الحقيقي.

هز هتلر رأسـه مستحسنًا ولكنه قال: لقد أمرت رجالي أن ينكلوا

بأي يهودي يتبرأ من دينه، أما من يتمسك به ويصر عليه فيلقى مصيره دون إفراط.

تأزم محمود مما سمع وعدّه تهديدًا، كره جوبلز وهو يعود إلى مقعده صامتًا بينما الرجال من حوله يتحدثون في حماس عن خططهم وهو يستمع إليهم بعقل مكدر، حتى قال هتلر في تصميم: لقد قررت قذف اتفاقية فرساي في سلة المهملات.

في الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩ كان هتلر يلتفت إلى بولندا فيكتسحها بسهولة مربكة للجيران الخائفين، بعدها بيومين أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا.

دارت رحى الحرب على نحو سريع وأصبحت واقعًا يجثم على العالم، بينما الدبابات تتقدم والطائرات الحربية تزمجر في السماوات المفتوحة قاذفة بالدمار والبؤس على الأعداء المغلوبين على أمرهم، كان محمود يجد في عمله بالمستشفى، ساعده قربه من قلب الشعلة التي تضيء البلاد في الترقي في المناصب دون مشقة. أقدمية وخبرات من يعتبرون أحق منه بالمناصب التي شغلها أصبحت في لحظة مفعمة بالسلطة المطلقة غير ذات قيمة. ظل محمود يتقدم كل من حوله وسط تصفيق حار من المتسلقين ومعارضة صامتة من الحانقين.

طلب منه جوبلز ذات يوم طلبًا عجيبًا لم يرِحه، كبسولة سيانيد، أصابه القلق فهرع إلى رودلف يستفهم منه عن السبب.

ضحك رودلف وقال: هذه الأمور تكشف معادن الرجال.

ـ لا داعي للقلق إذًا؟

ـ بل لا بد أن يصبح القلق شريك حياتك.

-١٤-

كطفل ابتاع لعبة كانت تتوق نفسه لها ثم تعود عليها فتركها. بدأ السأم يضرب بأسوار صدئة على علاقة محمود بكاثرين. حاول إقناع نفسه بأنه يعيش حياة رائعة ولكنه كان يخدعها لكي يستطيع الاستمرار. صارت الضحكات تنتزع بمشقة، توارت العواطف خلف ستار العادة، طاردته مغامرات الماضي فأصبح يشتهي أي أنثى يراها، بذبول زهرة الحب الحمراء نمت أشواك صفات كاثرين السيئة، بدأ يرى فيها ما لم يكن يعيره بالاً من قبل، عقلها الراجح أصبح يؤخذ ضدها فهي لا تعترف إلا بوجهة نظرها، وتستميت في الدفاع عنها مهما كانت خاطئة، لا تتقبل النقد ولا التوجيه، حركات يديها التي كانت ساحرة يومًا وهي ترسم صورة العالم أضحت تتسم بالسوقية. كأنه استيقظ ليجد امرأة أخرى تشاركه حياته، امرأة لا يرضى عنها، وعندما حاول أن يتدخل بإضفاء تعديلات قوبل بمقاومة كاسحة ترفض كل ما يقول.

قال له يوهان بعد أن استمع لشكواه: الناس لا يتغيرون، لا تحولها إلى شخصية أخرى فتصبح مجرد انعكاس باهت لما في خيالك.

نفخ في ضيق وقال: أريد فقط تعديل بعض الأمور.

- هل لديك تصور محدد لهذه الأمور؟

- ليس بالضبط، ولكنني أعرف من أين أبدأ.

- أخشى أن قائمة الأشياء التي لا تعجبك ستطول، ستظل تطالبها بالمزيد وفي النهاية لن ترضى عنها.

- لن يفرق هذا عن وضعنا الحالي كثيرًا.

قال له يوهان في رفق: هل اختلفت عن المرأة التي أحببتها؟

- لا أظن، ولكن كأنما كانت على عيني غشاوة وانزاحت فجأة.

- وماذا تغير الآن؟

- ربما أنا من تغير.

- بل تعودت عليها، فلا تحملها هذا الوزر ولا تقسُ عليها.

ولكن الخلافات ازدادت، أشياء تافهة تؤدي إلى خصام ما إن تجبر كسوره حتى يعود مرة أخرى بسبب لا يقل تفاهة. أصبح كل منهما لا يرى في الآخر أشياء جيدة تذكر. في مرة قالت له إنها كانت تتمنى أن يكون لديهما حمام سباحة في الفيلا، صور له عقله كلامها على أنه عدم رضا بحالها. احتد عليها فناولته قسطًا من عنفوانها لينفجر في وجهها. تصاعد الأمر بلا سبيل واضح للحل حتى لجأت كاثرين إلى أديلينا مشتكية. قالت له أديلينا ناصحة بنبرة ذات مغزى: أنجبا طفلاً وستجد أن حياتكما قد أعيد ترتيبها على نحو سحري.

قال مستنكرًا: هذا حل يليق بجدتك أن تقترحه.

قالت في ثقة: هذا حل يصلح لكل العصور.

ولكن استنكاره لما قالته أديلينا لم يكن كاملاً. فباقترابه من منتصف عقده الخامس بدأ يشعر بحاجة إلى أن يصير أبًا. أمر لم يكن يشغل باله من قبل لكنه بدأ يشكل عليه ضغطًا متزايدًا. أديلينا نبشت فقط تلك الحاجة وأخرجتها من مخبأها. كان يتخيل شكل أطفاله وقد آن الأوان لكي يراهم، فليكن.

تصالح مع كاثرين وعرض عليها الفكرة فتحمست. لقد سمعت الاقتراح نفسه من أديلينا ولاقى في نفسها وترًا.

تشابكت الأيدي وهما يسيران معًا في الطريق، كأن أرضًا جديدة يطآنها للمرة الأولى معًا، وكأن مركبهما رست على شاطئها لتوها. قربتهما الفكرة من بعضهما وأزاحت بعض أسباب الغم.

ولكن النسل الذي أمل محمود أن يتناقل قصة تشريف الفوهرر لحفل زفافه تأخر على نحو أفقده صبره، فبدأ يسأل كاثرين بلطف ولكن باستمرار عند الأفول الثاني للقمر من كل شهر إن كان قد أصاب هذا الشهر، ولكنها كانت تهز رأسها في أسف نافية في كل مرة، تحول الأمر إلى هاجس سخيف يؤرقه، أصبح السؤال لومًا تجانبه الرأفة كأنه يقول: هل فشلتِ ثانيةً؟

رمى بالعلة عليها دون دليل، واستاء لأنه اختار من بين النساء امرأة لا تنجب، فتوارت محاولات الإصلاح خلف إلحاح الرغبة في أن يصبح أبًا، كأن هذا الأمر الذي استنكره في البداية أصبح هو محرك حياته.

لم يعد ينظر إليها باعتبارها الحبيبة التي عصفت بقلبه ذات يوم وذاق

في قربها أشهى الأوقات، أصبحت في نظره امرأة لا تؤدي واجبها، فزاد تأففه منها ومن حياته معها.

في يوم من شـهر يونيو عام ١٩٤٠ وقف يتطلع إلى برج إيفل، كان الشيب قد وجد طريقه إلى رأسـه كشـاهد على سـنوات عمره. كان معه هتلر وجوبلز ومن حولهم كبار قـادة الجيش والدولة. كان هتلر سعيدًا كطفل في محل حلوى، حتى إنه تخلى عن وقاره ورقص رقصة مضحكة أسـماها من حوله رقصة النصر. كانت هناك بضع كاميرات تلتقط الصور والمواد الفيلمية، دعاية رائعة ترسـخ في الأذهان عظمة ألمانيا وبطش قوتها العسـكرية. ابتسم للكاميرا وهو يقف خلف هتلر بمسـافة قصيرة تسمح له بأن يشـتم رائحة جلد معطفه. ما زال قريبًا وما زال ذا أهمية، فليقر عينًا بهذا.

في المسـاء كانـوا يتناولـون العشـاء في فنـدق الريتـز في باريـس، جالسين حول المائدة كسرب جراد يخطط لكيفية تسخير موارد البلاد لصالحهم، تاركين لأهلها المجاعة والبؤس كتذكار.

تتابعت أحاديث الزهو فسـار العشـاء على أكمل وجه، حتى قرر جورنـج أن يلقي مزحة بصوته المميز فقال مؤكدًا: سـيدي الفوهرر، ستكون الموناليزا معلقة في حمام منزلك في غضون يومين.

تغير وجه هتلر المنتشي ولم يرحب بالمزحة. كان في شبابه فنانًا وكان يقـدر الفن، فلم يرُق له تطـاول جورنج على الموناليزا بهذا الشـكل، ووبخه قائلاً: ربما كان من الأجدر بك يا هيرمن أن تهتم بالقضاء على القوات الجوية الملكية بدلاً من إعادة تصميم ديكور منزلي.

احمـر وجه جورنج وابتلـع ريقه، راق ما حـدث لمحمود، لم يكن

يحب جورنج المتعجرف المتأنق إلى حد البهرجة. رآه بطلاً في يوم وتمنى أن يحذو حذوه، قبل أن يتدرج نازلاً بحكم المعرفة من فوق سلم تقديره حتى وصل إلى القاع، فغدا في نظره مجرد مهرج بأنف مطاطي أحمر.

ولكن لم يقتصر التوبيخ على جورنج وإنما امتد إلى القواد الآخرين، كأن الملعون قد أشعل فتيل هتلر فانطلق يصب غضبه على الجميع.

ـ ستالين القميء يلبس لي ثوب الحليف الأمين، ولكنه يهددني في الباطن ظنًّا منه أنه الأقوى، وله حق، فقادة جيشي يظنون أن حدودنا مع السوفييت هي نهاية العالم.

انشغل القواد المعنيون بمحاولة تبرير وضع قواتهم بأنه ممتاز، فخبط على المائدة صائحًا: ممتاز! لو جئت بستالين نفسه لينشر قواتي على حدود بلده لقام بعمل أفضل منكم.

ثم قال بصوت أقل حدة بعد صمت قصير: وهذا الفاشل موسوليني سيتسبب في كارثة في شمال إفريقيا، على الرغم من مطالبتي المتكررة له بالتريث تسرع وانطلق مهاجمًا، كزعيم قبيلة هنود حمر، ليهزمه الإنجليز ويدفعوه إلى الخلف على الرغم من تفوق قواته عليهم.

ثم أضاف وهو يضم قبضته قائلاً في مقت: أقسم بشرفي أن أضع يومًا هذا البهلوان في قفص وأعرضه في حديقة حيوان برلين بالمجان.

صمت وهو يتناول بعضًا من طعامه قبل أن يقول في إعلان لا يقبل النقاش: لقد اتخذت قراري بالتدخل في شمال إفريقيا.

تخيل محمود هتلر وهو يرقص رقصة النصر تحت سفح الأهرام، فابتسم رغمًا عنه.

امتدت السهرة حتى عاد هتلر بعض من سعادته بالانتصار، وتناسى غضبته حتى إنه تبادل بضع نكات مع جورنج كأن شيئًا لم يكن.

فجأة دخل عليهم ضابط اتجه صوب هملر وقال له شيئًا في أذنه فتغير وجهه، تبادل مع جوبلز حديثًا جديًا أشار الأخير على أثره إلى صمود لكي ينضم إليهم.

قال له: ابنة هملر في المستشفى، الزائدة الدودية ملتهبة ولا بد من إجراء جراحة.

انطلق سريعًا مع هملر إلى المستشفى وعاين الفتاة التي كانت تتحمل ألمها في شجاعة. رأى في نظرة والدها لوعة لا يعرف لها نظيرًا فكيف له أن يعرف شعور الآباء؟ زوجة هملر التي صاحبت ابنتها إلى المستشفى بدت أكثر تماسكًا منه، هذا غريب، لم يعرف أن هملر يمكن أن يكون أرق من النساء.

دخل إلى حجرة العمليات ليقع بصره عليها للمرة الأولى، صوفي، ممرضة فرنسية شاء قدره أن تكون مساعدته في هذه العملية التي أتت إليه من حيث لا يحتسب. لم ير من وجهها الكثير تحت قناع العمليات، باستثناء عينين كلوزتين مكتملتين تحفهما رموش كحلتها الطبيعة.

نظرا إلى بعضهما في اهتمام قبل أن ينشغل عنها بعمله. بقي طيفها في عقله وهو يركز في الجراحة التي لم تكن معقدة، أنهاها ثم خرج إلى الأب القلق ليطمئنه، شد الأخير على يده في قوة شاكرًا.

في غرفة أعدت له لحقت به صوفي، كانت قد تخلصت من القناع فبان جمالها كما ينبغي، شعر أسود قصير على عنق طويل وشفتان

مكتنزتان بشكل يسر، كل هذا على جسد صغير فائر باتزان.

كانت لحسن حظه تتحدث الألمانية. أحس أنها تتحجج لكي تصل إليه فقال لها دون مواربة وهو ثمل بإغراءات قرر في لحظة تمرد على حياته بضجرها المتزايد أن يستسلم لها: هلا تناولت معي طعام العشاء؟

ابتسمت وقالت في حياء أقرب إلى الدلال: إن الوقت قد تأخر وأنا... أنا متزوجة.

ذبلت شجاعته وهو يقول: اعذريني، كان لا بد أن أستنتج هذا.

استدركت في سرعة: ولكن زوجي مفقود منذ بدء الحرب.

أحيت كلماتها آماله مرة أخرى فنظر إليها مستطلعًا. قالت في إغراء والكلمات تخرج من فمها بمشقة المرة الأولى: هل يستهويك المطبخ الفرنسي؟

قال ممسوسًا بقوة سحرها: بالطبع، هل تعرفين مطعمًا جيدًا؟

ابتسمت وقالت بصوت خافت: في منزلي تجد الأكل والراحة.

وقد كان، طارت كاثرين من عقله كضباب ليل كثيف أشرقت عليه الشمس. لم يفكر فيها للحظة وهو ينكب على مفاتن صوفي. كانت ملتهبة بشكل يثير الجنون. عندما خلع قميصه لمح في عينيها نفورًا من تشوهات ظهره، لا يهمه ماذا تظن، إنها مثل السبايا بالنسبة إليه، شعر بأنه يتم اختباره بصدق في فراشها، جسدها البض المترجرج لا يكتفي وهو أيضًا لا يشبع منه. تدفق حماس ناتج عن سنوات طويلة من الإخلاص فاستفادت منه صوفي العفية وأنهكته، ثم لم تتركه إلا بعد تيقنها بأن لم تعد به بقية.

قضى يومين آخرين يخوض معارك محتدمة في فراش صوفي، معارك لا يوجد بها خاسر، أصابته السعادة في الصميم فرحب بالتجديد الفتان.

بعودته إلى برلين شعر بضيق. قالت له كاثرين إنها افتقدته فرد عليها بالمثل كاذبًا. إنه يفتقد باريس وصوفي، ولهذا تعددت زياراته إليها، لم يكن يعدم الأسباب حتى تحولت الرحلات الباريسية إلى طقس ثابت.

كانت صوفي هي الستار الذي أسدل على وفائه لكاثرين. كلما قبعت في أحضانه كقطة صغيرة غابت أي فكرة عن زوجته كأنه لا وجود لها.

اندفع في إعجابه بها حتى بلغ مشارف الحب وقال لها: لو كنا تقابلنا منذ زمن لتزوجتك.

قابلت كلماته بضحكة مثيرة لم تشف قلبه المضطرب.

بيتها صغير ومريح ودافئ، أثاثها القديم كأنها ورثته عن جدتها يضفي على المنزل حميمية. ينتهيان من معاركهما فيتحدثان في أمور الحرب. تتبختر حوله عارية حتى تنير شعلته المرة تلو الأخرى. كانت بسيطة ولا تعرف إلى الخجل طريقًا. تقابلا عدة مرات في فنادق فخمة ولكن المقابلات في بيتها كان لها طعم آخر، طعمها هي، يختلط بطعامها الساخن وروائح منزلها العطرية المجهولة.

شعر أنه يقف في معبد إلهة الحب والرغبة، على محرابها المقدس، يقطف فواكه جسدها المحرمة فيزداد إثمًا. كلما نظر حوله وجدها عارية، يغرق في ملامحها وتفاصيلها، يغتسل في ضوء نشوتها. يصلي لكل منحنى في جسدها زاده تحررها إغراء وفجورًا. تعيس هو من لم يقابلك يا صوفي،

أيتها الغانية الغامضة المشتعلة. ضحكتك على ما أبدي تجاهك من مشاعر تنير لي طريقًا يلتوي بين أشجار غابة رغبتي فيك، كعروس بحر غاوية تنادي بحارًا ترك زوجته دون وداع ليهيم خلفها مندوهًا مسحورًا.

كان سعيدًا في باريس، راودته أفكار الجنون عن أن يترك برلين ويستقر في عاصمة صوفي، هنا حيث يقع قوس النصر بين ساقيها، ويقف برج إيفل شامخًا بلا كلل. لو قالت له إنها تحبه لفعلها، فقط لو قالتها. يداري غرامه لها، يتمسك بما تبقى عليه من أسمال كرامته التي بليت على يديها، وهو يتمنى أن يسمع الكلمة المقدسة منها.

بدأ ينظر إليها وهي عارية ويتخيل كيف ستبدو إذا ما حملت طفله، يمر عليه خاطر أن تصبح هي أمًا لأولاده الذين لم تستطع كاثرين أن تهبه إياهم، فهل يجب عليه الانتظار إلى الأبد كي تحمل كاثرين؟ إن العمر يجري وتتوه معه أحلام الأبوة والخلود المؤقت.

-١٥-

بمضي الشـهور على علاقته بصوفي شـتت وهجها الفتان بصيرته فأصابته الحيرة. هل آن أوان القفز في بحورها تلبية للنداء المسحور؟

صـار يتعامـل معها كأنها هـي شريكته، يحكي لها عن نفسـه وعما يسـتجد عليه، يبحث عن السلوى لديها، تحثه بلطف على الاسترسال فيزيـح عـن نفسـه حمـلاً فائقًـا. شيء توقفـت كاثرين عـن فعله. ما فائـدة الزواج دون أبناء ودون مشـاركة؟ وهو يفتقـد الاثنين، فعلام الإخلاص؟ ولماذا يصبر على زوجته المقصرة؟

لقـد نسي كيـف يمكن لرجـل أن يلقـي بهمومه على عتبـة امرأة فتزيحهـا بعيدًا، ثم تعطر ما علق من وساوسـها بعطر ياسـمين معتق يريـح النفس ويذهب الهموم. تسـتمع إليه صـوفي في انتباه كالمتأثرة، ولكنها إذا تكلمت تبدي اهتمامًا بالحاضر وتقول له فيما يبدو كالحب: دعنا ننس الماضي، فنحن ملوك يومنا.

وكان يطيعها، تسـأله في قلق عما يُخطط لفرنسـا فتقول: أنا خائفة

ولا أعرف السبيل إلى الاطمئنان.

فلا يبخل عليها بما يطمئنها من أخبار. يبدو على ملامحها بعض الراحة وإن لم يزُل قلقها تمامًا. زاده ضعفها وقوعًا في غرامها حتى أوشك أن يعد عدته لتفجير مفاجأة.

في نهايات عام ١٩٤٠ تعرف على إروين روميل في فرنسا. كان روميل على وشك العودة إلى ألمانيا بطلب من هتلر لكي يبدأ العمل على فرقته الجديدة، بعد أن حقق في فرنسا انتصارات مذهلة كقائد فرقة البانزر السابعة، التي سميت بالفرقة الشبح بسبب فرط سرعتها وشجاعة تحركاتها الخارجة عن المألوف.

أعجب محمود بالرجل وبطبيعته الحازمة. كان جوبلز يغدق عليه بالمديح بينما الأخير يبتسم دون زهو. رجل عسكري منضبط كما يجب أن يكون. تقابلا في مناسبات عدة وفي كل مرة كان جوبلز لا يتوقف عن مدحه والثناء عليه، وجدت مودة هادئة طريقها بين الرجلين فسمحت ببعض التقارب، كان أوله من روميل عندما قال لمحمود مداعبًا: في اليوم الذي يتوقف فيه جوبلز عن مدحي، سأعرف أن هتلر غضب عليّ.

وبينما الجيوش الألمانية تذيق البلدان المحيطة أهوالاً فوق أهوال، كان محمود ورفاقه لا يشعرون بشيء أكثر من الفخر. على الأقل معظمهم، فأديلينا استمرت في الاستياء مما يقودهم إليه هتلر، وبينما الحرب على أشدها قررت أن ما يحدث سيودي بالبلاد إلى القاع في يوم قريب. تهاجم هتلر وتنتقده فتثير حنق محمود ويوهان. تشاركها كاثرين فيغضب محمود. يقول لأديلينا: إنها تستمر في القلق بعد رحيلك فتعكر صفوي.

كان تركيز محمود في عمله قد تضاءل، مع انحسار اهتمامه بمستقبله كجراح وتكريس وقته في تثبيت نفسه حول القمة. دعاه جوبلز فلبى دعوته. في مكتبه بدأ يتحدث عن استهداف المقاومة الفرنسية مؤخرًا لأهداف ذات أهمية. أضاف قائلاً: كأنهم وقعوا على مصادر معلومات ذي قيمة عالية.

لم يهتم محمود كثيرًا بما يقوله، فاستمع بذهن شارد حتى قال جوبلز بصوت محايد: سمعت أن لك صديقة لطيفة في باريس.

رد محرجًا: سيدة جذابة تهون عليّ تحدي قضاء العمر مع امرأة واحدة.

ابتسم جوبلز وقال: تحدٍّ صعب، خاصة للرجال الذين تفتحت لهم سبل التفوق مثلنا.

جوبلز يجمعه معه في خانة واحدة، حسنًا، لا بأس بها كمجاملة ردها محمود قائلاً: لا بد إذًا أنه تحدٍّ عظيم لك.

هز جوبلز رأسه طربًا بإقرار محمود بالفارق بينهما وقال: لا أستطيع أن أنكر فشلي في هذا التحدي عدة مرات. ثم أضاف بجدية: ولكن لم يصادف أن كانت إحدى عشيقاتي عضوة في المقاومة الفرنسية.

- من تقصد؟

قال محمود في ريبة سبقت الصدمة.

قال جوبلز كاشفًا: اسم صديقتك الحقيقي هو سيلين لا فونتين. يساعدها جمالها في استخلاص المعلومات من ضباطنا لتضربنا المقاومة بشكل موجع أحيانًا.

قال محمود مصدومًا: أتعني أن هناك رجالاً آخرين غيري؟

قال جوبلز مبتسمًا: كثيرين، وإن كنت أنت أثمن طرائدها وأعلاهم مقامًا.

لو كانت المفاجآت تقتل لقتلته تلك. يا للطعنة الغادرة التي استباحت قلبه فصفت دمه حتى آخر قطرة. لماذا يا صوفي؟ لقد كنت صادقًا معك، أهذا جزاء المخلصين؟

ربت جوبلز على كتفه مهونًا وقال: لست أول رجل يقع في براثن جاسوسة حسناء فلا تبتئس، ولكن أخبرني، هل كنت تتحدث معها في شيء؟

نظر إليه محمود في استنكار وقال: إلام ترمي؟

قال جوبلز بخبث: يميل الرجال إلى الثرثرة في لحظات السعادة.

قال محمود في حدة وقد تشبث باستنكاره كقارب نجاته الأخير: هل أصبح ولائي محل شك؟

ـ قطعًا لا.

قالها جوبلز قبل أن يضيف: ولكن لو كنت تتكلم معها فلا بأس أن تخبرني الآن، سيظل الأمر بيننا ولكنه سيوفر علينا جهد التقصي عن مصدر آخر غير موجود.

قال محمود في قوة استمدها من الخوف: أنا آخذ منها ما أريد دون أن أعطيها شيئًا.

قال جوبلز في غموض: كلي ثقة في هذا.

رد محمود متطوعًا في غضب زاده الفزع: سأقتلها!

ثم تفكر وقال متراجعًا في ضعف: إن كانت حقًا جاسوسة.

قال جوبلز في استنكار: هل تظنني أقول ما لا أعلم؟

ـ حاشا لله.

ثم أضاف في تسليم: القتل هو جزاؤها إذًا.

نبهه جوبلز: ليس قبل أن ترد إليها صنيعها وتستخدمها للإيقاع بزملائها.

قال محمود في قوة: أدعم أي أفكار تزيد خسائرها.

ـ عظيم، ستسرب لها معلومات مهمة.

ـ ولكنها ليست معتادة مني على حديث أكثر من الغزل غير العفيف.

رمقه جوبلز في عمق كأنه يحاول النفاذ إلى عقله ثم قال: أعلم أنك لن تعدم الحيلة لتقنعها.

ساد صمت، كان رعب محمود قد فاق شعوره بالمرارة والضيق، لقد تم التلاعب به بسهولة وإيقاعه كفأر في مصيدة بدائية. سمع نقرًا على الباب ثم دخل هملر الذي قال مقهقهًا عندما رآه: كيف حالك أيها العاشق؟

رد محذرًا: لا تبدأ، فلولا العملية التي أجريتها لابنتك لكنت قد احتفظت بماء وجهي وأعفيت نفسي من تهكمك.

ـ ولكانت ابنتي أصبحت في عداد المتوفين.

قالها هملر بامتنان حقيقي، ثم صمت قليلاً وهو يعاينه قبل أن ينفجر ضاحكًا ويقول: ولكنك ساذج كمراهق لا خبرة له.

وجدها فرصة لصرف الأنظار عن تهمة الثرثرة. الاستغفال أهون وأقل ضررًا. الحب الذي كان يكنه لهذه المرأة كفيل بأن يؤكد إفراطه

في الحديث في أحضانها كعجوز تتذكر أيام صباها. الأفضل أن يبدو مغفلاً عن أن يبدو عاشقًا مصدومًا، لن يرحماه لو علما بمكنون صدره.

قال جوبلز منبهًا: الفتاة جميلة حقًا.

رد هملر مؤكدًا: أشهد بذلك.

قال محمود متألمًا: كنت لتقع في شباكها مثلي وأكثر.

هز هملر رأسه نافيًا وقال: أنا لا أخلع سراويلي أبدًا إلا أمام زوجتي.

هل هذا جزاء الإخلاص أيتها العاهرة ذات النظرة الساذجة؟ لقد جلبتِ لحياتك نهاية عاجلة في الوقت الذي كنت أعد لك ما هو أفضل بكثير، الحب والثروة والحماية، فلتخسئي بما سيحمله لك غدك على يدي.

قال هملر بجدية: أصدقاء سيلين الآخرين يمدونها بمعلومات تافهة لا تحتاج لأعداد كبيرة من رجال المقاومة.

قال محمود في استياء: أستنتج أنها تستقبل الكثير من الزوار في غيابي.

قال هملر مبتسمًا: إنها امرأة شرهة.

ثم صمت حينًا قبل أن يكمل: للمعلومات.

ضحك جوبلز بينما هملر يكمل: ولكننا سنعطيهم على يدك أمرًا لا يمكنهم تجاهله، جائزة كبرى تجتذب عددًا كبيرًا منهم، ثم ضرب يديه في بعضهما وهو يضيف: وعندها نسحقهم بضربة قاصمة.

قال مزايدًا: سأقتلها بعدها كيفما تراءى لي.

قال هملر محذرًا: إياك، إنها ما زالت ذات أهمية لنا.

ارتعشت عيناه في خوف وهو يرى خط النهاية يلوح في أفق نهايته.

لو تم القبض عليها فستغني قصص طفولته على وقع التعذيب، وسيعرف الجميع أن راوي هذه التفاصيل الحميمة بالتأكيد يحكي كل شيء آخر يسمعه، لا بد أن يقتلها، ولكنه بحاجة إلى خطة محكمة.

يود لو يضرب نفسه حتى يكل بسبب غبائه، وكلما توقف عند إحساسه تجاهها واستعداده الخفي لأن يفاجئها بطلب زواج، يشعر بأن حتى الضرب ليس كافيًا. لا بد أن يدفن نفسه حيًّا ويهيل تراب الأرض فوق خيبته التي جاءت في الكبر من حيث لا يدري، وهو من يفترض به أن يزداد حكمة.

أسقط غضبه على كاثرين، لو لم تتغير لما احتاج إلى أن يقع في أحضان الجواسيس. تلقت ثوراته عليها فانزوت تاركة إياه يأخذ علاقتهما إلى القاع.

مقابلته التالية مع صوفي كانت أسى ينضح بؤسًا، استقبلته كعادتها فرحة وبسيطة وساخنة. هاله أنه اشتهاها، يا للنفس المعقدة المجنونة، مخزن ألغاز وبئر لا قرار له. وجد نفسه يقبل عليها بعنف لمسته هي فقالت بابتسامة تداخلت مع تعبيرات اللذة والألم: يبدو أنك افتقدتني.

قال كاذبًا وصادقًا وهو ينهال عليها من كل جانب: كثيرًا.

لو كانت تفقه شيئًا فلا بد أنها قد لاحظت عليه تغيرًا، انتهيا من معركة حامية، ثم سألته وهي تتقاسم معه سيجارة مخضبة بما تركه باقيًا من أحمر على شفتيها بعد التهامها: كأن خطبًا ما يقلقك اليوم.

كان قد جهز للسـؤال فقال: مشـغول وأشـعر بالحنق، ثم انطلق يشـتكي لها كعادته من جوبلز قائلاً: أعطاني مسألة مهمة، ينسى أنني طبيب ولا أفقه في هذه الأمور.

قالت له مطمئنة بطريقتها المعتادة: إنما يفعل هذا لأنه يثق في حسن تدبيرك، ثم تساءلت عن كنه المسألة بنبرة محايدة.

ها قد وشى بك فضولك فأكد لي خيانتك، إن كانت في نفسي ذرة وحيـدة ما زالت غير مقتنعة. حكى لها قصة مختلقة أملاها عليه همل، نظـر إلى عينيها وهما تلتمعان ببريق مفضوح، نشـوة تلقي معلومة لا تمكن مداراة قيمتها، اللعنة عليك يا صوفي، لقد حطمت قلبي.

أعطاها التاريخ والساعة، وكل ما تحتاج إليه لكي يدبر أصدقاؤها هجومًـا ينقلـب عليهـم فـلا يُبقي منهـم ولا يـذر، ثم أخبرهـا بأنه سيزورها في توقيت مقارب جدًّا للحدث.

لم ترحب، فلم يعطها فرصة عندما قال في ترغيب يقارب الرجاء: أحتاج إليك لأمر ملح سيسعدك سماعه.

نظرت إليه في استفسار فلم يبُح بأكثر من ذلك، هزت رأسها على مضض ووافقت وهي تبتسم ابتسـامتها الساذجة المحببة. اللعنة على كل ما فيك يا صـوفي. لا يدري أيمقتها أم يحبها. اكتنفته حيرة عقيمة امتدت أمامه كطريق لا يقود إلى أي مكان.

مضى لحالـه وهو يلعـن اللقاء المقبل ويأبـاه قلبه. قبـل الميعاد مر ببقالة اشـترى منها كمية معتـبرة من الحاجيات. بحـث بعينيه فرأى شـابًا يافعًا تبدو عليه القوة، طلب منه في لطف بفرنسية تعبة أن يحمل له المشتريات إلى منزله، ومناه بمكافأة مجزية فقبل الشاب مسرورًا.

فتحت صوفي بابها، ابتسمت له ثم تطلعت إلى الشاب في شك فقال محمود في بساطة: كثرت عليّ الحاجيات فحملها لي صبي المتجر.

لم يفهم الشاب كلمة من الألمانية فأشارت ماري إلى المطبخ، وفي لحظة انشغال الاثنين أخرج محمود مسدسًا وهددهما. ارتبكت صوفي وارتعب الشاب، ولكن محمود الذي كان قد قرر تقديمه كقربان لشياطين غضبه أطلق النار عليه دون كلمة واحدة، فسقط وهو ينظر إليه في احتجاج صامت من شخص فقد عمره في لحظة دون حتى أن يعلم السبب.

صرخت صوفي وجفلت فقال محمود في حزن: لقد أحببتك بصدق، لكنك أخلصت لي.

فهمت مقصده، قالت له في رجاء وهي ترى النهاية دانية: لم أكن لأسبب لك أذى أبدًا.

تردد لحظات، فأضافت وهي تضع كل أسلحتها الأنثوية في نظرة ونبرة صوت: أرجوك لا تجعلني أفقدك.

نظر إليها وهو يحاول العثور على الهداية. تذكر كيف استغفلته وهو الرجل الخبير. لمحت في عينيه نظرة أصابتها بالخيبة، فتراجعت عن موقفها وقالت بشراسة: عاشت فرنسا.

أطلق الرصاص عليها مرة واثنتين، خيل إليه أنها تضحك وهي تقع على الأرض خالية من الحياة.

أراد البكاء ولكن دمعه لم يطاوعه. رتب مسرح جريمته وأخرج مسدسًا ثانيًا وضعه في يد الشاب ثم وضع الأول في يد صوفي وتمنى أن يبدو الأمر كما يريده أن يخيل إلى الناس. معركة بين خصمين انتهت

بأن قتلا بعضهما، هو لم يكن موجودًا من الأساس، هو البريء الذي ذاق الخيانة فجزع من مرارتها.

صوفي الخائنة التي ظنها حبيبة، الألم الذي يكفي عمرًا، سمع صوتًا في عقله ينادي بثقة: لكي تنتصر لا بد أن تقتل. ولكنه لا يشعر أنه انتصر ولا حتى أراحه الانتقام، أما ذلك الأبله الذي قتله لكي يحبك خطته فهو لا يشعر ناحيته بأي شيء، عدم كامل، لقد قتل نفسًا، بل اثنتين، سقط من على بناء الفضيلة درجات، ولكنه لا يشعر بندم. كل ما يراوده هو الغضب والحسرة. ألهذه الدرجة اسود قلبه وانطفأت جذوة الخير بداخله؟

خرج من منزل عشقه مسرعًا. نزل على السلالم متهاويًا إلى أسفل وهو يتمنى أن يذوب ويختفي.

-١٦-

عـاد من باريس إلى منزل رودلف، حكى ما حدث لصاحبه الذي استمع إليه وعلى وجهه قلق يتزايد. هز رأسـه مسـتاء بعد أن سـمع القصـة كاملة. أطرق قليلاً فلما رفع رأسـه وجد محمود يبكي بصوت مكتوم. قال له في حنق: على ماذا تبكي؟ عليها أم على نفسك؟

ـ لا أدري.

ـ دائمًا ما تقرن استسلامك بتلك النبرة الخائبة، كأن الدنيا تتكالب عليـك لكـي تظلمك وأنـت البريء، ألجم شـياطينك فأنـت لم تعد صغـيرًا لا سـنًّا ولا مقامًا. سـأتدارك الأمر ولكن حـذار من مغبات أفعال مماثلة. لا تظن أن لديك حصانة، فهي قد تسـقط عنك في لحظة إذا فعلت ما لا يرضي.

هز محمود رأسـه كأنه وعى درسًا قيمًا، ولكن كل ما كان يعنيه هو الاحتماء بصديقه. يعلم أنه من دونه ضائع.

مـر الوقـت دون عواقـب فاطمأن وبـدأ اسـترداد كرامتـه التي

أهدرتهـا صوفي بطريقته، دخل في مغامرات لا تنتهي، عاد مرة أخرى كأنـه صاحب عشرين عامًـا لا يردعه زواجه ولا مكانته. استجاب لشـياطينه كـما يحلو لهم حتـى انصرفوا عنـه غير موسوسـين بعد أن وضعوه على بداية منحدر زلق لا يساعد على الاستقامة.

انطلـق بلا ضابط يلهو كما يشـاء، يفعل فقط مـا يرضيه، وكان ما يرضيـه الآن هي الفتوحات التي لا تنتهـي. بعض هذه الفتوحات لم يسـتغرق أكثر من ليلة، بل إنها كانت لا تعطيه السعادة ولا الإشباع، ومع ذلك استمر في طريقه كقطار دون مكابح.

في أبريـل عـام ١٩٤١ كان عيد ميـلاد كاثرين، قـرر الاحتفال بها كعادتـه حرصًا على بعض المظاهر الاجتماعية، كورقة توت يداري بها سوءة زواجه. وكما جرت العادة دعي هتلر الذي صار لا يحضر أبدًا، ولكنه أرسـل جـرو أنثى رعي ألمانيـة كهدية. قال لـه الضابط الكبير الـذي سـلمه إياها إنها من نسـل «بلونـدي» كلبة الفوهـرر الأثيرة. شـعر بالتميز الذي أفضى إلى راحة وضحت على محياه، وعلى ما أسبغ مـن عبارات الشـكر لهتلر على جميل هديته والتـي عوضته عن غياب جوبلز، الذي لم يكلف نفسـه حتى عنـاء الاعتذار. حملها بفخر وهي ترتعـد من الخوف، بالت على بذلته فضحك وهو يلعنها في سره، قرر أن يأخذها لنفسه وأطلق عليها اسم ليتيشيا، تيمنًا بالمرأة التي رأت في ذات يوم بين السحب ما ينتظره من مجد.

بينما هو ينتقل بين المدعوين بصحبة كاثرين مرحبًا، لمحت هي عن بعد يوهان يداعب أديلينا كعادته. كانت قد أخبرتهما وهي تبتسم بأنها تنتظر مولودًا. فرحت لها ولكنها شعرت بوخزة نقص في جانبها الأيسر.

إحساسها بأنها لن تشعر أبدًا بمشاعر الأمومة جعل تلقيها للخبر يأتي مخلوطًا بالمرارة.

كان محمود بالكاد يتحدث معها. تعودت على معاملته القاسية ولكنها ما زالت تترك في نفسها أثرًا داميًا. مضت السهرة ثقيلة وهي تحاول تزكيتها بالحديث مع المدعوين. وصل رودلف هيس، وعلى الرغم من مرحه البادي لاحظ محمود عليه شرودًا مبهمًا، وفي لحظة هادئة سأله: ماذا يشغلك؟

ـ أود التحدث إليك.

قاده محمود إلى غرفة المكتب، فتنهد رودلف وفرك عينيه ثم قال: تعرف أن بساط القرب من هتلر قد سحب من تحت قدمي، أي أعمى يستطيع الجزم بأن الكثيرين أصبحوا أقرب مني إليه. ما هي إلا مسألة وقت حتى يحوك لي أحدهم مكيدة ويوقع بي.

ـ ما زلت خطرًا يجب عليهم تجنبه.

هز رأسه نافيًا وقال: لقد أصبحت نمرًا دون أسنان، ولكنني سأفعل ما يجعلني أعود إلى موقعي السابق، سأذهب إلى إنجلترا سرًّا لأعرض على تشرشل إنهاء الحرب.

صاح محمود في ذعر: هل جننت؟!

ـلا تقلق فهذه المهمة بطلب من هتلر، منذ البداية لم يكن يسعى لحرب مع إنجلترا، هم من تحمسوا لمحاربته. الآن يظن أن هناك فرصة للسلام، هذا سيسمح له بالتركيز على الجبهة السوفيتية التي يخشاها.

ـ هتلر هو صاحب الفكرة؟

قال رودلف في استنكار: وهل تظنها مبادرة شخصية مني! بالقطع هي فكرته.

- وما سبب حديثك عن فقدان القرب إذًا؟ ما زلت تتمتع بهما كما يبدو.

- إنهـا مهمـة انتحاريـة، سـتعيدني إلى مكانتي السـابقة وأكثر إذا نجحت، أما في حالة الفشـل فستصمني بالعار. إنها تأتي بشرط أنه في حال فشلها فإن هتلر سيتبرأ مني ويصورني كخائن.

- وما هي احتمالات فشلها؟

- لا نهاية لها.

قال محمود وذعره لا يخبو: ولماذا تقبل بهذا؟

قال في تصميم: لأن ألمانيا وهتلر يستحقان مني هذا، إنه رجل عظيم ولكن من حوله لا يساعدونه.

- هذه ليست وطنية، إنه انتحار.

- لقد بدأت بالفعل في الاتصال بدوق هاميلتون للتمهيد للزيارة، وأتى رده مبشرًا.

- هذا شـطط غير مقبول، إن لم تسـقطك الدفاعات الجوية فسيتم إلقاء القبض عليك والتنكيل بك.

- قضي الأمر.

- ماذا عن إلسيه؟

- هي في رعاية هتلر في الخفاء، أما في العلن فهي ملعونة معي.

- وابنك؟

- إنما أفعلها من أجله هو، من أجل مستقبله.

قال محمود: هما في رعايتي أنا أيضًا.

قال رودلف مبتسمًا: لم تسألني عن موقفك.

رد محمود متوجسًا: ما علاقتي بهذا؟

- أنت صديقي المقرب ومهما أتقنت من فنون الحياد فستؤخذ بجريمتي.

دب القلق في نفسه فتساءل: وماذا ترى؟

- ابعث لي بخطاب تعنفني فيه وترفض فعلتي، هددني بأنك ستخبر هتلر، أنا سأضمن أن يعثر الباحثون على هذا الخطاب في حالة فشلي، وعندها سيصير مستند براءتك.

- خطة أشبه برواية مدهشة الأحداث.

قال في ثقة: ستكون خاتمتها سعيدة.

ثم أضاف كأنه انتبه لشيء: لا تحاول أبدًا الاتصال بإلسيه وإلا ستكون خائنًا في عيونهم. أقدر لك تعهدك برعايتها، ولكن هتلر ضمن لي هذا بالفعل.

- هل تثق به؟

قال ماطًّا شفتيه: هل لدي خيار آخر؟

رد محمود بكآبة: ليتنا لم نكبر أبدًا.

عم صمت ثقيل في الغرفة قبل أن يقوم واقفًا ويقول لمحمود: الوداع يا صديقي، مؤقتًا.

احتبســت الكلـمات في حلق محمــود وهو يحتضنه قائـلاً: يبدو أن الفراق هو قدرنا.

قال رودلف وهو في غاية من التأثر: ماذا كان إبراهيم سواق حنطور والدك يقول؟

ابتســم محمود في مرارة وقال بنبرة ممطوطة عند حرف الواو مقلدًا طريقة إبراهيم: مكتوب.

ابتسم رودلف بدوره وردد متذكرًا: مكتوب.

-١٧-

في العاشر من مايو عام ١٩٤١ قام رودلف برحلته التي منيت بفشل مزر، وألقي القبض عليه في إنجلترا. تناثرت أصداء قصته في كل مكان، لقد فعل شيئًا لا يصدق، خان بلده وزعيمه وطار إلى إنجلترا هاربًا، فيا له من جبان لا يستحق الشفقة، تم تجريده من ألقابه ونعته بأحط الصفات كما اتفق معه هتلر ورضي هو. مصيره الآن مجهول والآلة الدعائية الألمانية تسحق سيرته بلا رحمة وتشيع أن دوافعه مجهولة. الإنجليز احتفوا بهذا النصر الهابط عليهم من السماء، وانتشرت صور رودلف التعس مقبوضًا عليه على صفحات صحفهم، كأنه لا خبر لديهم غيره.

غرق محمود في دوامة من الكآبة، على الرغم من يقينه بأن هذه المهمة كانت تذكرة ذهاب بلا عودة ظل يراوده الأمل في عودة رودلف منتصرًا، ذلك البصيص الخافت الذي تقتات عليه الأرواح في لحظات اليأس القاتم، بضياع ذلك النور سقطت النفس فريسة للألم، والآن

بعد فشل المهمة وضياع صديقه للأبد عليه أن يفكر في نفسه، لن يفيده البكاء على أطلال منزل الحبيب كشعراء العرب القدامى، لقد بعث إلى رودلف بخطاب جعله يضحك عندما قرأه ثم قال: لم أكن أعلم أنك مخلص للفوهرر بهذا الشكل.

قال الأخير بأسف: لقد كنت أتألم مع كل كلمة أكتبها.

- هذا لمصلحتك، سوف ترى.

بعدها بأيام قام ضابطان من الإس إس بزيارته وطلبا منه بأدب جاف أن يصحبهما. كان تحقيقًا خانقًا تم في مكتب رئيس الوحدة، بينما محمود يشرب قهوته وينفث دخان سجائره في غيظ بادٍ وقلق مخفي. شعر بالسخف وهو يقص عليهم حكاية معرفته برودلف، الجيرة في مصر وطفولتهما التي قضياها معًا.

لم يبخل على رودلف بالنقد اللاذع. كان حماسه في انتقاده تمثيلاً خالصًا نابعًا من خوفه ولكنه بدا أصيلاً. الخوف ملهم يجعل المرء يُخرج أفضل ما بداخله من طاقات، وكان خوفه عظيمًا، وعندما ظن أنه أقنع المحقق انضم إليهما ضابط لم يعرف نفسه، رجل ذو نظرة مقتحمة وجفنين ثقيلين يتهدلان على عينيه كأنه ثعبان ناعس. اتخذ التحقيق طابعًا أكثر حدة بانضمامه، توتر محمود فانطلق يدافع عن نفسه بلا هوادة. انصرف الضابط الأول فبدأت جلسة جديدة، هجوم من الضابط ودفاع قلق من محمود، يكر ويفر من الأسئلة في توتر متزايد، في لحظة بعد أن تصاعدت وتيرة التحقيق على نحو مخطط أمسك الرجل بسترة محمود ودفعه ناحية الحائط، وهو يتهمه صراحة بالاشتراك مع رودلف فيما أسماه خيانة.

لم يفهم محمود سر هذا التطور الغريب، كان يظن أنه محصن، فقال وهو يحاول التملص من قبضة الرجل: سأعلمك الأدب أيها الحقير، سأتصل بالسيد.

ضربه الرجل في معدته ضربة أخرجت الهواء من جوفه، وتركته يشعر برغبة في التقيؤ وهو يسقط على الأرض مذهولاً.

قال وهو يحوم حوله كذبابة لزجة لا تكل عن الدوران حول جرح مفتوح: إن كنت تظن نفسك مهمًّا فأنت واهم، أما إذا أصرّيت على إساءة الأدب فستنتقل إلى البدروم حيث الضيافة أقل ترحيبًا.

قال محمود وهو يحاول التقاط أنفاسه: اللعنة عليك.

قال الرجل في برود: ظننتك حكيمًا.

قالها ثم نادى على جنديي الحراسة فحضرا وخاطبهما في قرف: خذاه من هنا.

احتج محمود في عنف وحاول التملص منهما ولكنهما جراه إلى خارج الغرفة. نزلا به طابقًا ثم الثاني، قبل أن يجد نفسه ملقيًا في زنزانة بائسة لا تتجاوز مساحتها أربعة أمتار مربعة، وكل ما بها ينضح بالعذاب.

لو لم يجدوا الخطاب فبئس التخطيط هو، في البداية تفشل مهمة رودلف، والآن تفشل خطته في التغطية، ثم كيف لا تشفع له علاقته المتينة برجال الدولة؟

جلس متوجسًا يقلب نظره بين عشرات الأسماء والتواريخ التي نقشها سكان سابقون للغرفة على الجدران، رجال ونساء تشي أسماؤهم بأنهم من جنسيات مختلفة، بعض الأقوال المأثورة والعبارات

الوطنية اختلطت بالأسماء. بعض الكتابات لونها يميل إلى السواد كما لو كانت كتبت بالدماء. هذه الجدران شاهد على الكثير. انفتح الباب ودخل الجنديان ليصطحباه دون حفاوة دورًا ثالثًا إلى الأسفل، يبدو أنه ذاهب إلى الجحيم.

وجد نفسه في غرفة لا يمكن أن تكون قد شيدت إلا للتعذيب. قال له الضابط عندما رآه: أتحداك أن تسبني هنا.

لم يجرؤ محمود على سبه، قيده الجنديان في مقعد في منتصف الغرفة، حكى عن الخطاب ثم اختلق أحاديث دارت بينه وبين رودلف ينهاه فيها عما نوى.

قال الضابط وهو يشمر أكمام قميصه: ولماذا لم تخبر الفوهرر بما سمعت من ترهات صديق العمر؟

رد في ذعر: أردت أن أمنحه فرصة للتراجع.

هز الرجل رأسه ساخرًا، بدا كما لو أنه قد حسم أمره. ناوله لكمة عنيفة تحت عينه اليسرى شعر معها بألم ساخن وتأكد من أن الأمور ستتدهور سريعًا. توالت اللكمات على وجهه حتى كاد يفقد الوعي. أجاب عن أسئلة كثيرة وقد تملك منه ذعر لا نهاية له، لا يدري كم مر من وقت حتى تركه الرجل ورحل.

اقتيد إلى زنزانته مرة أخرى وهو لا يقوى على المشي، لبث فيها الليلة كاملة بوجه محطم ودماء تجلطت بفعل برودة الجو، يرى بصعوبة بعينين أغلقتهما الكدمات. الظلام يزيد الصعوبات حتى شعر كأنه كفيف. لم يعد يستطيع قراءة مخطوطات الجدار، بينما هناك صوت صفارة في أذنه لا يتوقف.

قضى الليلة ينتفض من هواجس ما جرى لأصحاب النقوش، رآهم يروحون ويجيئون عليه وكل واحد منهم يروي له قصته. رأى الدماء وهي تتفجر من أجساد الرواة المعذبين، سمع صرخاتهم المستنجدة بأذنه التي ملأها الصفير كأنه يقف بجوار قطار مزعج.

في صباح اليوم التالي أخرجوه إلى حيث يمكنه رؤية الشمس، قابله رئيس الوحدة معتذرًا، اتضح أن معذبه ضابط جستابو، لم يعقب محمود، وجهه الذي تحول إلى عجين من اللحم والدم لا يسمح له بالقيام بأي انفعالات. يتمنى الخروج بأسرع وقت فالآلام لا تحتمل. إذا كان الكلام سيطيل بقاءه فلا داعي له. يريد أن يسكن آلامه ويبكي على حاله.

كان الرجل يكذب بوضوح، أخرج الخطاب وأشار به إلى محمود قائلاً وهو عليم: هل هذا هو الخطاب الذي بعثته إلى رودلف هيس؟

نظر محمود إلى الخطاب ولم يعلق وهو يجلس مترنحًا أمام الضابط. أراد أن يصارحه بأن يذهب إلى الجحيم هو ومن عذبه، ولكنه آثر السلامة فصمت.

قال الضابط وهو لا يزال يكذب: أعتذر لك، يمكنك الذهاب إلى منزلك، هذا الخطاب به ما يبرئك من التهمة الشائنة مع الخائن رودلف هيس.

عندما دخل منزله تهاوى على الأرض، وسط ولولة كاثرين المصدومة من منظره المحطم.

قال لها بصعوبة: أحضري لي المورفين من صيدليتي. حقن نفسه به فبدأ الألم بالابتعاد متواريًا إلى حين. عندما نظفت كاثرين جراحه

وضمدتها ذهبت الدماء المتجلطة، تاركة جروحًا وكدمات لا تنتهي مزينة بفك مكسور.

جاءه تليفون من جوبلز يسأل عن أحواله، ولكنه لم يستطع أن يرد عليه. تقاطر على باب منزلـه رجال يحملون باقات الورود التي بعثها إليه أصدقـاؤه المهمون. لم يكلف أي منهم عناء زيارته إلا هملر الذي قال له إن ضابط الجستابو وقائد الوحدة ينعمان الآن بوقتهما في معتقل بيرجن بيلسن. يحفران قبورًا جماعية ستنتهي بهما الحال في أحدها. أكد لـه أنهما فعلا ما فعلاه تطوعًا. كانت الأوامر تقضي بأن يتم معه تحقيق شـكلي فقط. شكره محمود وهو لا يعرف إن كان صادقًا أم كاذبًا، لقد بدأ يشك في كل من حوله.

احتـاج إلى عشرة أيام والكثير مـن المورفين ليبدأ في التعافي. لولاه لـكان نواحه أسـمع كل ضاحيته. تركتـه الحادثة مشوشًـا فاقد الثقة فيمـن كان يظـن أنه ينعـم بحصانتهم. ذكرته بالـضرب المبرح الذي تلقاه على أيدي إخوة ماري. شـعر بهوان مماثل لما شعر به حينها. عاد إليه السـخط عليهما والرغبة في الانتقام منهما ومن الضابط الخسيس. أصبح أيضًا مدمن مورفين باقتدار.

أول ما فعل كان الذهاب إلى جوبلز. كانت آثار الحطام على وجهه لا تزال بادية. اسـتقبله جوبلـز متألمًا من منظره وقـال متعاطفًا: ماذا فعل بك هؤلاء الأغبياء؟

كانت الأشـياء قد تكشفت لمحمود في لحظة سطل منيرة فقال: أنا مقدر لحساسية الأمر.

تساءل جوبلز مندهشًا: حقًّا؟

ـ لقد حذرت رودلف وهددته بأنني سأبلغ الفوهرر فأوهمني بأنه ارتدع. لم أدر أنه أكمل خططه في الخفاء.

قال جوبلز في تشفٍّ مختبئ تحت قشرة أسف زائفة: تخرج النفوس مكنونها الحقيقي في النهاية.

أضاف محمود مغلقًا أي باب يمكن أن يتسلل الشك منه: أتفهم أنه بعد فعلة رودلف يصبح كل من حوله موضع شك، فما بالك بمن قضى معه طفولة كاملة؟

سكت لحظات متألمًا ثم أضاف: كما أتخيل أن صدمة الفوهرر لا توصف.

قال جوبلز في إعجاب: أقدر حكمتك البالغة.

تجاهله وأكمل: أتمنى أن تكون براءتي أصبحت واضحة كالشمس، أرجوك أن تبلغ الفوهرر أسفي الشديد على ما فعله رودلف، وأن يعتبرني دومًا من جنوده المخلصين.

قال جوبلز: لا ترهق نفسك بالكلام فإن ولاءك للفوهرر لا شك فيه، سأنقل إليه أمنياتك الطيبة حتى تلقاه.

قام محمود ليرحل وشد نفسه محييًا بما استطاع من قوة هاتفًا: هايل هتلر.

-١٨-

سـار في الشـوارع بغير هدى، ظلله الهوان فبكى، اليوم باع روحه للشيطان، والثمن حياته.

أكمل جوبلز عمله في الترويج لخيانة رودلف، جرده هتلر من كل ألقابه ورتبته وألغى منصب نائب المستشار الذي كان يشغله رودلف. مع تناثر الآراء من كل صوب تساءل محمود في نفسه، ماذا كان رودلف وهتلر يتوقعان من هذه الرحلة بالضبط؟ إنها فكرة طائشة ولكن لا بأس بها، كان لا بد من ترتيبها على نحو أفضل، حينها كان رودلف سيعود لبرلين بأكاليل الغار بدلاً من وصفه بالجنون والتخلي عنه. على الرغم من فداحة المصاب فإن محمود غبط هتلر على أنه حظي برجل مثل رودلف، رجل على استعداد للتضحية بكل شيء من أجله.

ترسخت بداخله قناعة بأن عليه إظهار الطاعة إذا أراد الحفاظ على حياته، تشتعل براكين غضبه تجاه من ظنهم مقربين منه. إنه يعلم

إنما أنهم يقفون وراء الأمر، لا يمكن لضابط جستابو مهما بلغ شأنه أن يفعل به هذا، دون أن يكون مدفوعًا ممن يجب عليه أن يخشاهم.

الجبناء يسبكون الطبخة أمام الجميع، لقد استخدموه كدعاية رخيصة من دعايات جوبلز. دليل إثبات براءة هتلر من أنه صاحب فكرة هذه الرحلة المشؤومة. قال لنفسه في مقت: فلتهنأوا بلعناقي أيها اللئام.

اتصل بإلسيه وقال لها بصوت لم يستطع هو نفسه تمييزه: هل تحتاجين شيئًا؟

قالت دون امتنان: لا شيء، أشكرك.

أنهى المكالمة وهو يأسف على صفحة طويت وانفتحت بدلاً منها أخرى بها الكثير من مسببات القلق. الوداع يا صديقي، لن أشعر بالأمان ثانية أبدًا. امتلأ رأسه بصورة لرودلف صبيًا وهو يضحك بقوة. بكى من التأثر وارتفع صوت نحيبه على صديقه وعلى نفسه من بعده.

وتظل مشكلة محمود الكبرى هي أن المصائب في حياته لا تأتي إلا مجتمعة، زخات منهمرة لا تنقطع.

فبعد هذه الحادثة المدمرة أدمن المورفين على نحو لا فكاك منه، انغمس في حياة تقارب المجون وابتعد عن كاثرين تمامًا. كان كمن يتمرد على كل شيء، وعلى أصدقائه المهمين في المقام الأول، ولكنهم لم يعلقوا، يبدو أنهم تركوه يفعل ما يحلو له كمكافأة له على ولائه. انطلق يصول طولاً وعرضًا مخربًا سمعته في برلين. كان القلق في روحه قد بلغ ذروته، في عقله خاطر ملحّ لا يتوقف عن التأكيد على أن الحياة

لحظة وعليه أن ينتهزها. كاربيه دييم أيها الجبناء.

وصل إلى قناعة حقيقية بأن الأمور لا تسير في الاتجاه المأمول، ليس هذا ما وعدنا به هتلر، أديلينا محقة فيما تقوله. ما يسمعه مؤخرًا عن سير المعارك في الميادين وعن تخطيطاتها في الغرف المغلقة يثير الرعب.

ثم بدأت عملية بارباروسا، لقد قرر هتلر غزو روسيا، لعن محمود الأرض وما عليها عندما علم بها. نابليون حاول من قبل وفشل، سمع الكثير من مسوغات التبرير. كلام كثير أغضبه ولكنه اعترض عليه في الخفاء فقط. أمام مرآة الحمام وهو يحلق ذقنه، في سيارته خلف المقود، في أي مكان خفي لا يراه فيه أحد.

أمام الناس كان يخفي غضبه وفقدانه للإيمان بالنصر، وهو يلعب برياء دور الواثق من الفوز، ولكن مع أديلينا كان الأمر مختلفًا، خاض معها نقاشات من القلب أسعدتها حتى احتضنته مهنئة إياه بسلامة الرجوع إلى جادة الصواب.

جاءته في يوم باكية تترجاه، يوهان تم استدعاؤه في الجيش، المصيبة أنه متحمس. عرض عليه محمود التوسط له كي لا تصيبه عصا التجنيد، ولكنه رفض وأسمعه كلامًا عن شرف الجندية ثم اتهمه بالتخاذل.

- وماذا عن مولودك الذي لم تره بعد يا مجنون؟

- إنما أفعل هذا من أجله.

قال غاضبًا: أنا أعرف ما لا تعرفه.

رد بكبرياء أثار حنقه: أنا أعلم ما فيه مصلحة بلدي.

أطـار عناده صواب محمـود فقـال مطيحًا بما وراءه: سـنهزم شر هزيمة.

ـ هذا سـبب أدعى لأن ألبي النداء، لو هربنـا كلنا فلن يبقى أحد ليصد الأعداء.

كان هذا الحديث يدور بينما أديلينا يعلو نحيبها ويزداد.

احتضنها يوهان وقال لها ما يسعدها، فضربته بقبضتها على صدره احتجاجًـا وهـي تبكي. أكد لها سـلامته قائلاً: أنا ضابـط طبيب، لا خطر عليّ فلا تقلقي.

قال محمود ليوهـان في محاولة أخيرة لإثنائه: لا يمكننا أن نحارب في هذه السن، لسنا ندًّا للجنود الشبان.

ـ أنا لن أحارب، سـأعالج الجرحى وهذه رسالة سامية، تمنيت لو تنضم إليّ.

ـ يكفي هتلر معتوه واحد.

ذهـب يوهان ثم عاد في إجازة بروح عالية. تابع محمود حماسـه في حسرة وهو يخبرهم بأنه ذاهب إلى الجبهة الروسـية. هـل يبوح له بما يسـمع من الجنرالات؟ هل يخبره أن موسم الأمطار ومن بعده الشتاء على وشك أن يبدآ، بينما الجيوش ما زالت بعيدة تمامًا عن أهدافها التي يغيرها هتلر مرتين في الشهر؟

تباعـدت أفكارهما تمامًا، شـعرا بأنهما غريبان عـن بعضهما للمرة الأولى منـذ تعارفهما، قال له محمود محاولاً: ما زالت الفرصة سـانحة لكي أتدخل وأبعدك عن الخطر المؤكد.

قال في تصميم: لا تحاول حتى يا محمود.

يئس منه وقنع بأنه يستحق ما سيحدث له، فودعه بلا أمل في اللقاء.

دخلت في حياته امرأة تدعى ديدريكا دون استئذان، وجهها حاد وبارد كأنه منحوت من الشمع، وإن حباها الله بجسد شديد الروعة يعوض قلة جمالها. كاتبة متواضعة الموهبة تحتاج لمن ينشر لها رواياتها، نسجت خيوطها بسهولة حول محمود الذي كانت سمعته الخربة تسبقه.

كانت مبهجة التفاصيل، عفية في الفراش كأنها مقاتل إسبرطي فحازت رضاه واهتمامه. ماجنة لا ترفض شيئًا وتهوى أن تعامل بعنف. من البداية أبدت نفورًا واضحًا من منظر ظهره، لقد تعود على هذا.

لمضاعفة اهتمامه بها أدخلت على إدمانه إضافة شائقة، خلطة عجيبة من المورفين والكوداين وبعض المشتقات المجهولة الأخرى. تعاطياها معًا فشعر بما لم يختبره من قبل، حلق في سماوات لم تخلق بعد، واستلقى على أراضٍ أسطورية لم يلمسها غيره. كل هذا وديدريكا تمسك بيده تقوده في هذه العوالم الغريبة، وعند كل محطة تعطيه من كنوزها شيئًا.

عاد إلى رشده في صباح اليوم التالي، بعد ليلة تذكرها بوضوح واعتبرها الأجمل في حياته، كانت أول مرة يكون في برلين ولا يبيت في منزله، احتجت كاثرين قائلة: ارجع إلى عقلك قبل أن ينفد صبري.

ولكنه تمادى في علاقته بذات الوجه الشمعي وأفرط في استخدام خلطتها، أدمن الخلطة بلا جدال وأصبح لا يستسيغ غيرها.

قالت له ديدريكا ذات يوم وهما يحلقان معًا: ما رأيك في كتاباتي؟

قال والكون يبدو جميلاً: رائعة.

ـ هل تراني موهوبة؟

ـ جدًّا.

ـ ساعدني إذًا في أن أنشر كتابي الأول.

ـ بالتأكيد.

قبلته في سعادة ثم قالت وهي تفرج ساقيها أمامه في غنج لتحصل على كامل انتباهه: لي طلب آخر.

قال مسحورًا بروعة المشهد: لك ما تطلبين قبل أن تطلبيه.

ـ أريد أن يكتب جوزيف جوبلز مقدمة كتابي.

ضحك قائلاً في دهشة: وما شأنه هو بالأدب؟

ـ فلنعتبرها بغرض جلب الحظ.

قالتها واستلقت على ظهرها وهي تستكمل إغراءها، بينما هو يقترب منها دابًّا على أربع قائلاً كبغل مندوه: أحلامك أوامر.

طرح الأمر على جوبلز فاستقبله بدهشة ثم أجاب: يسعدني أن أكتب المقدمة إكرامًا لك، ابعث لي بنسخة من الرواية لأقرأها.

بعثها إليه وهو محرج فاتصل به جوبلز بعدها قائلاً: الرواية متواضعة، لم أستطع استكمالها من شدة سذاجتها.

قال محمود مداهنًا: مقدمتك ستكفل لها التوازن الأدبي المطلوب.

ـ لقد كتبتها على أي حال وسأبعثها لك.

ثم أضاف ضاحكًا: أتمنى أن تكون صديقتك أبرع في الفراش مما هي في الكتابة.

شاركه محمود الضحك وأجاب: أفضل بكثير.

تذكر جوبلز أمرًا فقال: الفوهرر يبعث إليك بسلامه ويتمنى رؤيتك قريبًا.

قال فرحًا: أتمنى ذلك من كل قلبي.

أصبح رضا الفوهرر هو غاية الحياة ومنتهى الآمال. ألهذا الحد تضاءل حتى تساوى هو وبلوندي في طلب الشيء ذاته؟ رضا سيدهما!

-١٩-

تكفلت المقدمة التي كتبهـا جوبلز للرواية بأن تفتح أمام ديدريكا أبواب أكبر دار نشر في ألمانيا. كانت رواية متواضعة بحق، وإن لم يجرؤ أحد على قول هذا، وأتى النقد كله إما محتفيًا بميلاد كاتبة جديدة وإما متحفظًا في أحسـن تقدير. خدع القراء بالنقد فاشـتروا الكتاب حتى نفدت منه أربع طبعات.

طلبـت ديدريكا مـن محمود مقابلة جوبلز لتشـكره، رتب لها لقاء وفيه استخدمت أقوى أسلحتها الأنثوية فأوقعت الوزير المخضرم في حبائلها، ثم استغنت عن محمود بعد أن استخدمته كسلم للصعود إلى القمة ثم قذفت به بعيدًا.

ابتلع الإهانة في صمت دون أن يجرؤ حتى على الاحتجاج، وقر الغضب في نفسه وازداد حتى صارت الجحيم أقل منه سخونة. عندما فعلت به صوفي الشيء نفسه قتلها، ولكنه مع ديدريكا خرس وبارك

العلاقة بذهابه إلى جوبلز متسائلاً: أتمنى أن تكون الأديبة الجديدة قد أسعدتك.

هـز الأخير يده في لوعة وهو يضم شـفتيه مصدرًا صفيرًا طويلاً: رائعة يا صديقي، لقد عرفت الآن سر تحمسك لها.

ابتسم مدعيًا أن الأمر لا يعنيه، بينما في داخله كانت مراجل الحقد تغلي وتغذي سخطه المتصاعد تجاه الكل.

فلتذهـب إلى الجحيـم بوجههـا البشـع فغيرها من النسـاء كثير، المشـكلة ليست فيها هي ولكن في خلطتها المسـحورة. هذا ما يفتقده حقًّا.

عـاد إلى المورفـين ولكـن هيهـات، كان لا يضاهـي مـا تجهزه له ديدريـكا، ذهب إليها في يـوم تاركًا كرامته خلفـه في المنزل، وقال لها دون مواربـة: لقد أوصلتك إلى جوبلز فانعمي بـه، ولكنني أريد سر خلطتك.

قالت في ظفر: تستحقها.

خطـت مقاديرها عـلى ورقة ناولتهـا له، انصرف وهـو لا يدري أيبتهج أم يحزن.

بحصولـه عـلى وصفـة ديدريـكا عـاد التحليـق عاليًا كـما كان. أصبحت الحياة كئيبة إذا لم يكن منتشـيًا. زادت مرات تعاطيه وزادت معها جرعاته.

شـعر باحتياجه إلى صديق، رودلف ذهب ولن يعود، يوهان على جبهة القتال يظن بسذاجة الأطفال أنه يخدم الوطن، جوبلز باعه بدل المرة مرات. فقد الثقة في هملر بعد حادثة التعذيب. عليه أن يجد سندًا

يبكي عليه. بعد تفكير بقدر ما يسمح به عقله الغائب دائمًا وجد بغيته في جورنـج، رجل ذو جاه وبينهما قاسـم مشـترك مهـم، الإفراط في تعاطي المورفين، انتحـى به جانبًا في إحدى المناسـبات وقال له وهو يدس في يده قنينة تحتوي على الوصفة السـحرية: جنرالي العزيز، أريد رأيك في هذا السحر.

عايـن جورنـج ما وضعـه في يده، ثـم اهتز جسـده الضخم وهو يضحك قائلاً: مرحبًا بك في نادي السعداء.

بضعـة أيام أخـرى وكان جورنج يتصل به وهو يـكاد يزغرد من فرط الانتشاء، وينظم الأشعار في مدح الوصفة التي تأسست بفضلها علاقـة متينة لم تكن موجـودة بينهما. تركا كل تحفظاتهما السـابقة عن بعضهما وهما يحلقان معًا في العوالم الجديدة.

على الأقل استفاد من ديدريكا في شيء، هذا ما فكر فيه وهو يستمع لثرثرة جورنج عن مصائب جوبلز التي لم يكن ليعلم عنها شيئًا إلا منه.

ما تأكد في نفسه وأصبح لا جدال فيه هو أن الكارثة ستقع.

حتى كان شـهر سـبتمبر عام ١٩٤١، وبينما الخريف ينشر سـطوته على أوراق الشـجر فيسقطها، تلقت أديلينا خطابًا من يوهان يقول لها فيه إن المعارك محتدمة ولكن معنوياته مرتفعة وواثق من النصر.

قال محمود دون حرص: مبارك عليه الانتحار.

رمقته بنظرة حادة قبل أن تعتذر عن عدم مجالسته لشعورها بتعب الحمل. أثرت الضغوط في نفسـيتها فوضعت حملها في الشهر السابع، طفلة جـاءت صغيرة الحجم ولكـن في أتم صحة، أسـمتها ماتيلدا. سـعدت بها وتمنـت أن يأتي يوهـان ليراها فربـما أعاد النظـر في قرار خوضه الحرب.

ولكن في يوم رمادي كئيب جاء خطاب من قيادة الجيش يفيد بأن يوهــان قضى نحبه، دفن جســده في بقعة مجهولة في أرض روســية لن تطأهــا قدم أحد مــن أحبابه أبدًا، فكتب عليه ألا يــزوره زائر إلى يوم الدين.

انهــارت أديلينــا وذاب كل مــا حولها، قضت أيامًــا وليالي تصرخ وتبكي دون انقطاع وأهملت ماتيلدا تمامًا، حتى قالت له كاثرين ذات يوم في حدة: تصرف يا محمود.

كانــت الطفلــة تبكــي بحرقة بجانــب أمهــا الهائمــة في ملكوت الأحزان، خلق البكاء المســتمر ضغطًا على أعصاب الزوجين لم يكونا بحاجة إليه.

قال محمود بحدة مماثلة: التصرف الوحيد الذي أملكه هو أن أعطيها مهدئات، وأنا لن أفعل هذا.

قالها وهو نفسه يرزح تحت وطأة سطل عنيف.

ـ المسكينة تتعذب وبإمكانك التخفيف عنها.

ـ أنا لســت ســاحرًا، المهدئات قد تعطيها الراحة ولكنها ستجعل عقلها أجوف تصفر فيه الرياح.

تزايد بكاء ماتيلدا فصرخت كاثرين: طفلتها تحتاج إليها.

ـ المهدئات لن تمكنها من القيام بواجبات الأمومة.

ـ لا تعطني محاضرات، افعل شيئًا.

صمت وهو على وشك الانفجار من بكاء الطفلة الذي لا ينقطع، فقالت كاثرين: سأعتني أنا بالطفلة.

قال لها في إشارة مبطنة كريهة: جاءتك الفرصة لتعويض نقصك.

صرخت في غضب: أصبحت إنسانًا مقيتًا، هل هو الإدمان أم أنها شخصيتك الحقيقية؟

لطمها بعنف وهو يصيح فيها: تأدبي.

نظرت إليه ودموعها تنهمر دون بكاء، نظرة تحمل حسرة. تصاعد بكاء الطفلة، زاد التوتر على نحو لا يحتمل. تردد محمود، أيبادر بالمزيد من الهجوم أم يتقهقر معلنًا خطأه؟

لم تقل كاثرين شيئًا، وإنما أخذت الطفلة التي احمر وجهها من فرط البكاء. قالت له في مقت وهي تخرج من الغرفة: كن مفيدًا.

لبى الطلب وأعطى أديلينا المهدئات، توقف الصراخ وتحولت العينان اللتان كانتا لا تكفان عن البكاء إلى مقلتين جافتين فارغتي المضمون، ذاهلتين تنظران عبر الأشياء ولا تريانها.

أصبحت أديلينا لا تستطيع الاستغناء عن المهدئات، ارتمت في أحضانها طالبة السكينة، أحضر لها ممرضة لتعتني بها. كان الألم يعتصر قلبه في كل مرة يعطي فيها الممرضة تموين أديلينا من الأقراص المهدئة.

سألها ذات يوم: ألم يحن أوان التخلص من المهدئات؟

ردت بصوت حاسم: أبدًا.

ـ لماذا تفعلين ذلك بنفسك؟

ـ لكي أخرس عقلي.

غرق محمود وأديلينا كل في عالمه المصنوع من المخدرات والمهدئات، فمال فرع العائلة الوارف حتى كاد يهوي في التراب.

علم أيضًا أن الأحوال في شمال إفريقيا في سجال يتناقص فيه رصيد الألمان يومًا بعد الآخر، روميل يكافح من أجل الوصول إلى مصر، والإنجليز يدافعون عنها بقوة كأنهم يدافعون عن إنجلترا ذاتها. دعاه جوبلز إلى مكتبه ليجد إروين روميل هناك يعلن عن سخطه من تعذر وصول الإمدادات إليه، وتعنت قادة آخرين تجاهه.

لم يتغن جوبلز به كعادته، يبدو الأمر مقلقًا، كان روميل يعاني وعكة صحية، ويتحدث بصوت خافت ولكن حانق. قال له جوبلز: الفوهرر ملم تمامًا بأهمية هذه الجبهة.

ـ لماذا لا يبعث إليّ بما يتيح لي حسم المعركة إذًا؟

لم يرد جوبلز، قام روميل إلى خريطة وشرح له الوضع على الأرض وأضاف عليه خططه، ثم ختم بالمكاسب التي يمكنه تحقيقها إذا ما توافر له ما يحتاج من مدد. كان الكلام منطقيًا، صادرًا عن عقلية فذة راعى صاحبها ما يقوله، ولكن لم يبد على جوبلز الاقتناع. طوى روميل خريطته ومضى إلى بيته وفي حلقه غصة.

لا شك أن ليلته حفلت برؤى هزيمة ثقيلة سيمنى بها في الصحراء، تقضي على سمعته وتاريخه العسكري المشرف.

-٢٠-

في ظهيرة السابع من ديسمبر عام ١٩٤١ جلس مسترخيًا في مكتب جوبلـز، يتابعه بعـين ذاهلة وهو يحكي عن فتاة فرنسـية تعرف عليها مؤخرًا ويقـول متفاخرًا في صبيانية: هل تعلم ماذا تحب الفرنسـيات في الفراش؟

ـ لا.

نظر إليه في مكر وقال: كيف لا بينما لديك خبرة جيدة معهن.

رد في برود: لقد نسـيت كل شيء عن صوفي بعد أن قتلتها، أقصد بعد مقتلها.

بوغت جوبلز بما قاله، يشـك الجميـع أنه من قتلها ولكن رودلف كان قـد احتوى الموضـوع في حينه ومنع تفاقمـه، تغاضى جوبلز عن رده المتهور وأذعن لشيطان مراهقته المتأخرة، فاتسعت ابتسامته وهو يقول: دعنـي أذكرك إذًا، الصفع على مؤخراتهـن، هذا الأمر يثيرهن بجنون.

قالها وهو يمثل مشهد صفع على المؤخرة وكف يده مفتوحة.

صمت محمود مقاومًا رغبة تتصاعد في أن يصفع جوبلز على وجهه، بينما الأخير يكمل في إثارة مبتذلة: مزيج الألم واللذة على وجوههن وهن يتلقين الصفعة يثير أعتى الرجال، جربها على ضمانتي.

قال محمود في سخرية: يبدو لي أنك تتحدث عن ديدريكا.

قطب جوبلز حاجبيه وقال: ماذا تعني؟

فطن محمود إلى أنه قد تمادى، وعلى الرغم من تلك اللا مبالاة الكاملة التي تلف عقله، كان لا يزال يحتفظ ببعض الرغبة في البقاء، لذا فقد قال فور أن لمح تقلب وجه جوبلز: إنك خبير يا هر جوبلز، ولكن إن كنت تبحث عن اللذة في الألم فإنني أدعوك لأن تجرب مفعول وسائل أخرى.

نظر إليه جوبلز في فضول وهو يكمل في تشويق: الشمع الساخن على أجسادهن العارية.

استرعى الكلام انتباهه، فشرح له محمود الأمر باستفاضة، فأضاف له جوبلز خبرتين أخريين لتتحول جلستهما إلى سخف ينافسان به المراهقين وهما يتباهيان بمغامراتهما.

فجأة سمعا جلبة آتية من البهو الخارجي، وصوت كعوب أحذية تضرب الأرض كالحديد، فتح الباب بغتة ودخل منه هتلر كالإعصار. قال لجوبلز بجنون لم يره محمود عليه من قبل: هل سمعت بما فعل اليابانيون صباح اليوم؟ هؤلاء البائسون!

رد جوبلز بالنفي، فقال هتلر وهو يطيح بمزهرية من فوق منضدة: هاجموا بيرل هاربور حيث يرابض أسطول المحيط الهادئ الأمريكي.

اتسعت أعينهما في ذعر وهما يستمعان إلى الأخبار المروعة، وما إن انتهى هتلر من قول ما يعرفه من تفاصيل، حتى أمسك بتمثال برونزي ثقيل وأطاح به إلى فاترينة زجاجية تضم تذكارات، ليهشمها وهو يكمل صراخه: حذرتهم مرارًا من استفزاز الأمريكيين ودفعهم لدخول الحرب، آخر ما نحتاجه هو هذا الغباء.

ثم أضاف وعروقه تكاد تنفجر من الغيظ بينما شعره مبعثر فوق رأسه: الأغبياء.

قالها ممطوطة وهو يتشنج، قبل أن يضرب المنضدة بقدمه ويقلبها أرضًا بكل ما عليها.

- لم يستشيروني، لم يخبروني حتى، خططوا ونفذوا وتركوني أعرف الأخبار من مخابراتي. دقائق فقط قبل أن تذيعها وكالات الأنباء حول العالم.

اقترب منه جوبلز وأخذ بكتفيه ليجلسه محاولاً تهدئته، فجلس وهو ينظر إلى كل ما حوله بعينين مجنونتين وجسد متحفز.

قال وهو يضرب مسند الكرسي براحة يده مرارًا: قدري أن أحظى بالبائسين في صفي. في البداية المعتوه موسوليني والآن هيروهيتو يتفوق عليه في العته، ما هذا الجنون؟

وضع رأسه بين كفيه، ثم بدأ جسده يهتز قبل أن يرتفع صوت بكائه. لم يصدق محمود عينيه بينما هتلر يبكي بكاءً مرًّا ودموعه تنساب بلا نهاية. لم يتصور أن يرى هتلر يبكي، بل لم يتخيل أن هذا الرجل قادر على البكاء من الأساس. أكمل هتلر متألمًا دون أن يحاول مغالبة دموعه: لقد ضقت ذرعًا بما أنا فيه، لقد تعبت، تعبت جدًّا.

زادت حـدة البـكاء بينما محمود ينظر إلى هتلر مندهشًـا في صدق، كأنه يشـاهد ظاهـرة فريدة لم يكـن يعلم بوجودها. عـض هتلر على شـفته السـفلى بأسـنانه في قوة تركت أثرًا بعد أن أفلتهـا، كان يحاول أن يسـتجمع نفسـه ويتوقف عن البكاء، لم يتحرك محمود أو جوبلز، لم يجرؤا على الاقتراب منه. سـاد الجمـود والصمت في الغرفة إلا من صوت أنفاس هتلر الحارة وهو يحاول السيطرة على عواطفه، ثم فجأة نظر إلى محمود وعلق عينيه عليه، كانت دموعه قد توقفت عن الانهمار وإن لم تجف بعد. استنشـق الهواء بقوة كي يمنع أنفه الذي انقلب لونه إلى الأحمر من أن يسـيل. بدأت عيناه تعكسان نظرة غائمة خشنة تجاه محمود، نظرة من يتفحص دخيلاً غير مرحب بوجوده.

شـعر محمـود بأنه هالـك إذا لم يتـصرف سريعًا، هـذا الرجل لن يسمح بأن تمر لحظة الضعف هذه دون رد يثبت لمن شهدها بأنه أقوى الأقوياء، ولرعـب محمود رأى في نظرة هتلر إليه أنه سـيكون ضحية هذا الإثبات.

ألهمه الخوف نشـاطًا مفاجئًا فاندفع ناحية هتلر وأمسكه من كتفيه بـلا حذر وهو يقـول له في قوة وبـأداء مسرحي: ابكِ يا سـيدي فإن دموعك هي دليل قوتك.

نظر إليه جوبلز في دهشـة، حتى هتلر فارقت الخشونة عينيه وحل محلها التعجب. أكمل محمود عالمًا بأنه لا مجال للتراجع: دموعك هذه يا سـيدي الفوهرر هي خير دليـل على حبك الجارف لبلدك وتحملك مـا لا طاقة لبشر به، إنـك المنارة التي تهدينا الطريق الصواب وسط هـذه العواصـف، وإنه لـشرف يا سـيدي أن أراك تبكـي، شرف لو قضيت عمري كله أشكرك عليه لما استطعت.

كان أداؤه صاخبًا ومبالغًا فيه، كان نفاقًا خالصًا، ولكنه ظنه طريق نجاته الوحيد. شـد بعده قامته وأدى التحية لهتلر بأقوى ما يستطيع. إبهامًا ثم نـزل على ركبة واحدة محنيًا رأسـه في خضـوع ومكث على وضعه دون حركة، كعبد ينتظر قرار سـيده بفك رقبته أو فصلها عن جسده.

ساد صمت تـام في مكتـب جوزيـف جوبلز، حتـى الأنفاس لم تسمع، أغمض محمـود عينيـه منتظرًا الحكـم عليه. بعـد انتظار بلا نهاية جاء الحكم في صورة يد هتلر وهي توضع فوق رأسـه المنحني، وصوته الذي استعاد الكثير من ثباته يقول له: أنت ابن بار لهذا الوطن يا محمود.

لم يرفـع محمود رأسـه حتى أزاح هتلر يده عنهـا، فنظر إليه في قوة وهو لا يزال جاثيًا على ركبته بينما جسده يرتجف.

قال جوبلـز متدخلاً وهو يسـاعد محمود على النهـوض: ما فعله محمـود يا سـيدي الفوهـرر هو مثال بسـيط عما يشـعر بـه كل ألماني تجاهكم، مشـاعر خرجت تلقائية في اللحظة التي شعر فيها بأن قائده بحاجة إليه.

قال محمود وصدره يعلو ويهبط: لا خوف على شعب أنت قائده يا سيدي الفوهرر.

نظـر إليه هتلر بامتنان وربت على كتفـه، قبل أن يقول في قوة وقد استعاد عنفوانه: إن جيوشـنا عـلى أتم قدرة لأن تضيـف أمريكا إلى المعادلة.

قال محمود وجوبلز في الوقت نفسه: طبعًا، بالتأكيد.

أضـاف هتلر بينـما جوبلز ومحمـود ينصتـان في انتباه كأنـه ينطق بالحكمة المقدسة: هيروهيتو يظن أن ريح الكاميكازي ستحارب معه في كل مرة يحتاجها فيها، ولكن ليس هذه المرة.

قال جوبلز في خبث: ولكن ريح الكاميكازي تحارب معه بالفعل، ليسـت ريحًا بفعـل الطبيعة، وإنما هـي ألمانيا العظمى تحـت قيادتكم الحكيمة.

نظر هتلر إلى جوبلز بنظرة متفكرة، قبل أن يضيف مستجديًا المزيد من الإطراء: إن كان هذا قدري فأنا لها.

قال جوبلز في هدوء بعد أن سيطر على عقل هتلر: بالتأكيد يستطيع اليابانيون أن يركنوا إلى تحالفهم معك، ولكن هذا لن يأتي دون تفاهم واضح وتسوية منصفة لنا.

ثم التفـت نحو محمـود كأنما يدعوه للمشـاركة في ترنيمـة الرياء المباركـة، فلـم يـتردد لحظة وقـال: تحتاج إلى سـلاح فتاك يا سـيدي الفوهرر.

نظر إليه هتلر متسـائلاً فأكمل: الأسلحة التقليدية لن تجدي نفعًا، يجب أن يضع العلماء الألمان كل طاقتهم لإنهاء تلك القنبلة الجديدة.

قال هتلر: وهناك سـتالين أيضًـا يا محمود، إننـي بالفعل أحارب العالم كله وحدي.

قال محمود وهو يأخذ هتلر معه في جولة تخيلية مشيرًا بيديه في الفراغ: إن هي إلا ثلاث قنابل فوق كل من موسكو ولندن وواشنطن، بعدها سيأتي الجميع راكعين تحت عرشك طالبين عفوك. أنت سيدهم وهم رهن إشارة من يدك.

حلم هتلر نفسه للأحلام فلمعت عيناه، وقال لجوبلز وهو يشير إلى محمود ضاحكًا: إنني أحب هذا الرجل. سأصدر الأوامر لكي يعمل علماؤنا بلا هوادة على كل الأسلحة الجديدة، ماذا أسموا القنبلة؟ تساءل وهو ينظر إلى جوبلز.

- القنبلة الذرية يا سيدي الفوهرر.

- نعم، القنبلة الذرية، لا بد أن ينتهوا منها لأسقطها فوق رأس ستالين الجالس على عرشه الثلجي.

انتهت الجلسة برحيل هتلر ثم استئذان محمود في الانصراف. قال له جوبلز محذرًا: لا يمكن أن يعلم مخلوق بما دار اليوم.

قال محمود في حماس الخائفين: لا أذكر الفوهرر إلا بالثناء.

خرج غير مصدق نجاته، كان خبر القنبلة الذرية هو إحدى فوائد مصادقة جورنج، هو من أخبر محمود بأمرها، يا لها من صداقة نافعة، لقد كان حكيمًا لمبادرته بها على الرغم من سابق تحفظاته تجاه الرجل.

تفكر في سخريات الحياة، ها هو ذا يجلس في أمان مثرثرًا مع جوبلز في مواضيع جنسية تافهة، فيدخل عليهما هتلر ويبكي أمامهما، ثم يقرر أن يرسله وراء الشمس لأنه كان شاهدًا على بكائه، أي عبث هذا؟ ما ذنبه هو من الأساس؟ ليس هو من جعله يبكي ولا هو من أوعز إلى اليابانيين بمهاجمة بيرل هاربور!

كم هي رخيصة هذه الحياة ولا تحتمل أن يظن إنسان أنه ذو قيمة أيًا كان مركزه. في لحظة يمكن أن تنقلب المسرة إلى بؤس وتذهب الراحة إلى غير رجعة، بل ربما تضيع الحياة ذاتها إذا قرر الحظ السيئ إحكام قيود التعاسة.

فكـر في الطريقة التي تدار بها البـلاد، إذا كان هذا الرياء الفاضح الـذي أتحفا بـه هتلر يجد له متسـعًا في صدره وعقلـه في لحظة فاصلة كهذه، فلا عجب أن هذه البلاد ذاهبة إلى الجحيم بأقصى سرعتها.

أن يكـون هو الوحيـد القادر عـلى قول كلام معقول وسـط هذا العبـث بحديثـه عن القنبلـة الذرية، بينـما هو في الأصـل طبيب، ثم يتحـول كلامه إلى إسـتراتيجية هتلر المقبلة، فإن هـذا لمصيبة متكاملة الأركان.

بل إنه بدأ يشك أن من يحكم هذا البلد فعلاً هو جوبلز وليس هتلر، الأخير يثق به على نحو أعمى، بل ويستسيغ كل الترهات التي يحشو بها رأسه ويتصرف على أساسها، وجوبلز المجنون هذا لا يمكن أن يؤتمن على مقادير شعب.

بحكم معرفته الجيدة بهتلر مر في خياله طيف جلسة حماسية للبرلمان يبادر فيها بإعلان الحرب على أمريكا، فلتحل اللعنة على الكِبر وعلى هذا البلد التائه بأكمله.

-٢١-

حمل كاثرين مسؤولية ما تعانيه أديلينا، وأغلظ لها في القول مذكرًا إياها في كل مناسبة بأنها من ألحت عليه لكي يعطيها المسكنات. اتخذت ركنًا قصيًّا تبكي فيه وتعتني بماتيلدا كما لو كانت ابنتها. أصبح لديه أخيرًا طفل في المنزل ولكن ليس من صلبه. وعلى الرغم من أنها ابنة أقرب الناس إليه لم يشعر ناحيتها بالعاطفة الواجبة أو حتى المنتظرة. منظر كاثرين وهي تغرق نفسها في الاعتناء بالطفلة وملاعبتها أشعره بالنفور الكامل منها، نموذج بائس للفشل، وهو لا يحب الفشلة ولا يحترم الخاسرين. أصبح لا يطيق وجودها حوله ولا حتى نبرة صوتها، تذكره بزمن مختلف كان فيه شخصًا آخر، سعيدًا ومؤمنًا بفكرة، اهتزت الفكرة حتى كادت تهوي متهشمة على أرض صلبة من الجنون الذي يراه حوله، ومعها اختلت علاقاته بكل من عاصرها.

في المقابل كان يقضي وقته في المنزل بصحبة ليتيشيا. شعر ناحية

الكلبة بعاطفة تزداد كلما حلق في السماوات الخرافية، ينظر إلى عينيها كأنما يرى فيهما حديثًا صامتًا يفهم كل كلمة منه، يحدثها حديث الفاهمين فلا يراوده أدنى شك في أنها تعي كل ما يقوله.

أصبحت علاقته بكاثرين تحتاج إلى معجزة لكي تنصلح، يعيشان معًا كالغرباء في المنزل، لا يتبادلان إلا أنصاف أحاديث بجانب الكثير من المعارك على لا شيء في الحقيقة، مجرد تفريغ شحنات من الغضب والضغط على بعضهما. تحولت حياتهما معًا إلى بؤس لا يطاق.

انغمس في المخدرات والصعلكة وابتعد عن العمل، ومع ذلك فقد صار مدير المستشفى على الرغم من عدم وجوده به غالب الوقت.

عندما بدأت غارات الإنجليز على ألمانيا في نهاية مارس عام ١٩٤٢ شعر الألمان الذين كانوا يذوقون طعم الحرب للمرة الأولى بالفزع، فتصاعدت أنغام كونشيرتو النهاية عالية تسمع الأصم.

دعاه جورنج إلى منزله واستقبله استقبالاً حافلاً، ثم أعطاه صندوقًا خشبيًا أنيقًا، وهو يشير إلى حرف الميم والتاء اللذين نقشا بخط قوطي على الخشب قائلاً: هدية بسيطة.

فتح محمود العلبة ليجد محقنًا ذهبيًا يستقر فيها، وبجانبه خمس قنينات صغيرة تقبع في فراغات في مخمل أحمر.

قال جورنج وهو يرفع كُمّ قميصه ويدعو محمود ليفعل مثله: لقد أعطيت خلطتك لأحد المختصين، وسألته أن يجعلها أكثر قوة فعاد إليّ بخلطة جديدة.

ثم أضاف وهو يفتح قنينة بحرص: ستسعدك كثيرًا.

تناول محمود المحقن ووخز به عرقًا نافرًا في ذراعه بحنكة

المارقين. تحدث مع جورنج في آخر الأخبار حتى صدمه السطل في غفلة كشاحنة مسرعة. انبهر بالتأثير كأنها أول مرة، سعادة عالية كسعادة الأطفال هيمنت عليه، لا شيء يهم، إذا بدأت نهاية العالم الآن فلن يلتفت كثيرًا ولن يأبه. كان شعورًا سحريًّا آتيًا من بلاد العجائب.

مضى الوقت لطيفًا عليهما وما زاد من حلاوته أنهما قضياه يسخران من جوبلز، حتى جاء الخادم معلنًا لجورنج: لقد وصلت الفتيات يا سيدي.

صاح المضيف في حماس: أدخلهن فورًا.

ثم قال لمحمود وعيناه تبرقان: هل ما زال بك من العنفوان لتتحمل ما ستلاقيه؟

انفتح الباب ودخلت خمس فتيات، واحدة ترتدي زي أرنب، والأخرى زي حصان أسود، بينما ارتدت اثنتان بذلتين رجاليتين وربطتي عنق، ورسمتا شاربين رفيعين على وجهيهما وصففتا شعرهما كالرجال، أما الأخيرة فكانت ترتدي فستان سهرة فاضحًا.

هلل جورنج وحياهن برفع كأسه عاليًا، قبل أن يصفق لهن فيقلبن المكان بمرحهن ورقصهن. أدار الخادم بعض موسيقى الجاز والسوينج الأمريكية، فرقصت الفتيات عليها وارتفع صخبهن وهن يسحبن الرجلين لمشاركتهن الرقص.

كانت الفتيات محترفات في فنون ترطيب الأجواء وتحليتها. بدأت الملابس تقذف في أنحاء الغرفة، الفتاتان اللتان ارتدتا ملابس الرجال لاطفتا بعضهما على نحو مثير، وقد سيطرت إحداهما على الأخرى

كالرجـال. أظهر جورنج تمرسًـا لافتًـا في فنون المجـون واللهو. بدا لمحمـود أنه معتـاد على هذا النوع من الترفيـه، يرقص مع هذه ويقبل تلـك قبـل أن يسـمح لثالثـة بأن تخلـع عنـه قميصه وتخمـش ظهره بأظفارها، بينما هي تضع سراويلها الداخلي فوق رأسه كقبعة، وتلف حول رقبته شريط سـاتان لتسـحبه خلفها، فيسـتجيب ضاحكًا وهو ينظـر إلى محمود داعيًا إياه ليتحرر من قيود التحفظ وخيالات الخجل الكاذبة. تشـجع محمـود وانضم إليه فنالـه من المسـخرة أكثر مما نال جورنج. في النهاية أخذ الفتاتين المسترجلتين إلى غرفة منفصلة، تاركًا جورنج مع ثلاث بالتأكيد لن يقدر عليهن مجتمعات.

انتهـى الحفـل بعد سـاعات طـوال، ورحلـت الفتيـات بعد أن امتلأت محافظهن بالنقود، فتركن الرجلين متهاويين في انتشاء مريح. دعـا جورنج محمود إلى جرعة جديدة فلبى متحمسًـا، أتى مفعولها في وقت قياسي وعادا إلى سـعادة الطفولة مرة أخرى، وهنا قرر جورنج الخروج للتنزه فلم يمانع محمود بعضًا من هواء المساء البارد.

ذهبـا إلى المطار فانقلب رأسًـا على عقب بحضـور جورنج الذي قال: سآخذك في نزهة لا بد أنه قد طال اشتياقك لها.

قال محمود مسرورًا: إنه لشرف لي أن أطير مع بطلي الأوحد.

ربـع سـاعة وكان جورنـج يجذب مقـود طائرته ويرتفـع بها عن الأرض، كانت الليلة صحوة والقمر ساطعًا من بين السحاب المنتشر في السماء، كنتف قطن شكلتها يد طفل حالم. كان القمر يظهر ويختفي فيسطع الوجود بظهوره أو يظلم اشـتياقًا. اخترقت الطائرة السحب وغابت وسـطها، بينما جورنـج يقول لمحمود الذي جلـس حالمًا: لا شيء يضاهي الطيران وأنت منتشٍ كأنك تطير في خيالاتك.

قال محمود وهو يتقلب منعمًا في أحضان السعادة: يا لها من متعة.

ـ التجليات والأفكار النيرة لا تأتيني إلا هنا، كأنني أصيب الإلهام وأنا بين السحب.

ـ سأطلق عليها تجليات الشباب، لا بد أن الطيران دائمًا ما يذكرك بشبابك.

هز رأسه متفقًا وهو يقول: إن الزمن لا يتقدم إلا إلى الأمام، دائمًا يحملك رغمًا عنك تجاه خط النهاية؛ لذلك فاختلاس لحظات قديمة بمشاعرها البريئة والمتفائلة بالحياة لا تقدر بثمن.

قال محمود وهو ينظر إليه مذهولاً في سعادة: العمر سِباق لا يريد أحد أن ينهيه.

كانت العقول تحلق أعلى من الطائرة، تمعن محمود في منظر السحب التي انعكس عليها نور القمر، ورأى النجوم فخيل إليه أن بإمكانه أن يطال أحدها لو مد يده. شملهما الصمت وصوت المحركات التي تحولت في أذني محمود إلى موسيقى اشتاق إليها، وكل منهما غارق في تخيلاته وأوهامه قبل أن تسيطر الوساوس على عقل محمود فيقول نابشًا قبرًا عفنًا: هل سنكسب الحرب؟

قال جورنج بنبرة الراوي: لقد كنت طيارًا جريئًا إلى درجة انتحارية.

ثم ضحك موضحًا: جريئًا وليس مجنونًا مثلك. كنت أقذف بنفسي في وسط الأعداء دون اكتراث وبصورة كانت تخيفهم حتى اكتسبت سمعتي في الجو، وفي يوم من الأيام كانت المعركة محتدمة وكانت حولي ثلاث طائرات للعدو، اشتبكت معهم ولكنهم لم يكونوا سذجًا فأيقنت أنني هالك. كانت لدي فرصة للهرب ولكن الكبرياء منعتني،

خشيت أن أفقد هيبتي وأن ينتشر في أوساط أعدائي أنني فررت من المواجهة، وبالطبع أسقطوني، وبينما طائرتي تهوي دون أن أملك عليها سلطانًا اتخذت على نفسي عهدًا أنني إذا نجوت فلن أجعل الكبرياء تقودني مرة أخرى أبدًا، وقد كان، نجوت يومها بمعجزة ثم نجوت من الحرب كلها بعدها بسبب أنني التزمت بعهدي.

نظر إليه وأكمل: هتلر يمر باللحظة نفسها التي مررت بها في شبابي، وكبرياؤه تمنعه من الاعتراف بأزمته، المعضلة هنا أنه يقود شعبًا بأكمله إلى حتفه.

قال محمود: الهزيمة صارت قريبة.

ابتسم جورنج في سخرية: إذًا استمتع بكل لحظة تحياها، بكل نفس في صدرك وكل دقة قلب، حتى إذا جاءت النهاية يكفيك أنك لم تضع لحظة واحدة دون متعة.

ثم تساءل: هل تحب أن تقود الطائرة؟

رد محمود في سرعة مغالبًا خوفًا طرأ عليه: سيسعدني هذا.

ترك جورنج المقود واسترخى في مقعده بينما محمود يحاول ألا يحرج نفسه أمامه، وصل مع الطائرة التي كانت مختلفة تمامًا عما تعود عليه إلى تفاهم، قال له جورنج وهو يتابع تحكمه في الطائرة: إنك مقتدر.

انزاح التركيز وبدأ الاستمتاع ينشر لذته، شعر كأنه صقر يحلق في السماء، ظل يلهو بلعبته لفترة دون أن يخفت انبهاره ولا تفتر لذته. السماء المفتوحة والسحب العذراء التي تنتظر أن يخترقها منتصرًا، القمر البعيد ولكنه لو اتجه نحوه فسيبلغه بجهد بسيط، الحرية الكاملة

التي افتقدها حتى نسيها، وسيلة تحقيق أحلام الطفولة المستحيلة، السعادة والهناء الكاملان.

مر عليه الوقت كلمحة من البهجة الخالصة قبل أن يشير جورنج إلى مؤشر الوقود ويقول له: أخشى أن أفسد متعتك ولكن علينا العودة.

هبط على نحو لا بأس به، نزل من الطائرة بينما إحساس المقود لا يزال عالقًا في يده، واللذة متشبثة بروحه كطفل يتعلق بثوب بأمه.

احتضن جورنج وهو يشكره في صدق، بانت الدهشة على وجه الأخير بسبب هذه الضمة المباغتة، وإن ربت على كتفه وهو يقول مازحًا: المرة المقبلة نأخذ قاذفة قنابل ونذهب لقصف بعض البلدان البائسة.

ضحك محمود وهو يقول: فلنبدأ بفرنسا.

قال جورنج في خبث: جراحك في هذا البلد عميقة.

رد في بساطة: لم يعد يفرق معي شيء.

قال جورنج ناصحًا: هذا الشعور عواقبه وخيمة إذا صار نمطًا لحياتك.

عاد إلى منزله وهو يشعر بسعادة لا متناهية، مغامرة غير محسوبة أرجعته إلى أيام الشباب والفتوة وجعلته لطيف المعشر على غير العادة. توجست كاثرين من تغيره المفاجئ ولم تشأ أن تتعود عليه، فانسحبت تاركة إياه يدندن بعربية كسيحة أغنية مصرية لا يعرف كيف تسللت إلى عقله.

-٢٢-

في اليوم التالي لحق بليتيشيا إلى الحديقة في جانب خفي تخبئ فيه العظام كما تحب أن تفعل الكلاب، بينما ليتيشيا تنبش في الأرض باحثة عن خبيئتها الثمينة وهي تنبح لتنبهه إلى أهمية ما تفعل، لمح جيرانه من خلال فرجة في الأشجار المتشابكة، جاره اسمه رالف أدلر، لم يكن محمود يتبادل معه أكثر من تحية مقتضبة إذا ما تقابلا صدفة، لم يكن يدعوه إلى حفلاته ولم يحاول التودد إليه. كان رالف يعرف علو شأن محمود، ويرى بوضوح ترفعه عليه، ولكونه شخصًا محترمًا فقد آثر الابتعاد عنه.

كانت زوجة رالف تجلس في الحديقة تقرأ قصة لطفليها اللذين استمعا إليها في استغراق مفتون. سرح محمود مع المشهد حتى اخترقه رالف، نظر إليه ثلاثتهم بابتسامات واسعة وقال شيئًا لابنه فاتسعت ابتسامته، قبّل زوجته في حنان ثم شاركهم جلستهم. فجأة شطح عقل محمود بإيعاز من المخدرات الجديدة فشعر بالحنين إلى أيامه

الفاترة مع كاثرين، قرر أن يفعل شـيئًا يرضيهـا، فهداه تفكيره إلى ما يرى أنه السبيل لتغيير الواقع الكئيب.

ترك ليتيشـيا تنبح محتجة لعدم تقديره للسر الذي كشـفته له واتجه إلى منـزل رالف، دق الجرس وانتظر في صـبر حتى فتحت له الزوجة الباب فحياها في سرور. نظرت إليه مستغربة وتقدمته إلى الفيلا وهي تتساءل عن سر هذه الزيارة النادرة. في الصالون حيث انتهى به المقام كان رالف يرحب به بالتسـاؤل الحذر نفسه، تحسّب من هذه الزيارة، وكان يحق له أن يخشى من عواقبها.

كان محمود قد أثقل كعادته مؤخرًا في التعاطي، طلب منه في لطف رالف أن يشـتري نصف حديقتـه من الناحية الملاصقـة لفيلّاه، فبهت رالـف من الطلب ثم رفضه بأدب وتهرب في تصميم. لم يتقبل محمود الرفـض، خاصة أنه وضع أملاً على هذه الفكرة لإعادة بعض البهجة لحياته مع كاثرين.

حاول إغراءه بسعر مرتفع دون جدوى، حتى أوضح له في حدة: أنـا لا أطلب رأيك وإنما أخطرك فقط مدفوعًا بحق الجيرة، فإما تقبل وإما ترى مني ما لا يسرك.

أنهـى رالـف النقاش على نحـو مباغت أثـار جنون محمـود. إنها مشكلة الناس الذين يتحلون بالكرامة في الأزمان الظالمة، حيث القوة لها الكلمة الأخيرة، بينما القانون لا حول له كطفل يحبو.

عاد محمود إلى بيته وشياطين الغضب تتراقص حوله ساخرة، اتصل بهملر وطلب منه تأديب هذا الجار المترفع ففعل هملر ما يبرع فيه.

بعدهـا طلب منه هملر الذهـاب إلى أحد مقرات الإس إس، قابله

قائـد المقر ومعه عقد بيع ممهور بإمضاء يحجب نور الشـمس لرالف
قال له الرجل متفاخرًا: لدينا وسائلنا المقنعة.

عـاد إلى المنزل ليجد كاثرين تنتظره وفي يدها كأس من النبيذ يبدو أنها لم تكن الأولى.

قال كأنه يهتم حقًا: هل ماتيلدا نائمة؟

ممتقعـة الوجـه لم ترد على سـؤاله بل قالت: زارتنـي زوجة رالف مستغيثة تطلب مني التدخل لديك للإفراج عنه، ثم روت لي زيارتك المفاجئة لمنزلهم اليوم.

قال في سخط: هل تشتكيني إليك؟

- إنما هي تستغيث بي، قل لي ماذا فعلت؟

قال بعد تردد: مجرد تأديب.

- ماذا فعل لكي تؤدبه؟

- لقد أراد أن يفسد مفاجأتي لك فلم أسمح له.

ثم مد يده إلى حقيبته وأخرج منها عقد البيع وناوله لها مبتسمًا.

قـرأت العقد في سرعة قبل أن تتسـع عيناها وتقول في اسـتنكار: أقبضت على الرجل لكي تشتري منه جزءًا من حديقته؟

- لقد طلبتها منه بالذوق أولاً ولكنه تكبر، كنت أستطيع انتزاع ملكية أرضه كلها ولكنني أخذت فقط ما أحتاج.

قالت في جزع: أي شـيطان أنت؟ استمع إلى نفسك وقل لي إذا ما كنت لا تزال الشخص نفسه الذي أحببته يومًا، لقد تحولت إلى نسخة رديئة من أصدقائك.

- إنما فعلتها من أجلك أنت، ألم تتمني يومًا لو كان لدينا حمام سباحة؟

- كنت أحلم فقط.

ونظرت إلى محمود في امتعاض وقالت: أنت إنسان منحط.

ثم أضافت مشيرة إلى ليتيشيا التي تتابع النقاش بعين واعية: كلبتك أكثر نبلاً منك.

قال حانقًا بعد أن تبددت آمال تحسن العلاقة: إنها مجرد قرصة أذن، سيخرج من السجن بعد بضعة أيام.

صرخت في وجهه: أكاد أجزم أن الرجل في طريقه إلى المعتقل.

تنازعتهما روابط الماضي وانشقاقات الحاضر بكل ثقلها، كانت الخواطر تمر من قبل زائرة، أما الآن فقد استوطنت وأصبح المستحيل ممكنًا، ثم جاءت الكلمة الملطخة باليأس، قالتها كاثرين في تصميم: إني راحلة غدًا صباحًا.

- هل ستتركينني؟

قالها غير مصدق.

- سأذهب لزيارة عمتي، إننا بحاجة إلى الابتعاد عن بعضنا لفترة.

- بعد ما فعلته من أجلك؟

- إن كان من أجلي فأنا لا أقبله، وإن كان من أجل كبريائك فلم يفت الأوان لكي تصلح هذا الخطأ.

اقتربت منه وعيناها مليئتان بالدموع، وأمسكت بوجهه وقبلته قبلة طويلة على خده كأنها تودع حبيبًا ذاهبًا بغير رجعة.

قال في ثورة مؤكدًا: لن تأخذي الطفلة معك.

توقفت للحظات مراجعة نفسها قبل أن تقول في هدوء: بالطبع.

قالـت له قبل أن تتركه: أطلـق سراح رالف يا محمود، لو كانت لا تزال بداخلك ذرة إنسانية.

في صبـاح اليـوم التـالي رحلت، شـاهدها من نافـذة غرفته وهي تسـتقل سـيارة، وكان حجم ما يحمله الخدم خلفها من حقائب ينذر بغياب طويل.

لم يخـرج من المنـزل يومها، أغرق نفسـه في بحور مـن المخدرات كي ينسـى، تحول تحليقه إلى سـقطات متتابعـة وأحلامه إلى هلاوس كابوسـية. قضى اليـوم كله يتصبب عرقًا على الرغـم من برودة الجو. في المسـاء جاءته زوجة رالف تستعطفه للإفراج عنه، أقسمت له إنهما سـيرحلان ولن يراهمـا ثانية، اسـتمع إلى توسـلاتها دون أن يرد، ثم أغلق الباب وهي لا تزال واقفة مكانها.

عندما عاد رالف إلى منزله كان قد تحطم جسـديًا ونفسيًا، ساعات قليلـة وكان هـو وعائلتـه يرحلون إلى الأبـد، تاركين منزلهـم خاويًا لمحمود إن شاء الاستيلاء عليه.

ولكنه لم يفعل، لم يعد هناك داع بعد أن رحلت كاثرين. كان يقوم بكل هذا من أجلهـا، وفي النهاية ألقت هديته في وجهه ورفضت يده الممدودة بمحاولات الإصلاح.

أديلينـا كانت لا تزال غارقة في أحلامها الخالية، تحدق بذهول إلى الفضاء كالمندوهة. جاور الأسـى عليها إحساسًـا بالحنق منها بسبب ضعفها. لو تصرفت كل ألمانية فقدت عزيزًا مثلها لامتلأت الشـوارع بسيدات مذهولات.

قال لها بعد أن نفد صبره: من اليوم سأقطع عنك تموين المهدئات.

نظرت إليه ساخرة دون أن تنبس بحرف، ثم أشعلت سيجارة مراقبة دخانها وعقلها ينعم في فراغه.

عاد إلى منزله الخالي، كاثرين رحلت وأديلينا على شفا الخبال، أخافته فكرة أنه أصبح وحيدًا، شعر بحاجة ملحة إلى أمه لكي تأخذه بين ذراعيها وتهدهده حتى يستكين، ولكن أين هو من هذه الضمة المأمولة؟ بكى بحرقة حتى جفت عيناه، ثم جهز لنفسه جرعته اليومية وزاد عليها طلبًا لسكينة وَدّ لو نالها ولكنها لم تحضر.

بدلاً منها داهمه خدر سرى بفاعلية في جسده كله حتى عبأه، لم يكن شيئًا مما يعرفه، كان إحساسًا ذا حضور ثقيل غير مرحب به، هذا ليس انتشاء أو سطلاً، لقد فقد القدرة على القيام بأي فعل أو حركة كأن جسده يتمرد عليه. هذا الانسحاب إلى العدم بجانب برودة شاملة في أطرافه ليست أعراضًا ممتعة. يبدو أنه أفرط في الجرعة، قام بما تبقى لديه من قوة يتخبط في المنزل محاولاً استعادة بعض من نشاطه، ولكنه فشل وبدأ يشعر بساقيه تتراخيان حتى كاد ينهار. لقد تعدى الأمر مرحلة الشك وطرق أبواب اليقين. لقد أفرط بالفعل في الجرعة. اتجه إلى صيدليته الصغيرة بمشقة، أخرج منها حقنة أدرينالين يحتفظ بها للطوارئ، وعبأها في المحقن بمعجزة بينما إدراكه وعضلات جسده تقاومه كأنها ترغب في الاستسلام للمجهول. ضرب نفسه بالمحقن وانتظر وقتًا مر عليه كالدهر حتى انحسرت الموجة العاتية وتراجعت هجمات الضياع. تهاوى كعروس ماريونيت انقطعت خيوطها، ونام في مكانه على الأرض حتى ظهيرة اليوم التالي.

عندما استفاق شعر كأن قطارًا قد صدمه، آلام شديدة إلى جانب

صداع رهيب، كأن جسده قرر الانتقام منه لإعادته إلى حياة سئمها وود الهروب منها.

ذهب متهالكًا إلى سريره حيث انهار عليه مرة أخرى وأكمل النوم حتى المساء.

استيقظ شاعرًا بتحسن طفيف وجوع شديد، في المطبخ أكل ما وجده أمامه وبعد بضع قضمات شعر بالشبع. لا يمكن أن يسمح لهذه المخدرات بأن تضيع حياته، لا بد له من وقفة مع إدمانه.

أفزعته صورته في المرآة، كأنه استيقظ من الموت، وجهه شاحب وعيناه غائرتان كأنهما تتواريان خجلاً وتحيط بهما هالات سوداء، أنفه اللعين المنحرف، ذكرى ماري الخالدة. ترى كيف ستكون حالك اليوم يا ماري؟ لقد أدى لها معروفًا بأن تسبب في مقتلها، فتاة هشة مثلها لم تكن لتتحمل ضغوط هذه الأيام الصعبة. فلتهنئي في مرقدك وليخسأ أخواك، ترى أين هما الآن؟ هذا شيء يستحق البحث.

-٢٣-

في بدايـات فبراير ١٩٤٣ اسـتدعاه جوبلز إلى عريـن الذئب، مقر قيادة هتلر على الجبهة الشرقية، كانت رحلة طويلة ومزعجة، باقترابه تحولـت الإجـراءات الأمنيـة إلى كابـوس لا يحتمل. مهما ظن نفسـه شـخصًا ذا أهميـة فإن أحـدًا لا يعرفه حقًـا. الطريقة التـي يعامله بها الحـراس تشي بأنهم لم يسـمعوا عنـه من قبل، هذا دليـل جلي على أنه نكرة مهما حاول إيهام نفسه بالعكس.

كان هتلر جالسًـا يقرأ تقريرًا، حياه محمود فنظر إليه ثم هز رأسـه باقتضاب قبل أن يعود إلى ما في يده.

سـلم على هملر وجوبلز، ثم استغرقوا جميعًا في صمت قطعه هتلر عندمـا صاح معلقًا على مـا يقرأ: أنا محاط بالعجـزة، جنرالاتي أعجز مـن بغل عقيـم، فريدريتش بولـوس يطلب مني الأمـر بفك حصار ستالينجراد والانسحاب لإنقاذ من تبقى من جنوده.

ثم خبط بظهر يده على التقرير وهو يزداد غضبًا صائحًا: بدلاً من

أن يبعث لي بمفاتيح المدينة، يطلب مني الإذن في الانسحاب!

قـذف بالتقرير بعيدًا وهو يصرخ: هذا لـن يحدث أبدًا، إنه إعلان لانتصار ستالين عليّ، في لحظة كنت على وشك احتلال عاصمته، وفي اللحظة التالية يبدأ جنرالاتي الفشلة في استجداء الأوامر بالهروب.

أضـاف هائجًا: قولـوا لفريدريتش ألا يترك موقعـه وإلا أعدمته بتهمـة الخيانـة العظمى، إما السـيطرة الكاملة على سـتالينجراد وإما خصيتاه على طبق صفيح صدئ.

ثم نظر إلى محمود قائلاً في ثورة: ماذا تريد أنت الآخر؟

قال محمود في خوف: لقد بعث السيد جوبلز في طلبي.

تدخل جوبلـز مذكرًا قائله: لأخبره بقرارك أن يسـافر إلى تونس للاعتناء بصحة إروين روميل.

هـز هتلر رأسـه متذكرًا: أجل، لا بد أن يشـفى، إنـه آخر جنرال يمكنني الاعتماد عليه وسط قطيع العجزة الذي أديره هذا.

ثم أضـاف وهو يحرك إصبعـه في الهواء محذرًا: أبلغـه أن أوامري إليـه هـي أن يقاتل حتى آخر رجل، قل لـه أنْ يُصلب فوق صبارة في الصحراء خير له من أن يعود إليّ خائبًا.

ربـت جوبلز على كتفه مشـجعًا ثـم اصطحبه إلى خـارج المجمع الخرسـاني الكبير، وطلب منه التوجه إلى المطار فورًا ليسـتقل الطائرة إلى تونس. ذهب إلى منزله ليجمع ملابسـه، فمـرت كاثرين على باله كذكرى قبضت قلبه، وقرر أن يذهب ليقنعها بالعودة إلى منزلها عندما يعود من رحلته.

شـعر باسـتياء بلغ قمته ووضع فوقها علمًا أحمر، هتلر تعامل معه

كأنه ذبابة دخلت غرفته ففتح لها الباب كي تخرج، هذا الرجل غير طبيعي، لقد قارب على الجنون ووصل إلى مشارف مدينة الخبال.

طوال الرحلة كانت كلمة انسحاب تحمل معها القلق، لقد تكررت عدة مرات في ظرف دقائق، تردد صداها في أذنه منذرًا بالويل.

تناول مخدره على متن الطائرة دون أن يأبه بمن يراه، غشيه الذهول وهو ينظر إلى السحب المتماسكة من نافذة الطائرة. كانت الرحلة مليئة بالمطبات الجوية التي لم تهز له شعرة ببركة المخدر المانح للشجاعة، قضاها يتخيل سيناريوهات كابوسية للهزيمة وما قد يلحقه من آثارها. استفاق من ذهوله نسبيًّا عندما ظهرت خيوط من الأضواء على الشريط الساحلي لمدينة طبرق، حيث حطت الطائرة ونزل منها وهو يلعن اليوم الذي قابل فيه هتلر وجوبلز.

شعر بالتوتر في كل لمحة من حوله بينما السيارة تقطع الطريق إلى مركز القيادة، الجميع متأهب، الأصوات عالية والتحركات لا تهدأ. عندما رأى روميل وجده في حالة سيئة، شاحبًا وهزيلاً وهناك قرحة بجانب فمه لا تندمل، وإن كانت اللمعة في عينيه لم تخبُ بعد.

بعد الكشف عليه تبين أنه يعاني من ارتفاع ضغط الدم وقرحة معدية لا تهدأ، معهما اضطراب في القولون إلى جانب إجهاد في عضلة القلب. تعجب كيف يقود جيوشه بهذه الحالة. الأطباء المرافقون أعيتهم السبل في علاجه، وكل الأدوية التي أعطوها له لا تؤتي نفعًا.

خلال الفترة التي قضاها في علاجه توطدت العلاقة بين الرجلين، ما كان محمود يعرفه دائمًا عن روميل هو إخلاصه الشديد لهتلر، ولكن بكثرة الأحاديث بينهما استشف أن إيمانه به قد أضير بقسوة، خاصة

مع تبدد أحلام فتح مصر بعد هزيمته في معركة العلمين الثانية.

كان سكن محمود لا يحتوي إلا على أساسيات طلب الراحة ولكنها كانت تكفيه، كل ما يحتاجه هو الدفء وسقف يحدق إليه مذهولاً. في صباح أحد الأيام أخذته سيارة إلى خيمة في الصحراء عليها حراسة مشددة. خرج روميل من الخيمة فقاده إلى عربة نصف مجنزرة وقال له: ليست مريحة ولكنها تعرف طريقها جيدًا.

انطلقت العربة فقال روميل بعد أن وصلا إلى طريق صغير يحاذي الشاطئ: هذه طريقة فعالة لاستطلاع خطوط جيوشي.

صمت للحظات ثم قال وهو ينظر أمامه: والكلام بحرية.

استمرت السيارة في سيرها مثيرة الرمال وسحابات متقطعة من دخان عادم أسود، بينما محمود ينظر حوله متأملاً وينتظر من روميل بدء الكلام، على يمينه الصحراء وعلى يساره البحر، يتشاركان في هدوئهما وصخبهما، سكون مطبق وخواء مطلق في ساعات الهدوء. أما إذا غضبا فإن ثورتهما تعني الهلاك، كذلك هي ثورة الرجال المخلصين. قطع روميل الصمت بأن قال: هل تعلم ما هو أكثر شيء لا أطيقه في حياتي؟ عدم الكفاءة! لا شيء يمكن أن يخرجني عن شعوري أكثر من قائد غير كفء لا يؤدي عمله كما ينبغي.

ثم أضاف بلهجة ذات مغزى: الشيء نفسه في عالم الحيوان، فلا يستطيع قطيع الذئاب النجاة إذا كان الذئب القائد معدوم الكفاءة، أو أعماه إحساسه بأهميته.

سكت محمود ليتأكد، الذئب هو اللقب الذي يطلقه المحيطون بهتلر عليه، ولهذا فإن العديد من مقاره ارتبطت تسمياتها بالذئب.

ثم قال مواجهًا في صراحة: لقد قابلت الذئب قبل حضوري وهو يأمرك بالقتال حتى آخر جندي.

نظر إليه روميل مستطلعًا: ولماذا تقول لي هذا الكلام الآن؟

- كنت أتحين الوقت المناسب.

- أم لأنك لست مقتنعًا به؟

- إنما أنا مجرد رسول، ليس لي أن أقتنع أو لا.

كانت الشمس تسطع في أعينهما بقوة، من بين سحب شهر فبراير التي تناثرت في السماء كأنها مجسمة، عندما قال له روميل فجأة: لقد خسرنا هذه الحرب.

اقشعر بدنه من سماع ما كان يخشاه، وقال مصارعًا القدر: تقصد جبهة شمال إفريقيا؟

قال وهو ينظر إليه بعينيه الحادتين: بل الحرب كلها.

- هذا هو ما كان يحاول رودلف هيس الحيلولة دونه.

انتبه روميل لسيرة هيس فتساءل: هل هتلر هو من طلب منه الذهاب إلى إنجلترا؟

رد في وضوح لا يقبل اللبس: نعم.

هز روميل رأسه في أسف وقال: لقد كنت أكذب نفسي كي لا يسقط هتلر من نظري بغير رجعة.

ثم صاح في غضب وهو يشير أمامه ناحية مصر وقال: تستعر المعارك بيننا وبينهم ويقتل فيها الآلاف من خيرة الشباب، بينما هتلر يحاول عقد سلام معهم.

قال محمود مضيفًا المزيد من الوقود على النار: لم يكن سلامًا من أجل السلام وإنما من أجل التفرغ لمحاربة ستالين، بمعنى أننا لم نكن سننهي الحرب وإنما فقط ننقل محورها.

- يا للبؤس! وماذا ظن رودلف وهو يقوم برحلته المهلكة تلك؟ أي عاقل كان ليقول له إنها بالتأكيد فاشلة.

قال محمود متعلقًا بأمل يكذب به نفسه: لماذا تقول إننا خسرنا الحرب؟

- لأنني لست أول قائد تأتيه التعليمات بأن يقاتل حتى آخر جندي، لقد أصبح هذا الأمر هو الأكثر إصدارًا مؤخرًا، من سيبقى إذا قتلنا كل جنودنا في معارك خاسرة؟

ثم أضاف بثقة: أنا لا أتشارك هذه الأفكار إلا مع قلة مختارة بعناية، إذا أردت أن تخبر أحدًا في برلين بحديثنا هذا فافعل، أما إذا قررت أن تكتمه فلن يكون الأخير بيننا.

قالها وأمر السائق أن يستدير عائدًا إلى القاعدة، تاركًا الأسى يخيم على نفس محمود كسحابة سوداء تنذر بشتاء طويل.

في السادس من مارس شن روميل هجومه الأخير في إفريقيا. كانت المرة الأولى التي يجد فيها محمود نفسه على جبهة قتال. رأى الجرحى والقتلى العائدين من الخطوط الأمامية. منظر محزن لا تكفيه رثائية من ألف بيت. هذه الأعداد المهولة لا تبدو كخسائر جيش منتصر. انهمك في جراحات لا تنتهي. كانت الفترة الأخيرة التي قضاها منشغلاً بتثبيت مكانه حول هتلر قد أثرت على مستواه وبراعة يده، فخسر العديد من الجرحى، معظمهم بسبب فداحة إصاباتهم،

إلا الذين، يعلم يقينًا أنهما ماتا بسبب انحسار براعته وذهوله الذي يعلو تفكيره ويسبب رعشة في يده.

شعر بكآبة غارقة في الندم على هاتين الروحين، لو كان أحسن التعامل معهما لكانا قد نجيا، شابان في مقتبل العمر ما زال لديهما الكثير ليستمتعا به. وا حسرتاه على ضياع عمرهما على يد كهل محبط ومدمن.

أشار إلى الطبيب المساعد بأن يأخذ مكانه ثم خرج ليتمشى طلبًا للسكينة بعيدًا عن آهات المعذبين. قادته قدماه إلى شاطئ البحر، تأمل ضوء القمر المتلألئ على صفحة الماء كلوحة بديعة ملقاة في مكب النفايات. كيف يمكن للجمال أن يتسرب إلى الروح وسط كل هذه الدماء والأشلاء ووسط الخوف الكاسح من الغد، الخوف المبرر بألف سبب أولها ذلك المخبول في برلين؟

شعر بحنين جارف إلى كاثرين، تقلبات عارمة في نفسه، مشاعر لا يستطيع أحد سواها أن يتفهمها ويساعده على تخطيها. لا امرأة أخرى تصلح للحظة كهذه إلا هي، شعر بقيمتها أخيرًا بعد كل ما عاناه من تمدد الملل على عاطفته تجاهها، وكل ما عانته هي منه من فتور وقسوة دون ذنب منها.

اليوم يفتقدها بشدة، يتمنى ألا تكون شطحة حنان كاذب بسبب السطل الثقيل، يتمنى أن تكون عاطفة صادقة تجاه المرأة التي قرر يومًا أن يشاركها حياته. لقد كانت بداية معرفتهما أمام صفحة ماء مشابهة لتلك التي ينظر إليها الآن، يومها نثرت الشمس ملايين حبات الألماس، الآن يجود القمر بلألائه بينما هو يجلس في مكانه مشتاقًا إلى

حبيبته. تمنى لو ضمها إليه معتذرًا عن كل لحظة سبب لها فيها الألم. يحب إحساس أنه يفتقدها، ويتلذذ بالتفكير في مواطن حسنها التي اشتاق إليها، شعر بالإثارة فاستعجب من إحساس مماثل وسط هذه الويلات. تساءل كيف تجتمع بداخله تلك التناقضات إلى درجة المرض؟ بدا له أن الجنس غريزة مرتبطة بحب البقاء، كلما زاد الخطر شعر الإنسان بواجب تجاه التناسل، وغرز بذوره في الأرض، أم أنها المخدرات مرة أخرى تلهو بغرائزه بلا ضابط؟ لقد سيطرت عليه حتى نسي كيف كانت حاله دونها، مستنكرًا أحيانًا الحياة التي عاشها متنبهًا قبل أن يقع في غرامها.

أريد قضاء بقية عمري معك يا كاثرين، لقد عرفت خطأي، ولكن المسافة بيننا الآن كبيرة، والجفاء بين قلبينا أبعد لو قيس بالأميال. على كل فلا يوجد مستحيل، وأي شيء يمكن أن يجبر بالرغبة الصادقة في الإصلاح.

-٢٤-

في التاسع من مارس رحل مع روميل إلى برلين، في الطريق أوضح له أن الغـرض من هذه الرحلـة هو أن يشرح لهتلر لمـاذا وجب عليه الانسـحاب، ليس فقط من سـاحة قتال أو حتى مدينـة، بل من قارة كاملة.

أمضى محمود سفره متشجعًا بومضات من الأمل أن تكون كاثرين قـد عادت في أثناء غيابه، ولكـن عندما وصل كان انطباعه الأول أنها لم تعـد. لا يمكـن أن يكون هذا الصمت هو لمنـزل عامر بامرأة محبة. استقبله الخدم، ورأى ماتيلدا تنظر إليه بعينين متشككتين من مكانها، حيث جلسـت على الأرض تلهو. لم يعرها اهتمامًا وهو يسـتفسر عن أحوالها من مربيتها، إنها أمانة أودعتها أمها لديه، أي مشـاعر غير أداء الواجب لا مكان لها في علاقته بالطفلة زرقاء العينين. نظر حوله وهو يتجه إلى غرفته وشـعر بثقل في قلبه. كان المنزل باردًا وكئيبًا إلى أقصى درجة.

قضى ليلته يتردد على النافذة ناظرًا إلى منزل رالف المظلم، المنزل الملعون سبب ما هو فيه، لو كان رالف قد رضي منذ البداية بأن يبيعه قطعة من حديقته لربما كانت كاثرين الآن في حمام السباحة تنتظر وصوله. على الرغم من أنه شهر مارس والبرد لا يحتمل فإنه تخيلها تستلقي معرضة جسدها البض لأشعة شمس خيالية، ما له لا يكف عن الشعور تجاهها بإثارة خبت منذ زمن؟

في اليوم التالي ذهب لزيارة أديلينا، وجدها على حالها ترقص مع المجهول في متاهات عقلها الخاوي، نقص وزنها بشكل بشع فبدت كمومياء أسيء معاملتها قبل وبعد وفاتها. كال لها قاسي الكلام ولكنها لم تلتفت إليه.

ذكرها بابنتها وواجبها نحوها فلم تهتم، قرر في لحظة تشبث فيها بالمنطق أن يضع حدًّا لانتحارها البطيء؛ سيرسلها إلى مصحة علاجية هادئة على أطراف المدينة. حضرت سيارة إسعاف بها رجلان شديدان اقتاداها عنوة وهي تصرخ لاعنة محمود ومن أنجبوه.

تبع السيارة حتى وصل إلى المصحة، وانتظر حتى أدخلوا أديلينا التي كانت على الرغم من هزالها الواضح تقاوم بشراسة، حتى إنها خمشت وجه أحد الرجلين وعضت يده فأدمتها.

دخل بعدها إلى مدير المصحة وناقشه في سبل العلاج، ثم اختار لها الأقل حدة والأطول مدة، كان في الحقيقة يستفسر لمعرفة ما ينتظره إذا ما قرر الإقلاع هو الآخر. بدا كلام الرجل مبشرًا ولكنه مؤلم، لم يجد داعيًا لتعريض نفسه لهذه الآلام. ففي كل حال إن لم يقتله المخدر فستقتله الحرب. الأعداء لن تأخذهم بأحد شفقة. فليمُت هانئًا مذهولاً خير من أن تنتهي حياته وسط صراخ وعذاب.

لم يكن متحمسًا للحياة كثيرًا على أي حال بعد أن تداعى عالمه فوق رأسه، ومع تزايد المصائب وانكشاف الوضع أصبحت لا تستحق أن يبذل الجهد ويتحمل الألم لكي يقلع عن مخدره. خرج من المستشفى شاعرًا بوحدة مقيتة.

عندما عاد إلى المنزل الخالي وقضى ليلة جديدة كئيبة قرر الذهاب إلى كاثرين ليطلب منها الرجوع معه إلى المنزل، سيطلب الصفح وستصفح هي عنه.

هذا البعد من المرجح أن يثمر عن فترة طويلة من الهدوء، هذا إذا كان يتبقى في العمر ما يكفي. اتخذ قراره وانطلق بسيارته متجهًا إلى منزل عمة كاثرين في شوق.

أخبار الصباح في الراديو تتحدث عن تفوق عسكري ضخم في الشرق، جوبلز يقوم بدور بارع في تسكين الشعب بالأخبار السعيدة، يوهمهم بأنهم سيحتارون بخصوص المكان الذي يقضون فيه عيدهم المقبل؛ موسكو أم لندن؟ ربما واشنطن إذا كانوا محظوظين، ترهات لا تنتهي تُسكب على أسماع الناس بصفاقة. ترى كم من الوقت يمكنه أن يستمر في خداع العقول؟ كيف سيخدع الناس بينما قنابل الإنجليز تهوي فوق رؤوسهم والجنود السوفييت يتقدمون في شوارعهم؟

عندما وصل إلى منزل عمة كاثرين وجد نوافذه مفتوحة كما لو كان أصحابه بداخله، لا ينقصه إلا رائحة طعام من المطبخ وبعض الدخان الأبيض اللطيف من المدخنة، ليصير صورة مكتملة للسعادة. دق على الباب طويلاً دون مجيب، دار حول المنزل متفقدًا، اختلس نظرات حائرة عبر النوافذ، ولكن لف السكون المنزل الذي رفض الإفصاح عما بداخله.

سأل الجيران فأنكروا معرفتهم بمكان جارتهم، لاحظ خوفًا في أعينهم ولسانًا مكبلاً يرد بالقليل على أسئلته.

زاده الصمت إصرارًا، حتى جاء دور سيدة عجوز قالت له في تسليم: لقد ألقي القبض على كريستين وابنة أخيها منذ نحو أسبوعين.

رد في ذعر: بأي تهمة؟

- لم تفعل شيئًا يا بني ولكن أحد أجدادها هو من فعل، لقد كان يهوديًا، كريستين صديقتي وأعرف أن أصلها يهودي ولكن هذا لم...

قاطعها في حدة: لا أريد قصصًا، أين ذهبوا؟

ردت في لوم: كيف لي أن أعرف؟ لقد...

تجاهلها وهو يندفع إلى سيارته. قادها بأسرع ما يمكن حتى وصل إلى برلين وتوجه مباشرة إلى مكتب جوبلز الذي قال له: لقد ألقي القبض عليهما يوم الثاني والعشرين من فبراير، عمة كاثرين لها جذور يهودية كانت تخفيها بمهارة، ولكن تم اكتشاف الأمر والقبض عليها.

قال محمود في يأس: كاثرين لديها إعفاء من قرارات نورينبرج.

- لماذا لم تقل لي إن لها جدًا يهوديًا؟

قال محمود في رجاء: لقد ظننت أن الأمر معروف، فهناك مستندات رسمية تثبته.

ثم أضاف في حدة: هذه المرأة معفاة من القرارات فما الذي تغير؟

قال جوبلز في أسف: لقد سبقتنا الأحداث على نحو مؤسف، وهي الآن في طريقها إلى بولندا.

هوى قلبه من مكانه فصاح في ذعر كامل: أوشفيتز؟!

هز جوبلز رأسه في أسف وقال: لقد اتصلت برودلف هوس قائد المعتقل، وأنتظر منه ردًّا بين لحظة وأخرى.

ران صمت بارد بينما الذعر يتلاعب بأفكار محمود ويقذفها في دوامات من السيئ والأسوأ، بالتأكيد لا يملك كل معتقل رفاهية أن يصل وزير دعاية الرايخ الثالث بقائد المعتقل لبحث أمره، ولكن ما فائدة كل هذا إن كانت قد ماتت؟ روعته الفكرة فانتفض على أثرها متألمًا وعيناه تدمعان، أحضر له جوبلز كأس ويسكي شربها دفعة واحدة ثم قال في حيرة: ألم يشفع لها أنها زوجتي؟

قطع جرس التليفون جو الغرفة المشحون، كانت لحظة من أطول لحظات حياته، وصل جوبلز إلى التليفون ببطء. سأل محدثه بصرامة: ماذا لديك؟

صمت للحظات يستمع، ثم تمتم بكلمات غير واضحة وهو يضع السماعة ناظرًا إلى محمود نظرة مبهمة، ازداد بطء الزمن حتى وصل إلى مرحلة توقف شبه كاملة. توجس وكتم أنفاسه منتظرًا، حتى قلبه تجاوز بضع نبضات تحسبًا.

لقد ماتت كاثرين، لم تصل إلى المعتقل أبدًا، عندما أنزلوا المعتقلين من عربات القطار لم تكن هي وسط النازلين. ماتت داخل العربة مع الآخرين الذين لم يتحملوا برد الرحلة ومشقتها. تم دفنهم جميعًا في مقبرة جماعية ومن المستحيل أن يتعرفوا على جثمانها لتسليمه لمحمود.

كتب عليه ألا يراها أبدًا على قيد الحياة ليعتذر إليها، ألا يتسلم جثمانها ليدفنه بالشكل اللائق، ألا يعرف لها حتى قبرًا يزوره لعلها تصفح. الجسد المليء بالحياة قد خمد إلى الأبد. الثغر الرائع فارقته

الابتسامة النورانية الفريدة وحلت محلها ابتسامة الموت الحاوية العينان اللامعتان قد أغمضتا. الأصابع الرقيقة ذات اللمسة الدافئة قد انقبضت على كف تمسك بلا شيء. يا حسرة القلب على المرأة التي خفق لها بصدق.

أما العمة فما زالت على قيد الحياة وسيطلقون سراحها إكرامًا له لا يهم البتة!

بعد أن انزاحت غشاوة الخبر بدأ في الصياح لائمًا: ما فائدتكم إذًا يا سادة؟

نظر إليه جوبلز في استنكار بينما محمود يكمل: زوجة رجل مقرب من الفوهرر والسيد وزير دعايته، تُعامل كأي امرأة عادية، اكتشف ضابط ناصح فجأة أن جدها كان يهوديًا، يجب أن تخجلوا من أنفسكم.

صاح به جوبلز محذرًا: أتفهم ألمك ولكن اعقل ما تقول.

قال محمود وهو يهز رأسه في يأس: لا فائدة ترجى من معرفتكم.

ثم أكمل غير عابئ بنظرة جوبلز الحادة والألم يضرب جانب صدره الأيسر: احتملت منكم الكثير ثقةً ورهبةً وأملاً، قنعت بمعرفتكم دون أن أحظى بمنصب ولا أجر حتى أشعر أنا وزوجتي بالأمان في هذا الزمن المرعب، وها أنا الآن أقف في وسط الصحراء بعد أن خدعني السراب لكي أتقدم ناحية ما ظننته واحة خضراء، لقد ضللت بسببكم الطريق حتى أصبحت النجاة حلمًا.

لم يرد جوبلز، نظر إليه محمود في مقت والدموع تنهال من عينيه، لم يزد بكلمة أخرى، أراد أن يصرخ، يضرب الجدران ويحطم كل شيء،

بداخله مارد غاضب يريد الانتقـام، ولكنه لم يفعل أيًا من هذا. نظرة جوبلز إليه جعلت المارد الغاضب يتضاءل وينكمش، شعر بفزع يحل محل الغضب، لقد قال ما لا يجب وإذا لم يتراجع فسيدفع الثمن غاليًا، انهار باكيًا، كان بإمكانه التماسـك والبـكاء لاحقًا ولكنه أيقن بأنه قد تخطى حدوده تجاه سـادته، أراد اسـتدرار عطـف جوبلز فأجهش في بكاء حار تمـادى فيه. لم يعقب جوبلـز لبعض الوقت قبـل أن يقول بصوت بارد: القدر قد سبق يا محمود، تقبل تعازي الحارة.

لم تتـلاءم نبرة الصوت مع حرارة التعازي. هذا الرجل لن ينسـى ما قيل، ربما يضمر له شرًّا، فليدّعِ المسكنة بأقصى طاقته. ما الذي دفعه للبوح بما في صدره وماذا جنى من كلامه؟ لا شيء سـوى خوف على نفسـه تعاظم فصـار بحجم حزنه عـلى كاثرين، بل ربـما يفوقه. رفع محمـود إليـه عينين محمرتـين ومبتلتين فأضـاف جوبلـز: لم أكن حقًّا أعرف أنها يهودية.

رد في ضعف: لديها إعفاء.

نظـر إليـه جوبلـز دون أن يعقب، طـال الصمت، فشـعر محمود بحتمية إنهاء اللقاء، قام واقفًا وقال بلسان جاف كأرض لم تر الماء منذ قرون: اعذرني.

خـرج من عنـده وهو لا يقوى على السـير، رأى العـالم من حوله يرقص ساخرًا، سحابة في السماء تخرج له لسانها، من كنت تتأفف من وجودهـا قد زالت من على وجـه الأرض، فانعم بوحدتك كما تحب. صديقـك ذو النفوذ الذي بمعرفته ظننت أن لك أهمية لا يفعل شـيئًا لك. كم تتعلق بأوهام بالية لا تنفع! الآن يجب عليك أنت أن تخشـى من عواقب ما تفوهت به أمام جوبلز.

بدأت السحابة الساخرة في الإمطار، كأنها تقذفه برذاذ من فعل لسانها المستهزئ به وبكل ما ظن أنه قد أنجزه في حياته.

في الطريق بكى خلف مقود السيارة حتى غشيت الدموع عينيه، انتحب وصرخ وتشنج، فعل كل ما يفعله طفل صغير نظر حوله ولم يجد أمه فأصابه الرعب. لا يتخيل الحياة دون كاثرين، هذه المرة هو يعلم أنها لن تعود ثانية، دار في منزله كمن يطوف بعتبة مقدسة، يراها في كل ركن، هنا كانت لهما ضحكة وهنا قبلة، هنا غضبت منه لأنه أهملها وهنا تغنجت عليه حتى فار الدم في عروقه، ذهب إلى غرفة النوم وفتح دولاب ملابسها فغمرته رائحة اللافندر. استلقى على السرير يحاول شم رائحتها فلم يسعفه أنفه، شم رائحته هو فقط فنفر، لا يتذكر طعم السعادة، كان لها مذاق حلو ألفه جيدًا. مضى عليه وقت طويل لم يضحك من قلبه، لا يتذكر متى كانت آخر مرة.

تساءل في لوعة كيف هانت عليه كاثرين فتركها ترحل دون ذنب جنته؟ بكى كمدًا وغضبًا وذنبًا، قبل أن يهرب من آلامه بتناول حبتين منومتين ألقيتا به في غياهب نوم عميق أسود كالليل.

استيقظ على كابوس لا يتذكره ولكنه تركه في أسوأ حال، ولم يكن الأخير، تتابعت الكوابيس حتى استحال ليله جحيمًا، بمنوم أو بمخدر أو من دون، كله سواء. يرفض النوم أن يأتيه إلا بعد عناء مجهد، وعندما يأتي يكون زائرًا خفيفًا يصطحب معه الكوابيس كقرين غير مرغوب فيه.

مشتتًا بذقن طالت ذهب لزيارة أديلينا في المستشفى فوجدها تتعافى، انهار في البكاء ونبأها بما حدث. تشنج وارتعش فاحتضنته وبكيا معًا. كان هذا العناق هو أقرب شيء يمكنه الحصول عليه في

وفي اللحظة إلى عناق أمه الذي يشتاق إليه أكثر من أي شيء.

شفيت أديلينا من إدمانها للمهدئات، لم تصدق نفسها عندما رأت كم كبرت ماتيلدا، احتضنتها في شوق وأمطرتها بالقبلات كأنها تراها للمرة الأولى. الابنة من ناحيتها لم تتعرف على أمها وبكت وهي تحاول الفكاك من بين ذراعيها للوصول إلى مربيتها. عرض محمود عليها أن يأتي للإقامة معه لبعـض الوقت فمانعت ولكنـه أصر. كانت بالمنزل حجرات أكثـر مما يحتاجه، فخصص لها واحـدة بواجهة على الحديقة وغرفـة صغيرة. تتابعت الأيام تحمل مرارة فراق كاثرين، حتى غلب الشعور الحسرة فبقيت في القلب تعتم منه جزءًا لن يصفو ثانية أبدًا.

وفي يوم معتدل الطقس في صيف العام نفسه، كان المذيع في الراديو ينقل أخبارًا مختلقة عن تقدم القوات الألمانية في الشرق، فتأفف محمود وأغلق المذياع وهو يزفر في حنق مغمغمًا: أيها الكاذبون التعساء.

قالت أديلينا: هل تصدق هذا الهراء؟

قال مكاشفًا آخر ما بلغه من أخبار: لقد هُزمنا في كورسك وتقهقرنا إلى الحائط الشرقي وهو خط الدفاع الأخير لنا في الأراضي السوفيتية، إن ما نفعله هناك هو لمّ الشتات ومحاولة إيقاف أو على أقصى تقدير تعطيل السوفييت المنطلقين نحونا بعنف.

حملقـت إليه بوجـوم وقالت بصوت خافـت: إذًا هو الاحتضار، فليرحمنا اللـه.

- إن هي إلا مسـألة وقت قبل أن يخترقوا الحائط الشرقي، وعندها فلنصلِّ للـه ألا يقضوا هم العيد في برلين.

قالت بعد تفكير: يجب أن نفعل شيئًا.

لم يرد، فأشعلت سيجارة أعطته إياها ثم أشعلت لنفسها واحدة أخرى، وقالت قبل أن تصل إلى منتصفها: مصر.

- ما بها؟

- لنضعها في حسباننا إذا ما ساءت الأمور على نحو لا يمكن تداركه.

- نهرب من الإنجليز إلى أحضان الإنجليز؟ هذا جنون.

- بل نهرب من السوفييت إلى الإنجليز، على الأقل سيقومون بإعدامنا إذا ما كان هذا ضروريًا دون تعذيب وصراخ.

انشغل عقلها بفكرة ما ثم قالت بصوت خافت: ماذا سيحدث لو مات هتلر؟

قال في حنق: استمعي لصوتك وأنت تقولينها.

- دعك من صوتي فهذا ليس اختبار إذاعة، رُدّ على سؤالي.

قال بعد تفكير: ربما تأخر الوقت لهذا، فهؤلاء المندفعون متعطشون للانتقام، ولكن ربما، وأقول ربما يؤدي موته إلى إنقاذ الوضع.

قالت في حماس: رائع.

عاجلها في سخط: ولكن صحته بخير حال، لا يبدو أنه ملاقٍ الموت قريبًا.

قالت في رجاء وترغيب: ألا يوجد شخص عاقل حوله؟

- ليقنعه بأن يموت؟

- نعم، على نحو مباشر.

أخافته الفكرة ولكنها راقت له. شد ما أخافه أن تكون أديلينا

قصده هو بحديثها عن الشخص العاقل. مهما استجمع من شجاعته فلن تواتيه الجراءة للقيام بهذا الأمر.

في قلق وتحسر وخوف تابع أخبار هزيمة إيطاليا واستسلامها، ثم تابع وشهد بنفسه من بعدها القوات الألمانية وهي تنهزم وتتقهقر على جميع الجبهات. لقد خسروا هذه الحرب كما توقع الجميع بمن فيهم هو نفسه. لماذا لم يظهر المخلص بعد ليقتل هتلر وينقذ ما يمكن إنقاذه؟

-٢٥-

في ظلمة اليأس تتحول الحياة إلى تكرار ممل، كل يوم يتشابه مع ما سبقه مهما اختلفت أحداثه، مثل طعام انتزعت منه توابله التي تعطيه مذاقه المميز، بمثل هذا عاش محمود أيامه منزوعة السعادة والرضا. ولكن الشيء الوحيد الذي ظل يحافظ عليه كان علاقته بالكبار، العلاقة التي تحولت إلى ركام من الأحداث المؤسفة والمواقف المتمردة، فبجانب إفراطه في أسلوب حياته العابث كان يفرط في مديح وتملق الكبار، كما لو كان هذا آخر ما يبقيه بجوارهم. لقد تحول إلى مهرج يتحف جمهوره بما يحبون سماعه فلا يصرفونه من أمامهم بل يطلبون المزيد. انحدر درجات جديدة في طريق ضياع المبادئ والكرامة حتى كاد يلامس القاع.

قالت له أديلينا: تتملق هتلر في الصباح ثم تلعنه في المساء، إنه النفاق.

قال في عدم اكتراث: إنما هو توازن ناجح.

المستشفى يديره نائبه على أكمل وجه، وهو لا يرى ضيرًا في أن

يصبح شبحًا يعلم الجميع أنه معين في منصبه بسبب معارفه.

تداعت على رأسه ذكريات ملحة ذات مساء، فاتصل وهو في حالة سطل شديد بهملر في منزله، وقال له في جشع: أريدك أن تلقي القبض على فرانس وديريك بلاك وأريد أن أشهد عذابهما بنفسي.

قال له هملر محذرًا في عنف: ليست تصفية حساباتك القديمة من ضمن مهام عملي يا محمود، إياك أن تطلب مني شيئًا مماثلاً مرة أخرى.

ثم أغلقَ الخط دون كلمة أخرى، ها هو كبير آخر يتخلى عنه.

ساوره إلحاح لا يهدأ في تأديب الإخوة بلاك. تسلح بجرعة تقارب تلك التي كادت تقضي عليه من قبل. لقد أصبح معتادًا عليها فلم تعد تشكل عليه خطرًا، قضى الطريق إلى منزل صديقته القديمة، منشغلاً بشحذ كراهيته تجاه من تركا على وجهه علامة لا تمحى، اختلس نظرات من أنفه في مرآة السيارة فبدا له دميمًا بشكل لا يصدق.

تداعت عليه الذكريات فصدها الواحدة تلو الأخرى وهو ينتظر أن يلبي أحدهم نداء طرقه اللحوح على الباب، ماري الضعيفة، أخواها اللذان أهاناه، يوهان المثالي، كل من قابله يومًا في هذا الشطر من المدينة قرر أن يمر في خياله الآن. ترى هل ما زالت أم ماري على قيد الحياة؟ لا بد أنها قد ماتت منذ زمن، ولكن ما أدراه؟ هذا زمن يعمر فيه العجائز أكثر من الشباب. فتح الباب وأطلت منه خادمة طلب منها أن تنادي سيدها لأمر هامّ. جاء رجل أنيق في منتصف العمر على وجهه تساؤل. لم يتأكد لمحمود أيٌّ من الأخوين هو ولكنه لم ينتظر. لقد حانت الفرصة التي انتظرها طويلاً ولن يضيع الوقت في تساؤلات. أطاح بقبضته في وجهه فكسر نظارته ثم انهال عليه باللكمات حتى أوقعه أرضًا. قال له في كراهية: أتتذكرني أيها النكرة؟

دب الهرج في بهو المنزل وصرخت الخادمة بينما محمود لا يرى أمامه إلا ثأرًا مضت عليه سنوات طوال. كال للرجل الركلات في كل جسده وفي وجهه خاصة. إحدى ركلاته أصابت عين الرجل فصرخ صرخة مختلفة عن سابقاتها، كل هذا ومحمود يرصع لكماته وركلاته باللعن وبأسئلة لا ينتظر لها إجابات مثل: هل ظننت أنني نسيتك؟ أين أخوك المأفون ليلقى نصيبه هو الآخر؟ أكمل ضربه في انتقام خضبه الدم حتى أفقد الرجل النطق، وتركه هامدًا على الأرض لا يصدر عنه حتى أنين. نزلت من أعلى الدرج امرأة تصرخ في الملقى على الأرض بلوعة: جيرهارد!

وقف يلهث وهو يستجمع الاسم بينما المرأة تجري تجاه زوجها لتعاينه، قبل أن تنظر إلى محمود وتسبه متسائلة عن شخصيته.

-جيرهارد من؟ قال والشر لم يفارقه: أليس هذا منزل آل بلاك؟

قالت المرأة صارخة: هذا منزل جيرهارد إديلبرت، لقد ابتعناه من آل بلاك منذ سنوات، من أنت أيها المجرم؟

بدا وقع الاسم مألوفًا، دوت ضحكة ساخرة في عقله، ما هذا الذي يفعله، هل جن؟ لقد أفرغ انتقامه على شخص بريء، ليست أول مرة يفعلها، ولكن هذه المرة لم يكن للأمر داعٍ على الإطلاق. نظر حوله وشعر باختناق، لمح وجه الرجل الفاقد الوعي وقد اختفى خلف ستار أحمر. قال وهو يتراجع خارجًا: أنا آسف.

لم يشعر بأسف حقًا، ما شعر به كان أقرب إلى الإحراج المختلط بالسخف. مد الخطى ناحية سيارته وسط صرخات ولعنات لم يحاول تبينها. أسرع وهو يشعر بألم مضنٍ في قبضة يده.

لم تمر هذه الحادثة كسابقتها دون عواقب، استدعاه جوبلز وعنفه بشدة. لم يجد ما يقوله فصمت وهو يتلقى التوبيخ العارم.

قال له جوبلز بعد أن انتهى منه: أنت بحاجة إلى إجازة، ابتعد عن برلين واستعد بعض التحكم في نفسك.

لم يذهب إلى أي مكان، بقي في منزله مختفيًا في حجرته بصحبة لينيشيا ومخدراته، حتى أديلينا لم تره كثيرًا.

في منتصف شهر مايو عام ١٩٤٤ تلقى مكالمة من إروين روميل، كان عاكفًا وقتها على تقوية التحصينات الألمانية على ساحل أوروبا الغربي الذي سمي بالحائط الأطلسي، دعاه لزيارته فلبى الدعوة شاكرًا، على الأقل ما زال هناك من يهتم بصحبته.

في منزل روميل قابل رجلين تبدو عليهما أمارات الفخامة، هانس شبايدل رئيس أركان روميل، وصديق شخصي له يدعى ألكسندر فون فالكلهاوزن. دارت الجلسة حول آخر الأنباء، عرف فيها معلومات مدهشة عن تطورات المعارك، حتى قال له روميل من دون مواربة في لحظة الحقيقة: هل تؤيد اغتيال هتلر أم تنحيته؟

بهت محمود من السؤال فقال: لولا معرفتي بك لقلت إنك تنصب لي شركًا.

- لا توجد شراك هنا، هذا حديث بين رجال يحبون وطنهم.

لم يكن لدى محمود ما يخسره فقال لاعبًا بالنار: أؤيد تنحيته، قتله قد يشعل حربًا أهلية مثل ما يحدث في إيطاليا الآن.

برقت عينا روميل في ظفر ثم قال لصديقيه وهو يشير إلى محمود: هذا رجل يمكنكما الاعتماد عليه.

تساءل محمود: ماذا يحدث بالضبط؟

- في الجيش رجال أصبحوا لا يثقون في هتلر، ويرونه خطرًا يتزايد كل يوم، رجال نافذون في كل مكان وليس فقط من تراهم أمامك الآن، لكننا لا نزال غير متفقين على النقطة التي طرحتها عليك.

تنحنح محمود وقال: وماذا تنتظرون مني تحديدًا؟ أنا مجرد طبيب

قال شبايدل مصححًا: طبيب قريب من جوزيف جوبلز.

- تريدونني أن أقتل جوبلز؟

- فقط إذا استدعى الأمر.

أوضح له فون فالكلهاوزن: هل تعلم عواقب اكتشاف كلامنا هذا؟ قالها ثم أشار إلى رأسه بعلامة المسدس.

قال محمود وقد اتخذ قراره بعزم قُدّ من صلب: أتقبل العواقب صاغرًا.

رد فون فالكلهاوزن وهو يمد يده مصافحًا: انضمامك إلينا يشرفنا.

عندما عاد إلى منزله كانت أديلينا في انتظاره متحفزة للنقاش، لقد سمعت من صديقة لها أن الحلفاء يجهزون لهجوم مهول، قابل تحفزها برغبة في الاختلاء بنفسه لدراسة القرار الذي اتخذه اليوم. طلب منها الانتظار حتى الصباح لأن برأسه صداعًا عاصفًا. حاولت مرة أخرى فرفض بكل ما وسعه من لطف، رغم حبه الشديد لها يوقن بأنها لو كانت زوجته لخنقها بيديه.

ذهب إلى غرفته وتركها تقضم أظفارها توترًا، في انتظار صباح سيطول الوقت قبل أن تشرق شمسه عليها.

بدأت الأفكار تترتب حتى توصل إلى قراره، لقد اتخذ القرار الصحيح، سيكون هذا انتقامه لكاثرين، لرودلف ويوهان، لنفسه، لأهلينا وحتى لأمه وجدته ولكل ضحايا هتلر، هذا المجنون.

بعد هذه الجلسة بثلاثة أسابيع اجتاح الحلفاء نورماندي، واخترقت جحافلهم جنوب فرنسا تشق طريقها نحو قلب ألمانيا بقتال عنيف محتوم النهاية.

استمرت المقابلات مع روميل وتحولت إلى اجتماعات تضم شخصيات أخرى عدة، على وقع أقدام الحلفاء المتقدمين، وأنغام ألمانيا فوق الجميع التي يذيعها الراديو كلما لم يجد جوبلز كذبة جديدة يقولها للناس. كان الرجال يضعون خططهم لإنقاذ ما تبقى.

استمر الخلاف بينهم على نقطة قتل هتلر أم عزله فوضعت الخطة بسيناريوهين مختلفين، وفي أحد الاجتماعات في شهر يوليو ١٩٤٤ جاء روميل لهم قائلاً بفرحة عارمة: لقد تم اغتيال هتلر منذ قليل.

انزعج البعض وتحمست مجموعة بينما بالغ آخرون في ردة فعلهم، فقاموا يحتضنون بعضهم مهنئين.

تشعبت الحوارات حول الخطوة التالية، وانفض الجمع على فكرة فقدان المبادرة وعدم جدوى عمل شيء الآن. فلينتظروا في تمنٍّ حالم ما ستسفر عنه الساعات المقبلة ثم يحسبوا خطواتهم.

ولكن الراديو حمل إليهم الأخبار السيئة في المساء بصوت هتلر المتعب، يحمل همًّا وربما إصابات، وهو يطمئن شعبه أنه ما زال على قيد الحياة متممًا العهد.

بطبيعة الحال تم إلقاء القبض على المئات بعد هذا الفشل، وكان

مـن ضمن من ألقـي القبض عليهم رجـال من دائـرة روميل، قضى محمـود أيامًـا مرعبـة ينتظر أن يكسر أحدهـم بابه ليسـحبه خلفه إلى المعتقل، حيث يعذب حتى يكره اليوم الذي ولد فيه.

ثم وضع روميل قيد الإقامة الجبرية في منزله، عندها كان محمود يحتاج للمساعدة فحكى لأديلينا كل شيء. انتظر أن توبخه ولكنها احتضنته بقوة وقالت: أنا فخورة بك، ثم رسمت بإصبعها ثلاثة أهرامات وقالت: قبل فوات الأوان.

ها هو الهروب يطل مجددًا برأسـه من باب رغبته في تأمين نفسـه. تمهل قبل أن يسألها: هل ستأتين معي؟

ـ لا، سـأبقى، لا أحـد يريدني. معارضتي كانت خجولة وأشـك أنهـا وصلت إلى آذانهم، وعلى أي حال فهم إلى الـزوال قريبًا. ألم أقل لك من قبل إن هذا البلد خائف؟ والمعارضون هم أكثر الناس خوفًا.

تردد في قرار الهرب فمرت الأيام دون أن يلقى القبض عليه، يبدو أن مـن كانـوا يعترفون تحت وطأة التعذيب لم يـروا أنه من الأهمية أن يذكـروه للمحققين، ولكنه لا يملك ترف الحزن على نفسـه وتمنى لو كان أهم شـأنًا، بالعكس، راوده شـعور عظيـم بالراحة من قلق كان ينهش عقله كذئب عقور. الحمد لله على هامشيته.

مرت أشهر لا تتوقف فيها أخبار الهزائم والقصف على بقاع ألمانيا شتى، بينما الأعداء يطبقون على البلاد من كل جانب، حتى كان شهر فبرايـر ١٩٤٥ حين جاء هرمن جورنج إلى منزلـه على غير ميعاد. كانا لا يتقابـلان كثيرًا منذ أن فقـد محمود الرغبة في الاختلاط بالناس بعد مأسـاة كاثرين، وانشـغل جورنج بقيادة قواته في محاولات مسـتميتة

ألد الأعداء. استقبله مندهشًا وهو يظن أنه قد جاء للسؤال عنه، ولكن جورنج كان لديه سبب أهم فاشترى محمود ما جاء صديق الكيف ليبيعه له.

قال جورنج معترفًا: جوبلز هو من أعطى الأمر بالقبض على كاثرين.

انتفض جسده ولم ينطق بكلمة وهو يستمع لجورنج يكمل حديثه: الجميع يعلم بأمر الإعفاء الذي أصدره لها رودلف، جوبلز رأى أن الإعفاء لم يعد ملزمًا بعد خيانة من أصدره وهروبه.

توهجت الدنيا بلون أحمر قانٍ وهو يستمع لجورنج يقول: جوبلز هو من أمر بإرسالها إلى أوشفيتز، مع تأكيده على ألا تصل إلى هناك حية.

شعر محمود بالخبر كنصل بارد يخترق صدره، يوقظ مشاعر معذبة حاول دفنها قسرًا حتى يستطيع الاستمرار في الحياة. فقال لجورنج بصوت مستنكر: ولكن لماذا؟

ـ إنه يحتقرك والجميع يعلم هذا.

ثم أضاف مقلدًا جوبلز: مصري الأب يتزوج بيهودية، من الطبيعي أن يحن الملاعين إلى بعضهم.

ـ أهذه طريقته في رد الجميل الذي أسبغته عليه يومًا؟

قال جورنج ساخرًا: لا أظنك تتوقع أن يكون ذا أخلاق، إنه أنجس من خنزير حائض.

قال محمود وهو في ضياع كامل: ولماذا تخبرني بهذا الأمر؟

رد وعيناه تبرقان في جشع: لأنني أتمنى أن تثور نخوتك وتقتل تلك الحشرة المدعوة جوبلز.

نظـر محمود ناحيته في ذعر سرعان ما خبا وتحول إلى شـك قبل أن يقول: هل تحاول أن تحقق لنفسك نفعًا على حساب تعاستي؟

ثم أضاف في شراسة: أتظن نفسك أذكى مني؟

قال جورنج في استعلاء: يبدو لي أنك ممن يحبذون العيش في الأكاذيب.

ثم أضـاف وهو ينهض معلنـًا عن رحيله: لقد أملـت للحظة أن أجد فيك بعض الرجولة تحـت أثقال الجبن والتبعية التي ترزح تحتها لسـيدك جوبلز، ولكننـي كنت مخطئـًا. إذا أردت أن تتأكـد مما أقول يمكنك أن تسأله شخصيًّا، لا أظنه سيخفي عليك الأمر.

ثم أكمل ساخرًا: بالتأكيد لن يخشى بطشك.

انطبق فم محمـود، عاينه جورنج بنظرة أخيرة محتقرة قبل أن يقول خاتمًا زيارته: إن كنت لن تغضب لزوجتك فلمن ستغضب؟

كأنما جاء جورنج لكي يشعل الحطب تحت نيران حسرته ويزيدها توهجًا. عصر رأسه باحثًا عن لمحة من الذكاء يومض بها ركن مجهول في عقله، ركن لم تمسسـه هلاوس المخدرات بعد، ولكن بلا فائدة، في النهاية لم يخرج إلا بالقلق والشك.

-٢٦-

قضى الليلة كلها يتخيل طرقًا مختلفة لقتل جوبلز وهتلر في ضربة تتحاكى عنها الأجيال. محمود تيمور الرافض للوحشية والهمجية، أشجع رجل في ألمانيا، الرجل الذي أنقذ البشرية، كلام كثير كاذب عن معارضته لهتلر، خطوة كهذه كفيلة بأن تمسح كل خطايا ماضيه. عندما يرضى كتبة التاريخ عن شخص فإنهم يغفرون له زلاته كلها لأن كرمهم غير محدود. بهذا سينتقم لزوجته المغدورة ويحوز الشهرة والسيرة الأبدية العطرة، سينقش اسمه على جدار التاريخ، وسيكون غائرًا بما يكفي لئلا تطمسه أي نقوش أخرى في المستقبل، سيظل الناس يذكرونه بالخير ويترحمون عليه بعد رحيله بقرون.

قرر أنه لن يستطيع قتل هتلر، فليقتل جوبلز فقط، بالسم. هذه هي الطريقة المثلى، السم ليس أكثر جبنًا من أي وسيلة قتل أخرى ولكنه أسلوب ذكي، هكذا أراح نفسه التي قررت لسبب غامض أن تمارس عليه دورًا تربويًا نادرًا، فأوعزت إليه بأنه إذا نجح فسيدخل التاريخ.

فهل يريد للتاريخ أن يذكره كقاتل بالسـم؟ صرف هذه الأفكار وقال لنفسـه بشـمم وهو أدرى الناس بكذبه: إنني لا أفعلها للتاريخ وإنما انتقامًـا لكاثرين، وكاثرين لن يفـرق معها كثيرًا طريقة القتل ما دمت قد أخذت بثأرها.

لم تكن أديلينا في المنزل فخلا عليه هو وشيطانه، وبينما هو غارق في أفكاره دق جرس الباب، فتحه ليفاجأ بجوبلز، ها هو عدوه يقف مبتسمًا على عتبة بابه، وحيدًا دون حرس، كأنه بريء منزه عن الخطأ. يبدو على وجهه اشتياق للنوم وراحة البال. كانت فرصة مثالية للانتقام جاءت دون استعداد كافٍ.

بادره جوبلز: تبدو مندهشًا لرؤيتي.

رد محمـود في ارتبـاك: لسـت معتـادًا عـلى أن تـزورني، تفضـل بالدخول.

قال جوبلز وهو يزيح كوفيته ويتلفت حوله: هل هناك أحد في المنزل؟

ازداد توتر محمود وأجاب: لا، فقط ليتيشـيا. قالها وهو يربت على رأس الكلبة.

- والخدم؟

- اليوم إجازتهم. أجابه وهو عاجز عن فهم سر تلك الأسئلة.

هز جوبلز رأسه وقال بارتياح: هذا حسن.

ثم قال وهو ينظر إلى ليتيشيا التي عاينته بعينين نبيهتين: لقد كبرت وصارت كلبة جميلة.

ابتسم محمود دون أن يرد ودعاه للجلوس، فاختار كل منهما مقعدًا في مواجهـة الآخر. عم صمت غير مريح قبل أن يباغته جوبلز قائلاً:

هل تريد أن تقول لي شيئًا؟

أجاب بقلب جزع: لا شيء معينًا، لماذا تسأل؟

هز رأسه وأطرق بها في الأرض قبل أن يرفعها قائلاً ببطء: الفوهرر هو قائدنا ووجوده ضمانة لعظمة هذا البلد وتقدمه.

بلغ توتر محمود منتهاه. قال لجوبلز بكل ما أوتي من قدرة على ضبط نفسه: هذا شيء بديهي.

نظر إلى عينيه مباشرة وقال: لماذا إذًا تآمرت لاغتياله؟

الرعب الكامل المتجسد بلا مواربة، الدنيا تتمادى وترقص رقصة مجنونة، تحول إلى خبير في معرفة قدوم الخوف، حوّل الرعب فمه إلى قطعة حجر. قال بمشقة: أنا، لا أدري.

أوقفه جوبلز بإشارة من يده وقال: لا تحاول الإنكار فأنا أعرف كل شيء، أعرف المشتركين مثل روميل وشبايدل وفون فالكلهاوزن، أعرف الجميع. يمكنني أن أقص عليك ثرثراتكم الشيطانية في اجتماعاتكم إذا أردت.

أسقط في يد محمود، قال وهو يشعر أنه يجلس أمام جوبلز عاريًا: لم يكن في نيتي أن أقتله.

قال بصرامة: أعلم أنك تتبع معسكر الراغبين في عزل الفوهرر، ولكن من يقطع هذا الشوط الطويل هو شخص لا يمانع في القتل. فمن كنت على استعداد لأن تقتل يا ترى؟ أنا مثلاً؟

كان محمود قد وصل إلى سقف الرعب فلم يعد بإمكانه الذهاب أبعد من هذا، تعلق بحبال الجبن كأنها المنجية فقال في ذعر: بالطبع لا، كيف تقول هذا؟

قال جوبلز مستكشفًا باطنه: كيف أثق بك بعد الآن؟

ابتلع ريقه في صمت، كم يكره ضعفه واستسلامه، كم يمقت تمسكه بالحياة بهذه الطريقة الفاقدة للعزم.

صمت جوبلز مستمتعًا بلحظات يأس محمود ثم قال: هل تعلم معنى أن أقربك مني على هذا النحو؟ أنت المصري الأب، هل تعرف كم الألسنة التي كان عليّ إخراسها لانتقادها تفضيلي لك؟ لقد كانت ثقتي فيك بلا حدود، قلت لنفسي إن شخصًا لا أعرفه دافع عني في معركة غير متكافئة هو بالتأكيد شخص يمكنني أن أثق به، ثم أكتشف أنك قد تغاضيت عما نؤمن به عندما تزوجت بامرأة ذات أصول يهودية، والأدهى أنك خبأت الأمر عني وتركتني أنعم في جهلي حتى علمته بالصدفة.

نظر محمود إليه كالتائه بينما بدأت ليتيشيا تتوتر وجوبلز يكمل كأنه يلقي خطبة: بعد كل ما فعلته لك تضعني في موقف يجعل الجميع يشمت فيّ ويقول بلسانه أو بعينيه: ألم نقل لك منذ البداية ألا تعتمد على هذا الرجل؟

ثم عاينه بنظره وهو يقول: جعلت الناس يظنون أنني لا أستطيع الحكم على الأشخاص، بل وأتخذ قرارات ربما تمس سلامة الفوهرر.

ثم أضاف بعد صمت ثقيل: هل تعلم لماذا أنت حر من الأساس؟

لم يجد محمود في نفسه الطاقة التي تسمح له بإبداء الرأي فسكت.

فأكمل جوبلز: لأن في عنقي دينًا لك، بعدم القبض عليك حتى الآن أكون قد رددت إليك دينك ويزيد، ولكن أمامك ست ساعات

لهذه اللحظة قبل أن أطلق وراءك فرق التتبع، أعطيك هذه المدة فاستفد منها.

أضاف وعيناه تلتمعان: أريدها أن تكون أسوأ ست ساعات في حياتك، أريد أن يصيبك الرعب الذي لم تر له مثيلاً. فتجلس في منزلك منتظرًا قدرك في عجز مقزز، أو تهرب وتعيش في تعاسة المطارد حتى نوقع بك.

ثم وجّه سبابته نحوه مؤكدًا: وسنوقع بك.

وأضاف كمن يلقي حجرًا في ماء راكد: أو أن تأخذ أسهل الطرق وتقتل نفسك.

نظر إلى محمود في تلذذ بينما الصمت يطبق على تجمعهما غير السعيد، تعجب محمود من قدرته على قلب الطاولة عليه بهذه الطريقة. هو من له كل الحق في أن يقتله يقف أمامه مرتعدًا. كيف سمح لنفسه بالانزلاق في هذا المنحدر؟ وعلى ماذا يخشى؟ كيف سينظر إلى نفسه في المرآة بعد أن وقف أمام قاتل كاثرين يرتجف خوفًا والأخير يستمتع بإخافته؟ بل أين سيجد مرآة تقبل أن تعكس صورة شخص جبان مثله؟

بدأت عيناه تدمعان من فرط الغضب من نفسه والحنق عليها. غضب مكتوم عاجز خرج عن السيطرة وبدأ بالظهور على وجهه ثم على لسانه، فانحلت عقدته فجأة وقال لجوبلز في مقت وهو يشير بإصبعين اثنين في وجهه: بل في رقبتك دينان لي وليس دينًا واحدًا.

تعجب جوبلز ومحمود يكمل: لولاي ما كنت قد وصلت إلى أيٍّ من هذا. أنا من عرفتك على هتلر وأنا من أوصلتك إلى تلك الأبهة

التـي ترفل فيها اليوم، ألا تتذكر مظهرك أول مرة تقابلنا؟ هلا نظرت في المرآة الآن وشكرت صاحب النعم عليك؟

قال جوبلز مندهشًا: يبدو أنك قد أكثرت من المخدر اليوم.

قـال محمود في مقـت: بالفعـل، وأكثر منـه كل يوم لكـي أتحمل صلفك وتعاليك.

قال جوبلز مدافعًا للمرة الأولى: إنما وصلت إلى مكانتي هذه بسبب نبوغي، ولا فضل لأحد عليّ إلا الفوهرر.

قال محمود مهاجمًا في شراسـة: أريـدك أن تتذكر وقوفك على بابي تستجدي عطفي قبل أن تقول هذه الترهات عن نبوغك.

قال جوبلز في غضب: لقد تماديت كثيرًا، وإن لم تنتهِ فسوف...

ولكن محمود قاطعه بصوت غاضب: وكاثرين يا جوزيف!

تراجع جوبلز متسـائلاً، فأكمل محمـود بينما دمعة متعجلة تفر من عينـه: تلك التي أمرت بقتلها لمجـرد أن تنكل بي، حبي الوحيد الذي قتلتـه وظللت تبتسـم في وجهي كأن شـيئًا لم يحدث. تسـمعني الآن درسًا في الوفاء؟ من فينا خان الآخر ومن منا المذنب الحقيقي؟

تطلع إليه جوبلز مشـدوهًا بينما محمود يخرج كل المقت في داخله: لقد كنت السبب في عذاب الكثير من الناس، تأكد أن شياطين جهنم حتى ستأنف منك، أنت وفوهررك عار علينا، لقد أخذتما ألمانيا معكما إلى الحضيض، ولا تزالان تكابران بينما الأعداء يتوغلون في أراضينا، حتى سـينتهي بكما الأمر مسـحوقين في المنتصف، هنا في قلب برلين. قالهـا وهو يطبق قبضة مضمومة بكف مفتوحة فتصدران صوتًا عاليًا

شـق فضاء بهو المنزل الممتلئ بكلمات المصارحة السوداء، وجعل أذنا ليتيشيا تنتصبان في انتباه.

ابتلع ريقـه قبل أن يختم كلامه قائلاً: اسـمع مني هذا الأمر، لأنه سيجعلني آخر شخص يمر برأسك الفارغ في اللحظات الأخيرة من حياتك التي ستحين نهايتها قريبًا.

قال في مقت لو كان نارًا لحولت جوبلز إلى رماد: أنصاف الرجال مثلك تنتهي بهم الحال بأن يسلكوا طريق الجبناء بالهروب أو بالانتحار.

نظـر جوبلز إليه مصدومًا وفي عينيه اسـتنكار مـن تفتحت أمامه طاقات المسـتقبل فأبصر مصيره، وقف في قوة وتقـدم منه صائحًا في هياج: سأؤدبك أيها الوقح.

اقتربا من بعضهما وعلى وجهيهما علامات مقت لا حدود له. رفع جوبلز يـده مهددًا فكأنما كانت هذه إشـارة الانطلاق لليتيشـيا التي قفزت لحماية سيدها، فأطبقت على معصم جوبلز مزمجرة في عنف.

صرخ جوبلـز وفوجئ محمود. لم يعطها أمـرًا بالتراجع، لقد فات الأوان. جعلـت تشـد جوبلز إلى أسـفل حتى كاد يفقـد اتزانه وهي تحرك رأسـها يمينًا ويسـارًا في قوة، بينما زمجرتها تقارب الزئير وأنيابها تشـق لحم ذراعه وتُسـيل دماءه. حاول التملـص منها دون جدوى، أكمل صراخه وهو يخرج مسدسه ويطلق عليها رصاصة دوى صوتها فعوت ليتيشـيا وسـقطت على الأرض متلويـة في ألم، أطلق رصاصة ثانية ثم ثالثة وهو يجز على أسنانه. صرخ محمود في جنون وهو ينقض عليه، أطاح به أرضًا بسهولة وكال له بضع لكمات قوية حاول جوبلز اتقاءهـا دون جـدوى، أصابـه منها ما أسـكت صراخـه ومقاومته،

اصطدم رأسـه بالأرض ففقد الوعي وقد سـال الدم مـن أنفه. عاينه محمـود بعينين تطقان بالشرر. فجأة انزاحـت كل الرهبة التي كنها له لسنوات، رآه تافهًا تمامًا، نظر في أسى إلى ليتيشيا الوفية المستلقية فوق بقعـة كبيرة من دمائها تتسـع من تحتها فتخضب السـجاد، وبجانبها جوزيـف جوبلـز يبدو كالموتـى، صدمه الخوف في لحظـة كقاطرة لا ترحـم. لم يخطط لهذه المواجهة ولم يكن مسـتعدًّا لها ولكن حكم عليه أن يخوضها، وها هي الأعصاب قد أفلتت وأخرجت ما في الصدور. كان أول ما قاله بعد أن خفتت آثار الصدمة: لقد انتهيت!

-٢٧-

تهاوى كالجماد مستجمعًا أنفاسه، وبعد دقائق ذهبت السكرة، ماذا فعلت بنفسك يا مجنون؟ ما فائدة صبر السنين إذا كنت تنوي أن تفسد كل شيء في لحظة؟ فكر في خنق جوبلز ولكنه جبن، ارتعب من فكرة قتله، هو الذي كان يخطط لهذا الأمر ويسعى له. الآن لا يفكر إلا في الهروب. إنه خائف ولا يجد في نفسه العزم، يبحث عن بعض الجلد في طيات قلبه الذي يخفق في عنف فيرتد بحثه خائبًا، سيطلق جوبلز خلفه زبانية الجحيم للبحث عنه، ستكون مطاردة مخيفة.

محرومًا من نعمة الوقت كانت أديلينا أول من فكر فيه. لا يعلم متى ستعود من الخارج ولا يملك ترف انتظارها، كتب لها ملاحظة، مجرد كلمتين بخط كبير: لقد هربت، سأراكِ ثانية يومًا ما.

في مكتبه أزاح لوحة زيتية أصلية لكلود مونيه أهداها له جورنج من غنائم فتح باريس، فكشفت عن خزينة من الصلب تستقر في تجويف في الحائط، وأخذ منها ما يكفيه من الأموال لرحلة طويلة.

فتح علبته الخشبية فوجد ثلاث جرعات من الخلطة العجيبة، لن يكفيه هذا المحتوى البسيط إلا ليومين، وضع مؤنة أسبوعين من المورفين وهو يعلم أنه منذ هذه اللحظة سيتغير كل شيء، ولن يعود أبدًا إلى ما كان. ود لو دفن ليتيشيا في البقعة التي تخبئ فيها حاجياتها ولكنه لا يملك الوقت. ستعود أديلينا لتجد جثة ليتيشيا بجانب جوبلز فأي حيرة تلك التي ستشعر بها، أو سيكون جوبلز قد رحل ولكن ستظل حيرة أديلينا كما هي. ألقى نظرة شاملة متحسرة على الفيلا، عالمه الذي يخرج منه كآدم عندما طرد من الجنة. لم ير نعيمًا ثانيًا قط إلا فيما ندر، ستهتز الحياة منذ اللحظة التي يغلق فيها الباب خلفه، ولن تستقر مرة أخرى إلا بمعجزة. هل انتهى زمن المعجزات أم أن هناك أملاً في واحدة أخيرة شاردة تصيبه بعنايتها؟

خرج من الباب الخلفي ثم اختفى في غياهب المدينة، مرارة في الحلق لا توصف، رِجلان ترفضان الانصياع لأمره حتى كادتا تتمردان عائدتين أدراجهما. لا يقوى على رفع عينيه والنظر حوله، كأنه يحتضر ويتأهب لترك الدنيا متنقلاً إلى الآخرة بكل ما بها من مجهول. لا بد أن هذا هو شعور المقبل على الموت، الرهبة نفسه، الممانعة المستميتة عن الرحيل نفسها، رفض المجهول خوفًا وشفقة، حياة كاملة تمضي أمام عينيه، يستلذها ويتحسر عليها بعثراتها قبل لحظاتها السعيدة.

استراح في حديقة عامة ينظر في خريطة لأوروبا محاولاً العثور على طريق الهروب. لا بد أن هناك أحداثًا كبيرة تدور في منزله الآن، بالتأكيد سيلقون القبض على أديلينا! آسف يا عزيزتي، عذري أنني أعلم بأنهم لن يبقوك عندهم طويلاً، إنهم موقنون بأنه لا أحد يمكن أن يدفعني للعودة، ولا حتى أنت. إن كان هذا يصلح كعذر من

الأساس فإنني أتمنى أن تقبليه، ولك فوقه كل الحب والمودة الخالصة.

ترفض الدروب في الخريطة أن تنجلي، لا يعرف أي الطرق يسلك؛ أيذهب شمالاً أم جنوبًا؟ الدنمارك أم إسبانيا، هل الحل هو الهروب إلى أمريكا الجنوبية، قارة كاملة لن يعثروا عليه فيها أبدًا. شعر بصداع قاسي فاستلقى فوق الدكة الخشبية وأغمض عينيه. عشر دقائق ثم قام متنفضًا وفي ذهنه فكرة، سيذهب إلى سويسرا ومنها إلى مصر بصفته مواطنًا سويسريًّا من الجزء الناطق بالألمانية.

قام مادًّا الخطى وقد تملكه أمل باهت ما زال يحبو مستكشفًا، في محطة القطار أقلقه وجود القوات على البوابات. لا يحتاج إلى خيال واسع لكي يتخيل أن أعداد العسكريين في الداخل أكثر من المدنيين. طوابير من القطارات الذاهبة بالجنود إلى الجحيم وأخرى عائدة ببقاياهم. هناك حراسة مشددة لا يعلم إن كانت من أجله هو أم أن هذا هو الطبيعي هذه الأيام.

ركب سيارة أجرة إلى الضاحية الجنوبية من برلين، ومنها سيارة أخرى قطع بها جزءًا آخر من المدينة، وهكذا حتى وصل إلى درسدن، من هناك سيركب القطار، هذه حياة الهاربين. ما أصعب الإحساس بعدم الأمان وما أقسى الخوف من كل من حوله. لا يعلم من أين قد يأتيه الخطر وهو يتفحص الوجوه من طرف خفي مستترًا عن الأعين. في درسدن شعر أن الحراسة أكثر تساهلاً من برلين. مر أمام الحراس المشغولين بالحديث والتدخين دون أن يلاحظوه، فارتاح قلبه وتسلح ببعض العزم.

قفز في قطار متجه إلى نورينبرج في رحلة طويلة، تذكر رودلف، لو كان موجودًا ما قدر عليه جوبلز، ولكانت كاثرين لا تزال على

قيد الحياة، كم يفتقده ويشفق عليه. لم تلبث ذكرى رودلف في ذهنه سوى لحظات ثم تبخرت. إنه بحاجة إلى التفكير في نفسه، تعصف به الأماني والأحلام الممزوجة بخوف لا يتزحزح. استقل قطارًا آخر من نورينبرج إلى ميونخ وفي الطريق توقف في بلدة صغيرة.

لمح ضابطًا وجنديين يصعدون القطار. اختاروا العربة التي تسبق عربته لكي يتفقدوا المسافرين. انخلع قلبه رعبًا وهو يختلس النظر إليهم، كانوا قادمين ناحيته، لقد ترك أوراقه الشخصية في المنزل، ظن أن وجودها معه أخطر عليه من عدمه، ولكنه الآن أصبح لا يملك أوراق ثبوتية.

مشى إلى آخر العربة ليبتعد عن الجنود المتقدمين محاولاً عدم إثارة الريبة. مر بعربة ثم الثانية ظنًّا منه أنهم سيكتفون ببعض التفتيش ثم يرحلون ولكنهم أصروا على إتقان عملهم، لم يعرف أين يذهب، فكر في النزول من القطار ولكنه خشي إثارة الشك. لم يجد بدًّا من الاختباء في الحمام. كان لحسن حظه خاليًا فدخل مسرعًا وقبل أن يغلق الباب اعترضته يد قوية، أصابه الهلع وهو يتخيل سيناريوهات حالكة، دفع صاحب اليد الباب بقوة فكاد يصدم وجهه، ترك أمره للمحسوم وانتظر مصيره في قلة حيلة، لدهشته ظهر رجل أنيق يقاربه في العمر. أغلق الباب خلفه مسرعًا وهو يشير إليه بعلامة الصمت. ألجم الرعب لسانه فلم يكن بحاجة إلى هذه الإشارة.

قال له الرجل بصوت خافت: دعني أتصرف.

أشار إليه أن يختبئ خلف الباب ثم أنزل بنطاله ووقف بثيابه الداخلية، نظر إليه محمود متعجبًا حتى أخرجته محاولة مباغتة لفتح الباب المغلق من عجبه. أعقبتها محاولة ثانية تلاها دق خشن على

الباب صاحبه صوت ذو سلطة يأمر من بالداخل بأن يفتح فورًا، فتح الرجل الباب حتى نصفه، رسـم على وجهه ملامح خوف وهو يقول الضابط: أنا أقضي حاجتي.

طلب الضابط منه أوراقه، مد الرجل يدًا متسرعة تتخبط إلى جيب سترته فأخرج هويته للضابط الذي وقف يتفحصها متشـككًا. كان يلعب دور القلق بإتقان لدرجة لا يمكن الشك فيها.

نهره الضابط بعد أن ضاق به: ارفع بنطالك أيها المهزأ.

قال الرجل بقلق وهو يرفع بنطاله كما أمره الضابط: أعتذر يا سيدي من هذا الموقف المحرج.

رأى محمـود من مخبئه الأوراق تطير عائدة إلى صاحبها، والضابط يقول بقرف: أكمل ما بدأت.

بعد أن أحكم غلق الباب استند عليه وزفر زفرة طويلة، قبل أن ينظر إلى محمود بتمعن ثم يخرج علبة سجائر يشعل منها واحدة وينفث دخانها في هدوء، داعيًا محمود إلى أخرى.

أطلق القطار صفارته المثيرة للشجون إيذانًا بمعاودة التحرك بينما همـا يدخنان في صمت، قبل أن يسـأله الرجل بين ضجيج المحركات التي دبت فيها الحياة ثانية: هل أنت يهودي؟

هز محمود رأسه بقوة نافيًا الأمر عن نفسه كأنه تهمة وصمت.

سأله متفحصًا: من ماذا تهرب إذًا؟

ـ هناك ألف سبب يدعو للهروب هذه الأيام.

هز رأسه متفهمًا وقال وهو يقذف بالسيجارة في المرحاض: عندما

نصل إلى ميونخ انتظرني بجانب ساعة المحطة، سأمر من أمامك فاترك مسافة بيننا ثم اتبعني.

في محطة ميونخ عاوده الإحساس بالخوف، الجنود في كل مكان، بعضهم لا يتعدون السادسة عشرة من العمر، تبدو الرهبة في عيونهم الغضة. لقد قضى هتلر على الرجال واستدار الآن إلى صغار السن، مَن بعدهم؟ النساء والأطفال؟

وقف مكانه متصنعًا البراءة حتى مر منقذه من أمامه دون أن يلتفت إليه، تبعه كأنه أمه. ائتمنه على نفسه تمامًا، لا يملك سوى أن يتبع هذا الرجل الذي ساقه إليه القدر. هو صديقه الوحيد الآن على الرغم من أنه لا يعرف حتى اسمه.

تبعه إلى شارع صغير تملأه أشجار تعرت من أوراقها. كان الرجل يمشي بخفة بينما محمود يحرك الخوف خطواته فتقارب الهرولة. تقدم الرجل من سيارة صغيرة وفتح بابها وهو يدعوه للصعود ثم انطلق بها.

نظر محمود من نافذة السيارة الخلفية في قلق فقال له الرجل مبتسمًا: لا خوف عليك الآن.

ـ أنا ممتن لك.

ـ لاحظت قلقك عندما صعد الجنود إلى القطار، كأنك تهرب من الشيطان، كان لا بد أن أساعدك في محنتك.

ثم مد يده إليه مصافحًا وقال: ولفريد فانس، رجل أعمال من ميونخ.

تردد محمود قليلاً قبل أن يعرف نفسه للرجل الذي بادره سائلاً: من أين أنت؟

قال محتجًا: أنا ألماني.

نظر إليه الرجل مدققًا فقال في تسليم: والدي مصري.

- أمن هذا تهرب؟

قال في تأمل: ليس هذه المرة.

- بدا عليك أنك تنفي تهمة عندما سألتك إن كنت يهوديًا.

رد محمود بحرص: الإجابات الخاطئة وخيمة العواقب هذه الأيام.

ابتسم ولفريد وقال وهو ينظر إلى الطريق أمامه: لا توجد إجابات خاطئة معي.

قال محمود والقلق لا يزال يمرح في نفسه: إلى أين نتجه؟

- إلى منزل آمن حيث يمكننا أن نأكل ونتحدث.

شعور بالرهبة من الآتي خالط القلق حتى أصبح فصلهما مستحيلاً. لا يستسيغ أن يفقد التحكم في حياته إلى هذه الدرجة، يترك نفسه في أيدي الناس بينما هو لا يملك من أمره شيئًا، هذه ليست مجرد صفحة من حياته تطوى، ولا حتى فصل، إنه كتاب يغلق، ويفتح بدلاً منه كتاب جديد عنوانه الهروب ومحتواه مجهول. مرا على مقر رسمي تزينه أعلام النازية فانقبض قلبه، تذكر يوم رآه أول مرة وأعجبه، ما أكبر الفارق بين البارحة واليوم، فارق يحتاج إلى أدوات قياس جديدة لم يصل إليها العلم بعد. غرق في الصمت واليأس وتجهم الأمل كعدو لن يصفو له أبدًا.

-٢٨-

كان المنزل في ضاحية مقفرة، شقة صغيرة في بناية مهجورة درجها تكسوه أتربة، انطبعت عليها في خجل آثار خطوات بسيطة.

قال ولفريد وهو يخلع معطفه: يمكنك أن تستحم بينما أجهز الطعام، ليس لدي ماء ساخن فسامحني. كما أننا لا يمكن أن نضيء الأنوار، هذه شمعة لتستخدمها.

أنهكـت برودة الماء أوصاله المتعبة ولكنها أنعشـته وجعلته أفضل حالاً، أكل كالمحرومين وأشـار إلى ما يأكله قائلا: هذا الحسـاء لذيذ، ما اسمه؟

- ماتزوه.

لم يعلـق حتى أنهـى طبقه ثـم وضعه جانبًـا، بينما ولفريـد يتأمله مبتسمًا. بدأ يضع له الطعام فسأله محمود بصراحة: هل أنت يهودي؟

- نعم.

صمت محمود وهو ينكب على طعامه، لم يؤذِه يهودي في حياته، ولكن سنوات من الدعاية المضادة تجعل الارتياح لليهود صعبًا.

- كيف أفلت منهم طوال السنوات الماضية؟

قال ولفريد راويًا: الاسم الذي أحمله الآن هو اسم مخدومي السابق، كان رجلاً نبيلاً مخلصًا لإنسانيته. مرض فجأة مرضًا شديدًا تمكن منه قبل أن يدركه الأطباء، وبينما هو يحتضر عرض عليّ أن يعيرني شخصيته ليساعدني على استكمال حياتي، ولكن في مدينة أخرى لا يعرفه أو يعرفني فيها أحد.

التهم ملعقة كبيرة من طبقه ثم أكمل وهو ما زال يمضغ محتواها: رأى السيد ولفريد أيضًا أنه بهذه الطريقة سيظل حيًّا، يا حبذا لو تزوجت وأنجبت وأنا أحمل اسمه، كانت هذه طريقته في غش الموت، كما قال وهو يبتسم بصعوبة ووجهه الذي أصابه هزال المرض من بعد صحة يرتعش من الألم. كنا في سن متقاربة وهناك شبهًا طفيفًا بيننا سهل الأمر عليّ.

تفحص محمود الشقة المتواضعة ثم قال: هذا مخبأك؟

- وجدت أنه من واجبي بذل الوفاء للمضطهدين، كل من ساعدتهم حتى الآن يهود، ولكن يبدو أن السكوت لم يعد ينفع أحدًا. فها قد بدأ مصاصو الدماء مطاردة الجميع. هذا خير درس على أن السكوت على الظلم لا يفيد بل يجعل الظالمين يتمادون.

قال محمود وهو يحاول ألا يثير الرجل: الناس كانوا خائفين يا ولفريد، لا تتوقع منهم أن يناضلوا إذا كانوا يعلمون أن حياتهم لا تساوي أكثر من ثمن رصاصة واحدة.

قال ولفريد في أسف: كان الحماس أكبر من الخوف، لقد صدقوا الدعاية بأن اليهود هم سبب كل بلاء وأن التخلص منهم هو الحل عدد مهول قضوا نحبهم وما زال العدد في ازدياد. هل تحسنت الأحوال وجرت أنهار العسل؟ كم من اليهود يجب أن يقتلوا كي تثبت براءتهم مما رماهم به هتلر؟

لم يجد محمود ما يقوله، أومأ متفهمًا بينما هو لا يهتم في هذه اللحظة إلا بسلامته الشخصية.

ثم قال قافزًا إلى المجهول: هل تعلم لماذا يطاردونني؟

قال ولفريد: لا بد أنك فعلت شيئًا منكرًا.

قال محمود وقد استهواه إحساس القفز في حفرة بلا قاع: لقد اشتركت في مؤامرة لاغتيال الفوهرر.

قال له ولفريد والدهشة ترتسم على وجهه المتناسق القسمات: غير معقول!

- هي الحقيقة دون زيادة.

قال ولفريد وهو يتحمس: احكِ لي قصتك، أظن أنني قد استحققت هذا.

حكى له محمود مختصرًا مبنيًا على قصته مع روميل، ولكنه أضاف إليه الكثير من الخيال عن دور كبير لعبه في محاولة اغتيال كادت تنجح. ظن أن ادعاء بطولة زائفة سيفيده في موقفه الحالي، ثم استحضر قصة كاثرين لزيادة تعاطف ولفريد تجاهه، أظهر الأسى الصادق لهدف في نفسه، أصابه عندما نظر ولفريد إليه متمعنًا ثم سأله: تزوجت امرأة لها جذور يهودية؟

ره متسرعًا: لم أكن أعلم بهذا الأمر.

فطن إلى تسرعه عندما قال ولفريد: وهل كنت ستتزوجها إذا علمت منذ البداية؟

أجاب مؤكدًا: بالطبع، لم يكن الأمر ليشكل أدنى فارق.

لم يفكر في هذا الأمر أبدًا، في قرارة نفسه لم يدرِ ما هو الجواب الصحيح. صارح نفسه في لحظة صدق بأنه في الغالب لم يكن سيتزوج ماورين.

هبط الصمت كضباب كثيف حتى قال ولفريد: ماذا لو قلت لك إن هذا خطر لا أحتمله، وإنني أريدك خارج منزلي الآن؟

تجمد محمود منتظرًا حكم ولفريد النهائي وهو نادم على ما حكى.

قال ولفريد من خلال ابتسامة مرهقة: ولكنني لن أقول هذا، أشعر بالسعادة لمساعدة شخص يبحث عنه هتلر، شخص لا يزال يحمل بداخله بعض الإنسانية والمبادئ. لا بد أن هذا الخسيس يشعر بالغل في أعماقه في كل لحظة لا يعثر فيها عليك، رائع، بل إن هذا الأمر يستدعي احتفالاً صغيرًا.

قام في مرح وأحضر زجاجة فودكا وكأسين صغيرتين ملأهما حتى حافتيهما، قبل أن يرفع كأسه عاليًا ويقول: في صحة تكدير أدولف هتلر.

تنفس محمود الصعداء وهو يشاركه نخبه، قال له ولفريد بعد أن جرع كأسه، فأنقبض وجهه من أثر المشروب القوي: ما هي خطتك الآن؟

ـ كنت في طريقي إلى سويسرا، لا أعرف كيف سأصل إليها.

قال ولفريد مشجعًا: سأوصلك إلى زيورخ بنفسي إذا استدعى الأمر. لقد بنيت في السنوات الماضية شبكة من العلاقات لتسهل على تهريب المطاردين خارج البلاد، سأتولى أمر كل شيء، كل ما أريده منك هو أن تأتي معي غدًا لنلتقط لك صورة.

قال محمود في انشراح: لا أعرف كيف أرد لك هذا الجميل، معي نقود تغطي تكاليف ما أحتاجه و...

قاطعه قائلاً: هذه على حسابي من أجل عيني هتلر العزيز.

شرد للحظة وهز رأسه في عدم تصديق وقال: أدولف هتلر!

ثم ضحك وهو سعيد.

جلسا يتحدثان ثم رحل ولفريد، وأوصاه بترك الستائر مسدلة حتى يعود إليه في الصباح.

ودعه محمود ثم تفقد الشقة فلم يجد بها الكثير. تمطى وتثاءب ثم استلقى على الفراش كريه الرائحة. صوت نقاط مياه تسقط من صنبور الحمام قاطعة الصمت الشامل، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

أول ليلة هروب وستتبعها ليالي عديدة، ترى هل يستطيع الصمود؟ صوت نقاط الماء التعيسة ينغص عليه مضجعه، قام في حدة ليغلق الصنبور، لم يطاوعه واستمر في التنقيط كأنه طقس واجب. رأى على الرف الذي يعلو الحوض مشبك شعر صغيرًا أزرق فاتحًا مزدانًا بنجوم صفراء، لا بد أنه يخص إحدى الهاربات من قبله، لا يظن أن ولفريد يحضر صديقاته إلى هذا المكان الكئيب.

تخيل قصة صاحبة المشبك، فتاة صغيرة تحيا في كنف عائلة محبة مات كل أفرادها، فتتعرض لويلات قفزت بسنوات عمرها أعوامًا

لا الموى. يتمنى أن تكون نجحت في الهروب، وأنها الآن في مكان بعيد آمن تحاول استكمال حياتها. وفجأة تراءت له كاثرين، استلقى على فراشه مرة أخرى ولكن بقلب مثقل بالشجن.

صوت الصنبور التالف يصيبه بالجنون. حاول أن يغلق أذنيه بالوسادة ولكن رائحة الأتربة والعطن غزت أنفه فألقى بها بعيدًا في قرف.

جلس يفكر في زوجته المغدورة وهو يحاول ضبط أعصابه التالفة بسبب نقط المياه. عندما حضر النوم أخذه على حين غرة بينما هو يشعر بشفقة مضنية على نفسه.

استيقظ في الصباح على ولفريد وهو يناوله شطيرة فجفل في ذعر. قال له الأخير وهو يضحك: لا تخف أنا حارسك الأمين.

قال في استياء وهو يفرك عينه: حسبك، فأنا لا أقوى على هذه المفاجآت.

في شوارع الحي المقفرة خرجا في الصباح الباكر، كان المكان في ضوء النهار مهملاً كأنه تم تهجير أهله وتركه للطبيعة تزحف عليه كما تحب.

قال له ولفريد والبخار يخرج من فمه كالدخان: ستكون حياتك الجديدة صعبة، أنت بالتأكيد عشت حياة مرفهة وهذه التعقيدات غريبة عليك، فتحمل واصبر.

رد متفلسفًا: التشبث بالحياة أهم من نوعيتها، سأعيش في جحر فئران إن كان هذا سينجيني من الخطر.

- مشكلة الناس المعتادين على العز مثلك هي أنهم لا يعرفون كيف يتخفون ويختفون. بعكس الكادحين الذين اعتادوا الحياة على

الهامش، يتجنبون رجال السلطة والدائنين والأعداء، يعيشون حياتهم كلها كالهاربين.

- أنا لم أحتَج إلى تجنب أحد أيًا من كان طيلة عمري، حتى هتلر نفسه.

قال له ولفريد في اهتمام: احكِ لي عنه.

قال وهو يتابع قطتين تتحفزان أمام بعضهما كإعلان صراع على منطقة نفوذ: رجل ذكي اختار أن يمشي في طريق الأغبياء.

أفلتت ضحكة من ولفريد فقال له محمود متفاخرًا: هل تعلم أنني رأيته يبكي ذات يوم؟

قال ولفريد بدهشة: غير معقول.

بابتسامة مسروقة من الوجود كله وقد نوى تشويه صورة هتلر قال: وبحرقة أيضًا حتى سال أنفه.

- كيف هذا؟

حكى له محمود واقعة بكاء هتلر ثم قال خاتمًا حكايته: لا أظنك ستقابل رجالاً كثيرين شاهدوا الفوهرر العظيم وهو يبكي.

قال ولفريد ضاحكًا: إنك تعتلي هرم الأهمية مقارنة بكل من ساعدتهم قبلك يا محمود، سأحتفظ بصورة لك حتى أتفاخر بمعرفتك.

وصلا إلى ساحة متوسطة الحجم بها حياة وحركة ثم عرجا على مقهى صغير، دخلا فوجدا صاحبه يقف متحدثًا مع ضابط إس إس يجلس في الصدارة. جفل محمود لرؤيته فربت ولفريد على كتفه وقال ضاحكًا: هذا هيوجو زيمرمان، إنه معنا.

-٢٩-

حول مائدة تزينت بأقداح القهوة الساخنة أشار ولفريد إلى هيوجو وقال: هو من سيساعدك في إصدار الأوراق الشخصية التي تحتاجها للسفر إلى سويسرا.

قال هيوجو بصوت أجش تناسب مع مظهره القوي وشفته التي تحمل ندبة التأمت بشكل غير منفر: سيحتاج الأمر إلى يومين أو ثلاثة. عندما تكون الأوراق جاهزة ستنطلق بالقطار ولن يستطيع أحد إيقافك.

قال محمود والامتنان يكاد يخنق كلماته: لا بد أن يكون هناك مقابل لكل ما تفعلونه معي.

قال ولفريد في هدوء: نريدك فقط أن تتذكرنا بالخير.

التقط الصور التي يحتاجها ثم قضوا ساعتين يتحدثون في تفاصيل رحلة الهروب قبل أن يعود محمود إلى المخبأ. جاء الليل فقضاه في صمت لا يقطعه إلا نقاط الماء الرتيبة. ابتسم وكان قد انتهى لتوه من

حقن نفسه بآخر جرعة من التركيبة المدهشة عندما مر بخاطره أنه ربما يأتي يوم يفتقد فيه هذا الصوت المزعج.

في الصباح التالي نظر عبر فرجة بين الستائر فوجد السماء مكفهرة كأنما تشاركه مأساته، الوقت يمر بطيئًا ومرهقًا، لا يجد شيئًا يتسلى به، ومخاوفه وما يرافقها من أفكار مزعجة تنهش نفسه بمخالب حديدية صدئة. تعاطى جرعة من المورفين فلم تسعده ولم تؤت مفعولاً جيدًا، قرأ المجلات الموجودة بعناية طلبًا لتزجية الوقت الذي لا يمر، وفي إحداها وجد مقالاً عن تعاظم كلفة الحياة وارتفاع أسعار البضائع على نحو مرهق. يتساءل كاتب المقال في خبث عن أسباب الغلاء إذا كان اليهود قد تم إبعادهم ولم يعودوا متحكمين في الاقتصاد! يتهم التجار الألمان بأنهم تعلموا جشع اليهود، وفي النهاية يحذرهم من أن غضبة الحكومة ستكون عظيمة، وعقابها سيكون أكثر بطشًا من عقاب اليهود، لأن تصرفهم يشبه طعنة في ظهر الوطن.

أعجب بشجاعة الكاتب، إن المعنى الذي يحمله المقال يتهم النظام بالكذب، شجاعة نادرة في زمن يبتعد فيه الجميع عن إثارة سخط هتلر. اسم الكاتب «جيرهارد إديلبرت»، يا الله! صدمته الذكرى بلا رحمة، لهذا بدا له الاسم مألوفًا عندما سمعه في ذلك اليوم، إنه كاتب صحفي! لقد هشم وجه الرجل والآن يعجب بكتاباته.

كأن هذا ما كان ينقصه، أشباح الماضي تطل عليه برأسها من كل مكان، تعاظم الحزن فجلب معه الإحباط. قرأ المقال بضع مرات أخرى وفي كل مرة يزداد حزنه، لماذا لا يجلب هذا المورفين اللعين بعض الراحة؟ ما فائدته إذا كان يشعر بكل هذا الأسف على نفسه. تعاطى جرعة أخرى لعلها تخفف من وطأة التأنيب والحسرة فأفلحت

لتحسين مزاجه، شعر بجسده يتراخى وأفكاره تضطرب، حلق في السماوات المفتوحة ولكن بلا متعة حقيقية، لا بأس، أفضل من لا شيء. جلس يتأمل السقف لفترة طويلة، تراخى جسده أكثر حتى شعر أنه يستلقي على هلام يترنح به في كل اتجاه. آسف يا جيرهارد، هذا كل ما أستطيع قوله لك، عليك اللعنة إذا طالبتني بالمزيد.

لن يستطيع احتمال هذه الحياة العجفاء ليومين آخرين، سيجن بالتأكيد. بينما هو يتجول في المنزل مذهولاً وجد دليل تليفونات، جاءته فكرة لم يتوانَ عن تنفيذها، اتصل بأول رقم وقعت عليه عيناه، ردت عليه امرأة فقال لها بصوت خرج أجش من أحبال صوتية لم تختبر منذ أمس: هتلر دمر البلاد، لقد خسرنا الحرب، اهربوا ما دام باستطاعتكم.

استنكرت المرأة قوله وسألته عن شخصيته فوضع السماعة، اتصل برقم آخر فرد عليه هذه المرة صبي، قال له الشيء نفسه فنادى على أمه بصوت عالٍ مرددًا ما قاله له محمود. قضى نحو ساعة يتصل بالناس محذرًا، لم يطاوعه أحد، ولا حتى شخص واحد، استنكروا جميعًا كلامه وسبوه واتهموه بالخيانة. كان كمن يجري بحثًا استقصائيًا عن شعبية هتلر فوجدها مرتفعة، نظريًا فقط؛ لأن العقول تنشغل بما لا تصرح به الحناجر. الجميع قلق وخائف، موقنون بقرب الهزيمة ولكنهم ينكرون. بالعبث في جراحهم انفتحت مخرجة ما بها من قيح، لقد لمس الخوف في أصواتهم.

قاوم رغبته في الاتصال بمنزله، يريد أن يسمع صوت أديلينا، أن يطمئن عليها ويطمئن نفسه بها. طغت سيطرة المورفين وازداد الذهول الذي يسحبه خارج الوعي والزمن، فيجلس شاخصًا ببصره

شاعرًا بجسده يذوب ثم يعود إلى الواقع بعد أن يدفع نفسه دفعًا. كانت تجربته مع الجرعات الزائدة ما زالت محفورة في ذهنه ولا يريد أن يكررها.

قاوم نوبات الذهول، يخيل إليه أنها طويلة جدًّا ثم يعود فيراها قصيرة للغاية. استمر في مقاومة الإلحاح المتزايد لسماع صوت أديلينا حتى انهارت مقاومته، رفع سماعة الهاتف ومر بأصابعه على القرص في تصميم، أصابعه لا تطاوعه فتذهب إلى أرقام أخرى وعقله مشتت. المورفين يضرب بعنف وهو يستعذب ضرباته، فقط لو يضمن أنه لن ينتقل إلى العالم الآخر لكان استمتع أكثر. يشرد في نوبات من الذهول بعد أن يضرب ثلاثة أرقام وعندما يفيق يكون قد نسي ما فعل فيعاود الكرة. يكون مراده هو إدارة القرص عند الرقم اثنين فيديره عند سبعة، يضحك مرة ويسخط الأخرى وفي النهاية نجح في طلب الرقم الصحيح. مرت ثوانٍ طويلة حتى جاءته أول دقة جرس، أعقبتها الثانية ووراءها الثالثة، وفجأة انسحب عقله في نوبة سطل عنيفة، استفاق من ذهوله غير المحدد بزمن فلم يسمع صوت دقات الجرس وإنما بدلاً منها الصمت، خواء مطلق. لا يتذكر إن كان قد طلب الرقم أم لا، هل ردت عليه أديلينا أم لم يجبه أحد. حاول التركيز فتلاعب به عقله رافضًا القيام بأي مجهود فكري.

اللعنة على هذا السطل، أراد إعادة الاتصال مرة أخرى ولكن جسده أغراه بالنوم. شعر باسترخاء كامل مريح استسلم له وهو ينزلق إلى الأسفل طالبًا وضعًا يناسب ما عزم عليه.

سمع صوت الطرقات المميزة على الباب تخترق نومه وتختلط بأحلامه السوداء الخاوية، قبل أن تنتشله من غياهب الجب الذي

ما فيه. قام مترنحًا برأس ثقيل بينما الباب يفتح ويدخل منه ولفريد حاملاً معه بعض الأغراض وعلبتي سجائر أشعل منه إحداهما بمرارة في اشتياق.

قال له ولفريد: سمعت أن صديقك جوبلز في أشد حالات الغضب بسبب فشل أجهزته في العثور عليك.

قال محمود وهو يمسك برأسه من أثر الصداع الذي أصبح يهاجم بصورة لا تنقطع: متى سأرحل من هنا يا ولفريد؟ سأجن إذا بقيت على هذا الحال.

- ما زلنا نقوم بالترتيبات اللازمة، تحمل قليلاً واعلم أنك هنا في أمان.

دق جرس الهاتف دقة واحدة ثم انقطع، نظر محمود إلى ولفريد في تعجب بينما الأخير يقف مكانه ثابتًا متحفزًا. ثوانٍ وكان الهاتف يدق ثانية، دقتين هذه المرة. قال ولفريد وهو يتجه ناحية الهاتف: إنه هيوجو!

في المرة الثالثة عندما دق الهاتف رفع ولفريد السماعة فقال له هيوجو مباشرة: اهرب من عندك فورًا فقد جاءتنا إشارة بمكانكم والقوات في طريقها إليكم.

وضع ولفريد السماعة وقال لمحمود في حدة: اجمع كل حاجياتك ولا تنس شيئًا، يجب أن نرحل فورًا.

لبى ما طُلب منه مذعورًا، بينما ولفريد يمسح بعين خبيرة أي آثار باقية، تسللا في الظلام خارجين من الباب الخلفي للبناية إلى زقاق جانبي ضيق. تساءل محمود وقد تحول ذعره إلى رعب كامل: ما الأمر؟

أشــار إليه ولفريد بالصمت وهما يتحركان متسترين بظلام الليل وظلال المباني، سـلكا مسارًا مخططًا بعناية، غطسا أكثر في الظلام حين سـمعا محركات سـيارات وأقدام جنود ثقيلة تضرب الأرض في قوة، بينـما الأوامر العسـكرية تلقي بصوت ضـاع معظمه في هـواء الليل البـارد. نظر محمـود إلى ولفريد مسـتنجدًا فوجده مسـتمرًّا في طريقه لا يهتـز. فجأة تعالت أنوار سـيارة قادمة فأمسـكه ولفريد من ذراعه ودفعه للأسـفل لكي يختبـئ خلف صفيحة قمامة. مرت سـيارة نقل جنود بسرعة دون أن يلمحهما ركابها فأشار إليه بالتقدم.

ابتعـدا حتى صار بإمكانهما الانتقال إلى الشـوارع الرئيسـية، قال محمود: كيف اكتشفوا أمرنا؟

قال ولفريد: لا أعلم، لكنهم لا يبعثون بكل هذه الأعداد من الجنود لإلقاء القبض على الأشخاص العاديين.

ثم أضاف وهو يتطلع حوله في حرص مؤمنًا مسلكهما: لقد أصبحت المطلوب رقم واحد في ألمانيا، يتهمونك بالخيانة العظمى لمحاولتك اغتيال هتلر.

ثم أضاف باحترام: أحييك على شجاعتك.

قال محمود وهو يجد مشـقة في السـير السريع: بل أنا الذي أحييك على مساعدة شخص هارب من تهمة كهذه.

قال ولفريد بصدق: عندما سـمعت قصتك ظننتك تبالغ وتعطي لنفسـك دورًا أكبر من الحقيقة، لم يخطر ببالي نبل أسبابك، والآن على الرغم من تعاظم المخاطر فإن هذا لن يزيدنا إلا عزمًا على مساعدتك.

ثم منحه لقب سيد وهو يضيف: أقل ما نفعله لبطل مثلك يا سيد

المهم هو ألا نسمح لهؤلاء الحثالة بإلقاء القبض عليك.

قال محمود وضميره مثقل بتبعات كذبته: لقد دمرت حياتي وحياة من حولي بسبب الطريق الذي سلكته، أشعر بسعادة لن تكتمل لعلمي أن ما فعلته قد يجد تقديرًا عند الناس.

صمت ثم قال: أو ما حاولت فعله بمعنى أدق.

قال ولفريد بحماس: إنه أمر يحتاج إلى بسالة شديدة، لقد صعدت الجبل إلى كهف الذئب بينما القرية تقبع عند السفح مستسلمة خانعة، كأنك من أبطال الملاحم الإغريقية يا سيد محمود.

تساءل محمود إن كان ولفريد قد استمع لنبوءة ليتيشيا الزرقاء، ترى أين هي الآن؟ لا بد أن عظامها ترقد في قبر مجهول، بجوار عظام الآلاف من الغجر الرحل الذين حمل عليهم هتلر حملة عنيفة تكاد تقضي على ذريتهم. شعر بموجة تأنيب الضمير تكتسح كل ما يقف في طريقها، هو السبب في هذا، لقد تسبب بإضافته الحمقاء لكتاب كفاحي في إزهاق أرواح لا يعلم عددها. يا ليته ما طرح هذه الفكرة، اللعنة على حماس الشباب والرغبة في نيل الإعجاب، ولكن سرعان ما قال لنفسه إن هتلر كان سيلتفت إلى الغجر في كل الأحوال، سواء بنصيحته أو من دونها، هم مثل اليهود، هدف مستحب لكل مخبول يريد أن يقوم بمذابح، أراحه هذا الخاطر قليلاً. خواطره الدفاعية تلك هي كل ما بقي له لكي يحيا دون خبال.

حاول إراحة ضميره بأن قال بلهجة محرجة: ولكن ما حاولت فعله يا ولفريد كان لأسباب شخصية بحتة، ليس من أجل الناس أو حتى الوطن.

قال ولفريد بإيمان شديد: تبقى محاولتك قتل الذئب العقور بطولة، لم يصرح له أنه لم يكن ينوي حقًّا قتل هتلر، لقد كان مجرد حلم بدخول التاريخ، الوطنية لم تكن أبدًا هي المقصد، معاناة الكادحين والمظلومين لم تخطر له يومًا على بال، فليخسأوا أينما كانوا.

ولكنه آثر ترك ولفريد يرضع من ثدي الذئب في ملاحمه الإغريقية، الجميع بحاجة إلى الأمل هذه الأيام. قرر أن تكون هذه هي طريقته في قضاء دينه تجاه الرجل الطيب، لن يضيره الصمت، فليصمت إذًا.

-٣٠-

وصــلا إلى المقهى، كان بابه مغلقًا فطرقــه ولفريد طرقاته المنغومة لينفتــح ويدخله الرجــلان في سرعة مختبئين في الظـلام. قبل أن يتبين محمــود ما حوله جذبه أحدهم بعنف من ملابســه ودفعه نحو الحائط قائلاً في شراسة: ماذا فعلت يا بن العاهرة؟!

رفع عينين مذعورتين فرأى هيوجو، بجانبه يقف صاحب المقهى ينظــر إليه بعينين تطقــان بالشرر فتــكادان تنيران في الظـلام. تدخل ولفريــد محاولاً تخليص محمود من قبضتــه وهو مندهش. قال هيوجو مزمجرًا وهو يضرب ظهر محمود في الحائط فيؤلمه: فاقد المســؤولية هذا اتصل بمنزله من مخبأك كاشفًا مكانه ومضيعًا نفسه وإيانا.

نظــر إليــه ولفريد في استــنكار بينــما هيوجو يكمــل: طاقم كامل بأجهــزة تتبــع يخيمون هنــاك في انتظــار أن يتصل هذا الأبله متشــممًا الأخبار، فلم يخِب رجاؤهم في خنوثته.

وقف منكسرًا ينظر في الأرض وهو يخشــى لطمة مفاجئة فقال له

ولفريد في دهشة: هل أنت حقًّا بهذا الغباء؟

قال محمود مدافعًا: لا أعرف ماذا دهاني، لقد وجدت نفسي أتصل بالمنزل دون تفكير فاعذر لي قلة حرصي.

قال صاحب المقهى في شراسة: هذا الأبله يتعاطى شيئًا بالتأكيد.

قال محمود وهو على شفا الانهيار: المورفين اللعين هو السبب.

نظروا إليه في دهشة وحدة وقال هيوجو لصاحب المقهى: فتش حقيبته.

أخرج الرجل المورفين والعلبة الخشبية فقال هيوجو وهو يعاين المحقن الذهبي: أيها المدمن المرفه.

ثم قذف بما في يده وكسره بكعب حذائه، صرخ محمود فيه وهو يحاول التدخل لمنعه، ولكن صاحب المقهى دفعه بقوة فاصطدم بمقعد ووقع أرضًا.

نظر إليه هيوجو وقال له في شدة: كيف يتوقع مدمن مثلك أن ينجو؟

أصدر محمود أنّة ملتاعة وهو يتحسر على ترياقه السحري، بينما ولفريد يقول بلهجة آمرة: سيتأجل سفرك. الأحرى بنا أن نقذف بك في الشارع ليتلقفك رجال الجستابو ولكننا أفضل من هذا، أما ما قلته لك في طريقنا فأنا أسحبه كله. أنت لست بطلاً بل مجرد شخص أناني وجد نفسه في وسط أحداث أكبر من قدرته على التعامل معها.

ثم قال لهيوجو وهو يشيح بوجهه عن محمود: خذه إلى فريتز.

قال هيوجو محتجًا: هذا خطر، قد يعترف هذا المدمن علينا في سبيل جرعة.

قال له ولفريد في صرامة لا تقبل النقاش: لهذا فإن مساعدته على الإقلاع هي لمصلحتنا نحن أولاً.

خرج محمود مطرق الرأس في خجل، بينما هلاوس ما سيحدث له من دون جرعته اليومية تدور في ذهنه. قذف به هيوجو بداخل سيارة وقال له وهو يخفي عينيه بقطعة قماش سوداء: لن نتحمل فقدان مخبأ آخر بسببك.

ثم أضاف مهددًا: تحمل ما ستمر به مثل الرجال، إذا كان بداخلك أي معدن لم يصدأ فهذا أوان إظهاره.

وصلا إلى منزل صغير دق هيوجو على بابه دقات معينة، لينفتح كاشفًا عن وجه رجل أشيب متشكك النظرات. قال له: ولفريد يطلب منك وضع هذا السيد في الغرفة الكبيرة.

هز الرجل الذي اتضح أنه فريتز رأسه وتقدم داخل المنزل، ثم نزل إلى قبوه ومحمود يتبعه متعجبًا. فتح فريتز بابًا وأشار إلى محمود بداخل الغرفة المظلمة قائلاً: مفتاح النور على اليمين.

كانت غرفة ضيقة كجيب البخيل، بينما محمود يحاول تبينها أغلق فريتز الباب عليه وسمع صوت أقفال توصد. استدار طارقًا الباب مرارًا ومناديًا قبل أن يصيبه اليأس فيجلس على الفراش مفكرًا.

هذه الغرفة ستشهد معاناته حتى يتخلص جسده من السموم التي عوده عليها لسنوات. نور الغرفة أصفر شاحب يصدر من لمبة واحدة معلقة في السقف بسلك عارٍ، وسيلة ممتازة لإنهاء الحياة بالشنق أو بالصعق. تبين له أن «الغرفة الكبيرة» هي كناية عن هذا الجحر التعس. انفتحت كوة صغيرة أسفل الباب وألقى له منها فريتز علبتي

سجائر. على الأقل هم لا يحاولون أن يجعلوه يقلع عن التدخين أيضًا.

بحلول ظهيرة اليوم التالي كانت الآلام قد غزت جسده الذي ضج بالشكوى من غياب جرعته المعتادة، في الليل كان العرق البارد يغمره وقد شحب وجهه كالموتى، وهو يلتف حول نفسه في الفراش يئن كالرجال كما طلب منه هيوجو. الساعات لا تمر والموت أهون من هذه النصال التي لم تعرف شحذًا طيلة تاريخها. غرق في نوم مؤلم أكثر من الاستيقاظ، سبات متقطع سقيم لا يريح قدر ما يتعب، تداعت على رأسه الأفكار المؤلمة وهو يتقلب في فراشه، لا يستطيع الثبات على وضع معين دون أن يشعر بآلام مبرحة في كل جسده، يتحرك بلا انقطاع كأنه ممسوس. لعن نفسه آلاف المرات لإدمانه المورفين وأشياء أخرى، إن دقيقة واحدة تمر عليه في هذا العذاب لا تعادل كل المدة التي قضاها هائمًا في ملكوت الإدمان. لم يستطع تذكر لحظة واحدة سعيدة قضاها مع المورفين. أدخل له فريتز طبق طعام من الفتحة فلم يمسسه. أخرجه في الصباح وأدخل طبقًا غيره، نظر إليه محمود بلا مبالاة، وذهنه كله منصب على العثور على تعويذة ناجحة تستحضر الموت ليرتاح مما هو فيه.

بحلول اليوم التالي كان بإمكانه أن يزدرد بعض الطعام، على مضض ودون رغبة حقيقية سوى في البقاء حيًا. غريب أمره فقد كان يتمنى الموت الليلة الماضية. رأى ماري وجيرهارد ورالف، رأى ليتيشيا ومعها الآلاف من الغجر الذين لا يعرفهم، كل من آذاهم جاءوا يطلبون شيئًا واحدًا، تعذيبه حتى آخر رمق. كره نفسه وأقسم ألا يقرب المخدرات ثانية أبدًا، شريطة أن ينزاح هذا العذاب فورًا. لم ينزَح فنزل بسقف شروطه وطلب أن يخف قليلاً، تحول الشرط إلى رجاء حار ثم إلى تضرع

يضارب الشحاذة، يكفي هذا، إنه ينهار ويفكر جديًا في الانتحار، ولكنه أكثر حبًا للحياة من أن يقتل نفسه.

أربعة أيام قضاها متشابهة في عذاب يقل تدريجيًا ولكنه لا يذهب تمامًا، قبل أن يفتح الباب للمرة الأولى ويطالعه وجها ولفريد وهيوجو. تبادلوا نظرات صامتة قبل أن يقوم محمود من مكانه، ويتبعهم حيث جلسوا مستكملين صمتهم حول مائدة خشبية مستديرة. بدا محمود كما لو كان دفن حيًا ثم أخرج من قبره. كان أول ما قاله بصوت كالموتى بعد أن أشعل سيجارة هو: أشكركم.

هزوا رؤوسهم بمن فيهم فريتز الذي لم يكن محمود يوجه شكره إليه، كرر بنبرة عاقلة كما لو كان وجد الحكمة في قبو منزل فريتز: أشكركم.

ولكن كلمات الشكر الصادقة طارت مع التنغيص المستمر بسبب الإهمال المفاجئ للعادة، لا يتخيل الحياة واعيًا، الوقت يمر بطيئًا. أصبحت جرعة مورفين أغلى أمنية يطمح إلها، لو حصل عليها لرقص طربًا. تريدونني أن أرقص عاريًا، أزحف على الأرض أو أتسلق شجرة كالقردة؟ لا ضرر في هذا، فقط أعطوني جرعة واحدة.

يومه يمضي بطيئًا مترهلاً كسلحفاة عجوز، الأنشطة كلها بلا طعم، والحياة لا روح فيها. تخيل أنه قد يعثر بمحض الصدفة على قارورة مورفين في المنزل، فبدأ التفتيش كلما سنحت له الفرصة. رآه فريتز في مرة فقال بهدوء: لا تتعب نفسك، نحن لا نتعاطى هذه القاذورات.

خجل من نفسه ولكن حلم العثور على أنشودة الأمل لم يفارقه،

جناح الإوزة الذي سيأخذه إلى السماء ومفتاح أبواب العوالم المسحورة.

مر عليه أسبوعان في منزل فريتز الصامت. اختبر محمود قدرته على الحفاظ على سلامته العقلية في صحبته المملة الخالية من الأحاديث، كأنه في معبد ديانة تنبذ الكلام على قمة جبل وحيد في منطقة نائية، يتأمل حياته ليخرج منها بالمواعظ فتعبر به إلى بر الحكمة الخالصة، على ظهر زورق من خشب الصمت. إن الموتى في القبور يصدرون ضجيجًا أكثر من فريتز. اللعنة عليك أيها الصامت المثير للحنق.

أصبح الطعام تسليته الوحيدة، الكثير من القراءة صاحبت الأكل الذي لا ينقطع، فقرأ أشياء لم يتخيل أن تكتب، تعوّد بعض الشيء على الحياة دون مخدر، ولكنه أيقن أن أول يوم يخرج فيه إلى الشارع سيكون اختبارًا حقيقيًّا لصلابته.

قال له ولفريد يومًا في شك: أنت الآن مستعد للرحيل، تخلصت من المخدر في جسدك ومن العادة إلى حد بعيد، الباقي في يدك، إذا كنت تتطلع إلى حياة حقيقية فقد هيأنا لك سبلها.

قال محمود بلهجة بدا عليها تصميم مشكوك فيه: لم أكن حيًّا بالمعنى الحقيقي، لقد كنت موجودًا بجسدي، أما روحي فكانت ضائعة.

ـ كلما نازعتك نفسك إلى العودة للمورفين تخيل ماذا سيحدث لك إذا ما وقعت في قبضة هتلر، وأفرط في التخيل، فإنه مهما بلغ بك جموح الخيال سيظل أقل مما سيفعله بك في الحقيقة.

بعد أيام تسلم أوراق شخصية سويسرية تبدو حقيقية بدرجة احترافية، اسمه فيها هانس فريدريتش، استخدم اسم أمه لكي يبقي على شيء

من جذوره ولا يفقد هويته، ينبغي أن تفي هذه الأوراق بالغرض.

قرر أن يستمع لنصيحة أديلينا، سيذهب إلى مصر، لم يرتح لفكرة أمريكا الجنوبية التي اقترحها عليه جورنج. خشي أن حديثه بلغته التي لا يتقن غيرها سيفضحه. لن يفرق الحديث بالألمانية في بلاد لا تعرف سوى الإسبانية كثيرًا عن ارتداء شارة السواستيكا، والتبختر بها في شوارع بوينيس أيريس أو لا باز. كما لو كان ينادي على الناس ليقبضوا عليه، بل ويناشدهم مترجيًا.

قال له ولفريد: استعد للانطلاق غدًا مع أول خيط للنهار.

-٣١-

كان الشـفق بلونـه الأحمـر القـاني يعلن في السـماء قرب سـطوع الشـمس، عندما ترك محمود منـزل فريتز ومعه هيوجـو متجهين إلى محطة القطار، بعد وداع دافئ ارتسمت فيه ابتسامات الأمل والعرفان. كانت أول مرة يرى الشـارع منذ زمن فشعر بسعادة ورجاء. لا يشعر الإنسـان بقدر النعم البسـيطة التي يتعامل معها كأنهـا حق له إلا إذا حـرم منها. عند وصولهما إلى محطة القطار كان الأحمر قد اختفى وحل محله أصفر زاهٍ يغسـل شـوارع المدينة مما خلفه الليل من سـواد. تمنى لـو كانـت الحياة بهذه البسـاطة. ترمم الشـمس النفـوس كل صباح فيتخلص البشر من شرور الليلة السابقة.

قال له هيوجـو: القطار المتجه إلى فريدريتش هافن سـينطلق بعد ربع ساعة، امش في ثقة ولا تأبه لأحد.

كانت المحطة تعج بالجنود، لفت نظره جندي تضرر نصفه الأيسر بشدة، ويحمل في يده السـليمة قطة صغيرة سوداء هائشة الشعر تنظر

حولها في فضول. هذا الشـاب على الرغم مـن معاناته لا يزال في قلبه متسع للعطاء. غريبة حقًّا هي النفس البشرية.

وصـلا إلى القطار الذي وقف على الرصيف ينفث دخانه في تحفز، صافح هيوجو في امتنان فقال له: لا تمكث في سويسرا طويلاً، استمر في التقدم وكلما ابتعدت عن ألمانيا كان هذا أفضل لك.

أضـاف وهو يناوله ورقة مطوية: عندما تصل اقصد هذا العنوان، صاحبه سيتكفل بأمر ذهابك إلى أي مكان تريده.

ـ إذا أردت الاتصال بكم فكيف أجدكم؟

صاح محمود متسائلاً بينما صوت القطار يعلو استعدادًا للتحرك.

ـ ستبعث بخطاباتك إلى عنوان سيخبرك به من ستقابله هناك.

في القطار عاوده الشعور المضني بالقلق، كان ولفريد وهيوجو قد أصبحـا حمايته التي يأمن بها مـن الخطر. في هذه اللحظة بعد أن تركاه وحده فقد إحساسه بالأمان وعاوده الخوف.

دعـا لهـما بالخير مـن أعماق قلبـه، من تلـك البقعة النقيـة التي لا تتلوث أبدًا، فطرة الخير الموجودة في قلب كل إنسـان. نظر إلى الحقول التي تتسـابق مع بعضها خارج نافذة القطـار الذي وصل إلى سرعته المرجـوة. كان الطريق طويـلاً فهاجمه الاشـتياق إلى المخدر، ضاعف القلـق من إلحاح الشـوق، تراجعت العزيمـة وإن لم تفتر، لا مفر من الصمود.

في مـارس ١٩٤٥ وبينما قوات الحلفاء تعبر نهـر الراين تجاه برلين، وصل محمـود إلى زيورخ حيث مكث أسـبوعًا. كان أول ما فعله هو تحويـل الماركات الألمانيـة التي يحملهـا إلى فرنك سـويسري. عندما

تسقط ألمانيا فإن هذه الأموال لن تساوي حتى ثمن الورق المطبوعة عليه. خسر الكثير ولكنه في النهاية حصل على مبلغ ممتاز، فما يحمل من نقود لم يكن قليلاً.

من سويسرا ذهب إلى إيطاليا ليعبر البحر المتوسط إلى مصر فوصلها في بدايات أبريل. عندما دخلت الباخرة ميناء الإسكندرية نظر إلى المدينة التي تركها منذ أكثر من ثلاثين عامًا، لقد تغيرت وهو أيضًا تغير. هل ما زلت تذكرينني أيتها المدينة الحبيبة أم نسيت من قضى زهرة عمره في أحضانك؟

قضى الرحلة في منازعات لا تنتهي لاشتياقه إلى مخدره، لم تهتَج النفس للذكرى كما كان يحدث في البداية، ولكن ظلت تأتي وتروح وتشتت عقله. يعلم أنه يلقي بنفسه في المجهول. الآن بعد أن ابتعد عن جوبلز أصبح الإنجليز هم كابوسه المؤرق.

ما إن وطئت قدماه الأرض حتى أحس بالأمان، استوقف سيارة أجرة وطلب من سائقها بعربية كسيحة أن يأخذه إلى محطة الرمل. هز الرجل رأسه وذهب به في صمت إلى ميدانها الواسع المقابل للبحر، نزل منها وبعد بحث وجد بنسيونًا صغيرًا. كانت غرفته لا تطل على شيء يذكر ولكنها نظيفة ومرتبة فكفاه هذا. صاحبة البنسيون سيدة يونانية تدعى أدورا، كانت ودودًا ولم تنغص عليه بأسئلة كثيرة، فناسبه الأمر وارتاح عندها كخطوة أولى في طريق طويل.

نزل لاستكشاف المدينة بعد طول غياب، كل ما يتذكره ما زال موجودًا في مكانه وإن زاد عليه الكثير، ما يهم حقًّا هو أن البحر ما زال يسر الناظرين كعهده به. جلس أمامه متأملاً قبل أن تسري كآبة ما في نفسه. خيل إليه أنه يرى دخان الحرائق في ألمانيا، يسمع

صوت طلقات الرصاص والمدافع وصرخات اليأس تختلط بأنين العابرين. تذكر كل من تركهم خلفه في حزن.

ضاعف لون غروب الشمس الأحمر من شجنه، نهض سريعًا هاربًا من أفكاره، تمشى على الكورنيش والهواء المحمل برائحة اليود يضرب وجهه محييًا. وقف بعض الوقت ينظر إلى صفحة الماء التي انعكست عليها حمرة الشمس، ثم عاد إلى البانسيون.

في الأيام التالية أرقته الحاجة إلى المخدر، عقله يعبث معه بعد أن اطمأن لزوال الخطر، حاجة مستمرة تجول في رأسه، يحاول التخلص منها فتلح عليه رافضة الابتعاد، استنفد جهدًا نفسيًّا مضنيًا لكي يتمسك بإقلاعه ويظل ملتزمًا به.

مرت أسابيع وهو يتعود على حياته الجديدة ببطء ولكن بتصميم. في النهاية هو لم يذهب إلى مكان غريب وإنما عاد إلى جذوره، وما أطيبها. هذه المدينة تحمل ناحيته مشاعر مودة لا يمكن إنكارها.

في الرابع من مايو عام ١٩٤٥ سقطت برلين وانتحر هتلر، مات مسبب الدمار ومروع البشرية. انتهت الحرب التي أشعلها في لحظة جنون منذ سنوات، على الأقل في أوروبا، فما زال حليفه المتهور يضرم نارها في المحيط الهادئ. جوبلز أيضًا انتحر مع زعيمه ومثله الأعلى، هو وزوجته ماجدة قتلا أطفالهما السبعة، بالضبط كما تنبأ له محمود في آخر لقاء بينهما. عندما قرأ الخبر شعر ببعض العزاء، بالتأكيد تذكره وهو يقوم بهذه الطقوس المقيتة قبل أن يقتل نفسه، بالتأكيد لعنه، فلتحترق في الجحيم أنت وسيدك يا جوبلز.

الجرائد تكاد صفحاتها تزغرد لانتهاء الحرب، الناس في البلاد

المنتصرة ترقص في الشوارع دون تحفظ، حتى في مصر الناس سعداء، ولكن مشاعره هو مختلطة، حزين على بلاده وسعيد بانتهاء هذه الحرب الشيطانية، سعيد لمقتل هتلر وجوبلز، وبالذات الأخير، ولكن يشعر بالأسى لأنه لم يأخذ بثأره من جوبلز ولن يأخذه أبدًا.

عند علمه بأن جوبلز استخدم كبسولة السيانيد التي أعطاه إياها ذات يوم ارتاح باله وهدأ، لقد ناوله هذه الكبسولة بيده، هو من قتله. ما أعذب أن يقف القدر في صفه، إنها لحظة نادرة أنصفته فيها الحياة وهو لها ممنون.

شعر بأن مطاردته قد انتهت، راودته فكرة العودة إلى ألمانيا فبعث خطابًا مختصرًا لأديلينا يقول فيه:

عزيزتي أديلينا

أعتذر عن رحيلي المباغت ولكنك بالتأكيد تقدرين أسبابي. أرجو ألا أكون قد سببت لك الكثير من الألم. أنا بخير حيث اقترحت عليّ أن أكون، أخطط للرجوع فقولي لي ماذا ترين؟

بعث بالخطاب إلى سويسرا كما كان متفقًا، سيرسلونه من هناك إلى منزله في ألمانيا. انتظر حتى تفككت أعصابه دون أن يصله رد. عصفت به الشكوك فتركته غصنًا بلا أوراق، تآكلت نفسه حتى تخيل الأسوأ.

ولكن بعد أشهر طويلة ومضنية وصل الرد:

عزيزي محمود

لم تكن الفترة الماضية سهلة، فما بين رحيلك ثم الهزيمة تغيرت أشياء كثيرة في نفسي وفي كل شيء حولي. منزلك بخير لم يمسسه

لحسن الحظ سوء، وأنا أعيش فيه فشكرًا على كرمك.

لقد كاد القلق يقتلني عليك، وعندما طال اختفاؤك فقدت الأمل أن تكون على قيد الحياة، ولكنني اليوم سعيدة. كم أتمنى أن أحتضنك وأغمرك بالقبلات، أن أسمع صوتك وتحكي لي ما مررت به وأبادلك الحكايات، ولكن للأسف لا تجري الحياة كما نشتهي. بكل الحزن أقول لك بوضوح ألا تفكر في الرجوع أبدًا، أنت ما زلت مطاردًا، فقط تغيرت هوية مطارديك. اسمك موجود في موقع متقدم من قائمة طويلة يتم البحث عن أصحابها دون كلل.

كلي أمل أن نلتقي يومًا ما، ولكنني أرجوك ألا تراسلني ثانية حرصًا على سلامتك، لك مني كل الحب.

أديلينا.

طوى الخطاب في حسرة، اجتاح النفس بؤس وحيرة. رأى الطريق الذي ظن أنه وصل إلى نهايته يمتد أمامه ويطول على مدد البصر فلا يدرك نهايته. يبدو أنه قد كتب عليه أن يعيش ما تبقى من عمره مختبئًا.

ضاقت الحجرة عليه وقبضت على روحه حتى كاد يختنق، خرج من البانسيون طالبًا بعض البراح فقادته قدميه إلى الكورنيش حيث وقف ينظر إلى البحر كأنه يلقي النظرة الأخيرة على بلده التي لا تلوح له على الشاطئ الآخر.

تكسرت الأمواج على الصخور الملاصقة للكورنيش، وارتدت من حيث أتت خائبة دون أن تنجح في الوصول إلى أقصى امتداد لها. تمامًا مثل ذلك الخطاب الذي خيب مسعاه وأمله دون أن يأبه لرغبته. ليس كل شيء مرهونًا بالطموح، هناك أشياء لن تحدث مهما

كان الطمـوح كبـيرًا، ولكن لكل شيء وظيفـة، وظيفة الصخور هي كسر الأمواج كي لا تطغى عـلى المدينة، ووظيفة الخطاب الذي تلقاه هـي تكديره وإفقاده الأمل، ولكنه لن يفقد الأمل. وهو في ألمانيا كان الوصـول إلى مـصر أقرب إلى حلم يحتـاج إلى معجـزة، وها هو الآن يقف على شـاطئ الإسـكندرية، فـماذا يريد؟ ولماذا لا يـرضى بالنعم المغدقة عليه؟

وقف ينظر إلى البحر قبل أن يفيق من شروده، يشـعر برغبة ملحة في زيارة منزله القديم، مهد كل شيء وبداية الحياة.

لاحت الفيلا أمام عينيه، تقف في مكانها المعهود شـاهدة على أيام لن تعود. لم يجد أثرًا لفيلا رودلف، يبدو أنها قد هدمت. وقف يتأملها ويتذكر تفاصيل حياته بها في شـغف، سـورها القصير الذي يحيط بها يكشـفها من ورائه بوضوح. يعلوها برج رشيق في الركن الأيمن، به مجلـس في الهواء الطلق مسـقوف بالقرميد الأحمر، كانوا يجلسـون في ليالي الصيف المنعشة.

تذكـر كيف كانت شـديدة الضخامـة في عينيـه الصغيرتين ذات يـوم. الحقيقة أنه هو الـذي كبر حتى ضاقت عليـه الدنيا بما رحبت. استرعى انتباهه أنها مهملة تمامًا كما لو كان لم يسكنها أحد منذ سنوات طويلة. نباتات الحديقة حلت محلها أعشـاب برية تنمو كيفما تأتى لها، الأشجار نمت دون أن تطالها يد بالتهذيب فتطاولت على المبنى، تقشر طـلاء واجهاته وهوى بعض من القرميـد من فوق البرج. الخصاص الخشـبي مغلق وقد تقشر طلاؤه الأخضر كاشـفًا عن الخشـب الذي أصابه العطب.

جلس عـلى مقعد خشـبي مقابـل للفيـلا مستأنسًـا بالذكريات،

امتدت جلسته حتى لم يعد يرغب في الرحيل. أحكم المساء قبضته إلى الكون ماسحًا زرقة السماء، وهبت نسمة باردة ارتطمت بظهره فاقشعر. حمل الجو معه حنينًا رائعًا فاض له الدمع. قالت نفسه له: اجلس ما شئت من الوقت متذكرًا أيامًا ولت، ثم ارحل عالمًا أنها لن تعود أبدًا. البكاء على ما فات هو قدرك، والحنين إلى أيام لم تشعر بقيمتها هو لعنتك.

-٣٢-

لأن الإنسان خلق محبًا للحياة متشبثًا بها كأنها أبدية، ولأن التعود على شيء يجعله بعد فترة مألوفًا ثم محببًا، فإن استقرار محمود في مصر لم يكن قاسيًا عليه. قرر أن يعيش في الإسكندرية، مدينته القديمة ذات الطابع العالمي. سيكون من السهل الذوبان وسط أهلها متعددي الأعراق كقطعة سكر في بحر.

تخلص من قبضة العادة، تذكر كيف كانت الحياة قبل أن يغمس عقله حتى آخره في أوهام المخدرات، تماسك وقبض على العهد، ينظر إلى أيامه التي قضاها في أسر المورفين والخلطات المدهشة، ويتكشف له أنه لم يستمتع بها على الرغم من أنه ظن حينها أنها الأسعد.

في نوفمبر عام ١٩٤٥ طالعته الصحف بصور رودلف هيس، في محاكمات أقامتها الجيوش المنتصرة في نورينبيرج، كان هزيلاً متقشفًا، فقد الكثير من بريق عينيه وحاول الانتحار مرة. أهاجت رؤية صور صديق عمره مشاعره فجلس يبكي في حرقة عليه وعلى أحلامهما،

أحلام نثرتها رياح العواصف من حولهما قبل أن تتحقق.

بدت في عيني رودلف نظرة لا مبالية، بجانبه كان جورنج يضحك ساخرًا. غبط جورنج على مجاورته لرودلف، ولكنه لم يتمن أن يكون مكانه، لا بد أن يشعر بنعمة ما هو فيه.

حكم على رودلف بالسجن مدى الحياة بينما حكم على جورنج بالإعدام، ولكن الفيلد مارشال المتباهي انتحر في الليلة التي سبقت تنفيذ حكم إعدامه، كأنها طريقته في السخرية من المنتصرين، تركهم يحاكمونه حتى النهاية، ثم أخذ حياته بيده دون أن يعطيهم لذة قتله.

فليطمئن بأن رودلف ما زال حيًّا على الأقل، ربما أفرجوا عنه يومًا ليظل أمل اللقاء باقيًا إلى الأبد.

قرر أن يترك البنسيون ويبحث عن سكن خاص، ما إن علمت أدورا بالأمر حتى تطوعت لتعريفه بأصدقاء لها يملكون منزلاً يمكنه أن يستأجر فيه شقة، وتبرعت بأن تتصل بأصحاب المنزل لتزكيته عندهم. ذهب مستطلعًا فوجده مبنى أنيقًا من ثلاثة أدوار، أمامه حديقة صغيرة في شارع بمنطقة الإبراهيمية. وجد الشقة فسيحة فارتاح لها، مكونة من ثلاث غرف، سقفها عالٍ ونوافذها المستطيلة الكبيرة تنيرها بكاملها إنارة طبيعية، البناية لا يوجد بها سوى ساكنين أوروبيين فقط إضافة لصاحبها.

مالك المنزل رجل يوناني يدعى كيتسوس، في عقده الخامس، ويسكن في الدور الأرضي مع زوجته ألينا التي تصغره بعشر سنوات. رجل غير مريح بوجه مستدير وشعر أسود فاحم يحرص على تصفيفه بالبريانتين، وقد تسلل الصلع إلى مقدمة رأسه وأجزاء منه. أبدى مرونة واضحة في

التفاوض ولم يغال فيما يطلب، فشعر محمود بالرضا لأنه لن يستنزف أمواله في الإيجار. ألينا كانت من أهم أسباب حماسه بخصوص الشقة، سيدة مكتملة الأنوثة بحر متوسطية الشكل، بشعر أسود ثائر وشفتين رفيعتين لا تبتسمان، بشرتها بها لمحة سمار كما لو كانت عائدة لتوها من الشاطئ، إلى جانب لمعة لطيفة على ساقيها وذراعيها لا يمكن أن تتجاهلها عينا رجل. والأهم كان نظرتها، نظرة آسرة بها نهم لمتع الدنيا.

قال له كيتسوس: لقد زكتك أدورا تزكية لا يمكن رفضها.

استأجر الشـقة بعد أن وقع عقدًا وديًّا، شـعر بنداء غامض وهو يزداد توغلاً في أحراش الإحسـاس بالأمان. لقد وصل شـاطئًا بعيدًا عن الخطر ودفع نظير ذلك ثمنًا فادحًا. من حقه أن يحيا حياة طبيعية، لبى النـداء في تفاؤل. كانت رجولته أيضًا تناديـه، رغبة عنيفة زادت بطول الوحدة خلال فترة الصعاب، يتوق للمسـة أنثى، ولكنه يقاوم الانخراط في مغامرات حتى ينتهي من ترتيب حياته الجديدة.

ولكن كل هذا لا بد أن ينتهي، تتمرد الحواس وتضج بالرغبة، ينضم إليها القلب مشجعًا، فيخفت صوت العقل ويتبدد في فضاء من الأحاسيس الجسدية المشتعلة بالشهوة. يقتل الحذر في لحظة غدر على يد لذة المغامرة. تدخل ألينا وسط كل هذه الفوضى متمايلة في ثقة مغرية فتوجد لكل شيء سببًا، تلتقط الأفكار فتغزلها في ثوب أحمر شفاف يغطي جسدها مجازًا، كاشفًا عن مفاتن تطير لها العقول. تتمنع في دلال فيسقط الرجال تحت قدميها لعلها ترضى، تزيد في التمنع فيكتبون وصاياهم ويقسمون لها إنهم جنودها المخلصون، تمنحهم صكوك الغفران فيقفزون من فوق أسوار حصنها المفتوحة بوابته وهم منتشون. أيا قبلة المشتاق ونهاية الطريق، يا واحة المسافر، يا كل شيء ولا شيء.

تسكره الرغبة فيجلس في شقته يتخيلها، حتى يتموج كل شيء من حوله ويشتعل، ولكنها لا تأتي. ظن أنها قد تبوح بشيء أو تتقدم خطوة ولكنها لا تفعل. قابلها مرة في أثناء نزوله فابتسم لها بكل ما أوتي من تحفظ حتى لا تنكشف لوعته، فردت ابتسامته بتحفظ مضاعف هوى به من فوق الدرج الصاعد إلى جسدها. تساءل إن كان انطباعه عنها افتراء، إن كان ضل طريقه معها بسبب رغبته المتقدة كشعلة منارة الإسكندرية القديمة، ولكنه رجل ذو خبرة، فهل طال الصدأ حكمه فطاش؟

وفي أحد الأيام بينما هو يخرج من مقهى تريانون، بعد أن قضى أمسية هادئة، رأى إعلانًا عن دروس تصوير، تبدو فكرة لا بأس بها لقضاء الوقت، اشترك في الدروس، واشترى كاميرا «لايكا» مستعملة حصلت على إشادة معلمه.

آتت الدروس ثمارها، واكتشف في نفسه ملكة التصوير، فجعله هوايته الجديدة.

بقيت ألينا مستعصية عليه، المرأة الملتهبة لا تُقْدِم ولا تُدْبِر، تقف مكانها في ثبات وثقة. كلما قابلها اختل ميزان يومه ورجحت كفة رغبته حتى ترجح. أقسم إنه إذا نالها فإن ما سيفعله بها يصلح كمادة لكتاب في فنون العشق الماجن.

موعد دفع الإيجار الشهري كان الفرصة الوحيدة ليستمتع بجلسة مختصرة معها، يسأله كيتسوس بفضول عن حياته، فيرد عليه محمود بعربية ما زالت تحبو، وذهن شارد في تلك الفتنة التي تجلس أمامه صامتة توزع نظراتها بينه وبين زوجها، نظراتها تقول الكثير، إلى متى يستمر هذا الجمود الذي يحيره؟ إن إطالة الأمور تصل بها إلى حد السخف.

بقدر ما كانت أسئلة كيتسوس تثير حنقه، كان سكوت الـ... عاصفة من جنونه تجاهها. غامضة على نحو رائع وهي تجلس بكامل أناقتها، واضعة ساقين نحتتهما يد فنان واحدة فوق الأخرى، بينما عيناها مسلطتان عليه في دعوة مفتوحة لكل الاحتمالات.

عندما رأته في مرة يحمل الكاميرا قالت في اهتمام: هل أنت مهتم بالتصوير؟

قال شاكرًا الفرصة: تعينني على تزجية وقتي.

ابتسمت وتمنت له يومًا سعيدًا، ابتعد وهو يتأرجح في الحيرة بين السعادة والأسف.

كان قد مر عليه نحو عامين في مصر، نوبات الحنين إلى وطنه لا تفارقه، تداهمه بلا ميعاد فتفسد مزاجه، يحاول العثور على ما يربطه بهذه الأرض فلا يجد الكثير. تتابعت زياراته لمنزله القديم، هذا هو الشيء الوحيد الذي يشعر معه برابط، ولكنه رابط ذو طعم مالح مبلل بالدموع. لا يمكنه قضاء بقية حياته على هذا النحو، لا بد أن يعود إلى ألمانيا.

قرر أن يبعث بخطاب إلى ذلك العنوان في سويسرا قال فيه:

عزيزي ولفريد

الحياة هنا لا تسعدني، فإن كان قد كتب عليّ أن أعيش في الظل، فإنني أفضل العودة إلى وطني.

بعث بالخطاب وانتظر له ردًا تمنى ألا يتأخر.

قرر أن يحمض صوره بنفسه، طلب المشورة من أستاذه، فخط له في ورقة عنوان صديق له يقبل أن يعلمه ما ينبغي نظير أجر معلوم.

بعد أن تعلم ما يلزم، قرر أن يخصص الغرفة الثالثة في شقته لعرض الصور.

استأذن كيتسوس في أمر ما عزم عليه بلطف، فقبل الرجل وبهذا أصبح لدى محمود هواية تشغل الكثير من وقت فراغه الذي لا ينتهي.

قالت له ألينا وهو صاعد إلى شقته ذات يوم: لقد وصلك خطاب.

تناوله من يدها وابتسم لها وقلبه يخفق، كانت أول مرة لا يوليها اهتمامًا، ولكنه عد تسلمه من يدها بشرة خير.

قرأ فيه:

عزيزي محمود

ولفريد وهيوجو قتلا في الأيام الأخيرة من الحرب وتفككت المجموعة. أرجو لك التوفيق في حياتك وأعتذر عن عدم مقدرتي على مساعدتك بعد اليوم.

أظلمت الدنيا في عينيه، لقد فقد الأشخاص الوحيدين القادرين على مساعدته ومعهم تذكرة رجوعه إلى ألمانيا، اللهم إلا لو كان ينوي العودة في مغامرة غير محسوبة، فإنه باق في مصر إلى نهاية عمره.

دهمته كآبة سوداء كأنها الليل يزحف على روحه مظلمًا كل شيء في داخله، ليل بلا قمر ولا نجوم، سواد مطلق لم يشقه خيط ضوء منذ بدء الخلق، دعوة للتخلص من الحياة والراحة الأبدية في برزخ مجهول.

قضى أيامًا لا يغادر المنزل، إلا أنه في نهاية كل ليلة لا بد للنور أن يبزغ، وجاء الضياء هنا في صورة ألينا، الشمس الحارقة الملعونة في كل الكتب. زاره كيتسوس على غير ميعاد كرسول يحمل له خلاصه

عندما قال: أتمنى أن توافق على التقاط مجموعة صور لألينا.

ألينا، يا مكمن الشعلة المتوهجة في جوفي، شعر بفوران في رأسه من الفكرة، شمسها تشرق عليه فتغطي على ضوء الشموع التي أشعلها، لتنير له ما تبقى في نفسه المنهكة من طول ليلتها الظلماء. لم يمنع نفسه من الاندهاش وهو يقول: لماذا لا تذهب مدام ألينا إلى استوديو تصوير؟

قال كيتسوس بطريقة مرحة لا تخلو من التلعثم: تريد شيئًا طبيعيًا.

قال محمود متشبثًا بالحلم المفاجئ: هذا يسعدني.

تفتحت نفسه، وشعر أن هذه الدعوة بمثابة مواساة على ما حملت له الرياح الآتية من سويسرا من أخبار بائسة، مواساة تبشره بأن الحياة في مصر قد لا تكون في النهاية بهذا السوء. ألينا لن تسمح بهذا بالتأكيد، ستتدخل لكي تسعده وترتب له حياته، وستنجح.

-٣٣-

في موعـده جلـس ثمـلاً بالآمـال الآثمة وهـو يبتسـم في حرج. كيتسـوس يضحـك في عصبية على كل كلمة تقال، بينـما ألينا كعادتها غامضة قليلة الكلام، وإن وشت عيناها بحماس ترك فيهما بريقًا. ترك محمود نفسه عرضة لأهوائه حتى شعر أنه لا يتحكم في شيء.

قال كيتسـوس وعصبيته لا تفارقه: نتمنى أن نجد طلبنا في عدسة كاميرتك.

قال مغالبًا الحيرة والأمنيات: وما طلبكم؟

ـ الجمال في صورته الطبيعية.

ـ جمال مدام ألينا سيجعل مهمتي سهلة.

تهلل وجه كيتسـوس، وقال وهو يقوم من مكانه مغلقًا زر سـترة بذلته إيذانًا بالرحيل: هذا عظيم.

قال محمود وهو يهم بالقيام: أين تودان الذهاب؟

ـ ستبقيان أنتما، أنا من سيرحل.

ثم أضاف موضحًا: لدي أعمال لأنجزها.

بوغت محمود بكلام الرجل الذي رحل تاركًا إياه مع ألينا وحدهما، بدأت جلسة التصوير وهو يعطيها إرشادات ما يتوقع منها أن تفعله، أين توجه بصرها، كيف تضع يديها وكيف تجلس، استسلمت، سألها وهو غارق في تفاصيلها عبر عدسة كاميرته الضيقة: تعجبت عندما جاءني كيتسوس.

ـ ما الذي يدعو للعجب؟

ـ في المدينة مصورون محترفون أكثر مهارة مني.

قالت بجديتها المعتادة: أنا أبحث عن عين تستطيع الانبهار بالتفاصيل، ذلك يخرج بأروع نتائج.

ـ إن تفاصيلك تثير انبهار أعتى المحترفين.

ابتسمت الشفاة الجادة قليلاً قبل أن تعود لجمودها، فاشتعلت النفس وطالبت بالمزيد. لم يطاوعه لسانه فآثر الصمت عوضًا عن إضاعة فرصة لم تكن تخطر ببال. قالت له فجأة مستأذنة: اعذرني لخمس دقائق.

تركته غارقًا في تأملاته بشأن ما هو آت، ودخلت غرفتها قبل أن تخرج مرتدية معطفًا منزليًا من الحرير الأزرق، نظر إليها حالمًا وعد نفسه أكثر الرجال حظًا.

قال لها بنبرة مقصودة: لا أريد أن أسبب متاعب.

قالت باستنكار غير حقيقي: لا أفعل شيئًا أخجل منه.

تظهر أنوثة كاسحة، فإن كانت لا تخجل مما تفعل فهي لا تعرف معنى الخجل ولم تختبره من قبل، نظرتها الواثقة هي نظرة امرأة تعرف بالضبط ما تريد، غامضة ورائعة.

انتهت الحال بالمعطف على الأرض، وألينا مستلقية أمامه تعرض فتنة لا تقاوم تاركة نفسها لعدسته تعب اللقطات لجسدها كما يشاء، طار العقل كأنما أصابته صاعقة وانتشى القلب بقرب الوصول إلى ما يشتهي، أيا ليالي الحرمان اذهبي بغير رجعة.

قال وهو ينظر إلى تفاصيلها حائرًا: ماذا تحاولين فعله بالضبط؟

ردت وهي تتمطى ناظرة إلى السقف: أكرم جمالاً يستحق المديح.

ـ والله لم تعطه حقه.

رفعت رأسها إليه وقالت متسائلة: وكيف يكون التكريم المناسب برأيك؟

قال في مراهقة متأخرة: بألف قبلة فوق جسدك الساحر.

قالت في شمم وعروضها لا تتوقف: أتظنني امرأة خائنة؟

قال وهو ينزل الكاميرا ويوجه كلامه إليها: بل أنا رجل لا يعرف للعفة طريقًا يا سيدتي.

قامت من مكانها على الأرض واقتربت منه، بينما هو يكاد ينفجر ويسقط متناثرًا في ضعف ثم قالت هامسة في أذنه: ليس في فراشي.

قال في ذهول: منزلي كله تحت أمرك.

ابتسمت ثم قالت وهي تتناول معطفها: اسبقني إليه إذًا.

بعد نصف ساعة قضاها ضائعًا وسط إلهام من اللقطات التي تنهمر

في رأسه، جاءت معذبته تدق على الباب في خفة وهي تحمل زجاجة من الأوزو المعتق، ألعاب نارية لا نهاية لها انفجرت في فضاء غرفة نومه تحمل معها ألوانًا زاهية واستعراضات، أحلام المراهقة امتزجت بحرمان الليالي الطوال صانعة ثمارًا يانعة قطفتها ألينا بسرور، غمستها في شهدها الملكي فتحولت إلى أساطير كتبتها يد الجن المسحورة، وسردتها الجواري على آذان ملوكهن فنافسن شهرزاد.

لا يدري متي انتهى ولا متى غرق في نوم عميق، استيقظ ليجد ألينا قد رحلت تاركة مذاق الشهد في فمه. قام متثاقلاً وهو يتساءل إذا ما كانت السن هي سبب فقدان الهمة، أم أنها قد أنهكته بشكل لا يقوى عليه ابن الثامنة عشرة؟

هل ما حدث كان مخططًا له، أم أن الأمور خرجت عن المقدر له وسيطاله انتقام زوج مغدور في شرفه؟ تناول عشاءه بشهية مفتوحة، ثم دخل إلى غرفة التحميض ليظهر صور ملهمته وبطلة قصصه منذ اليوم. هذا اليوم المشهود الذي نال فيه أخيرًا ما يريد بالضبط.

استغرق بالكامل فيما يفعل واحتاج الأمر إلى الجهد والعناية، خلد إلى نوم مريح جاءته فيه كاثرين فاتحة ذراعيها وهي محمولة على رياح شمالية باردة، فتجاهلها وهو يعدو ناحية جزيرة في البحر المتوسط تجلس ألينا عارية على شاطئها تغني. نادى عليها ملهوفًا ولكن صوته لم يخرج من حلقه، كرر المحاولة مرات دون أن تلتفت إليه، عاد الواقع يحيط به وتجسدت الماديات ليكتشف أنه يهمهم في نومه بصوت حزين، قبل أن يستيقظ متحسرًا.

كان الكون ما زال يغرق في ظلام هذه الساعة قبل الغسق، قام فجلس في الغرفة الأخرى مدخنًا سيجارة. أدار أسطوانة فالكيري

فاجنـر، فكاد يرى الآلهة المحاربة وهي تهبط من السـماء على عرباتها الفشـة النار والشـهوة، يريد ألينا ثانية، يتمنى لو يسـتطيع الذهاب إلى غرفـة نومها ليعيث فيها فسـقًا، حتى تنادي اسـمه في لوعة العشـاق وتقع في غرامه إلى الأبد.

على صوت الموسيقى الفخمة دخل غرفة التحميض، المكان الوحيد الذي يمكنه فيه أن يقابلها، على الأحبال الممدودة في الغرفة كانت الصور معلقة لتجف وتظهر مكنونها. النور الأحمر الدافئ يلقي بظلاله على عشرات الصور لألينا، عارية في أغلبها، وكلها بلا استثناء تنضح بالرغبة المشتعلة.

جـاءت أولى مقابلاتـه مع كيتسـوس بعد ما حـدث محرجة، لقد وطـئ زوجته منذ يومين وها هـو يقف الآن معه يتبـادل حديثًا وديًّا باسمًا، قال له الرجل: ألينا مندهشة من مقدار براعتك.

عن أي براعة يتحدث هذا الرجل؟ هل أنت قواد يا كيتسوس؟ إذا كان الأمر كذلك فمرحى، أما إذا كنت مغفلاً فهذا غير مريح، انتقام الزوج المغفل يكون عظيمًا.

جاءت ألينا وفي يدها زجاجة أوزو معتق أخرى، استقبلها بشوق بادلتـه بعضًا منه، أخذهـا من يدها إلى غرفة التحميـض ليريها المعبد الذي شـيده لجمالها ويتلقى منها عرفانًا، برقت عيناها في شغف وهي تتطلع إلى نفسـها في كل مـكان، وقفت أمام صورهـا العارية تتأملها طويلاً قبل أن تقول له في جراءة: هل يعجبك جسدي؟

- يبهرني.

- اشرب إذًا هذه الكأس في صحتي.

شرب ثم قال لها: ترى أي الصور يجب أن أعرضها على زوجك؟

ـ كلها، ردت في ثقة.

ـ كلها؟

سألها متأكدًا.

قالت له في شمم: أتظنني امرأة خائنة؟

قال في كذب صريح: حاشا لله، إنما أنت امرأة عاشقة.

شرب كؤوسًا أخرى ليغسل كلماته التي أشعرتها بالإساءة، دار رأسه لتختلط اللحظات بالأساطير وهو في أحضانها، بالضبط كما حدث في المرة السابقة حتى غرق في جب عميق.

عندما استيقظ في الليل كانت قد رحلت مرة أخرى، طعم الشهد ما زال في فمه وإن اختلطت به عكارة غير مطمئنة، ما قصة هذا النوم الذي يأتي فجأة؟ هل كبر في السن حقًا أم أن هناك خطبًا ما لا يدريه؟

قام متمشيًا في الغرفة محاولاً وزن رأسه الثقيل بلا داع، لاحت منه لفتة تجاه درج لا يفتح في مكتبه فوجده مواربًا، فتحه في شك فوجد آثار يد عبثت به. يعرف جيدًا وضع كل شيء في بيته، يده تضعه في مكان معين بميزان حساس ويتذكر عقله التفاصيل، قد يكون فقد حذره إلا أنه لم يفقد ذاكرته بعد، هذا الدرج تم العبث بمحتوياته.

نظر حوله متشككًا، فبدأت عيناه تلاحظان على ضوء هذه المعلومة آثار عبث في أركان أخرى من المنزل.

وقعت كأس الأوزو تحت ناظريه، تأملها للحظات قبل أن تقفز إلى رأسه فكرة شيطانية مقيتة، ألينا أيتها الغانية! من أي باب من أبواب جهنم أتيت؟ وإلى أي قاع تقودينني؟

إن هذه الحسناء الغاوية تخدره، فعلتها به مرتين، كل مرة يشرب من زجاجتها ينام لا يدري متى. هذا ليس سلوك جيران طبيعيين.

دخل إلى معبدها المقدس وبدأ تجميع الصور وهو ينظر إليها في عتاب صامت، لم تعده بشيء لكي يعاتبها عليه، أعطته جسدها ولكنها كما هو واضح فعلت ذلك لغرض ما، ليس السرقة، فزوجها أغنى منه، إنه الفضول بالتأكيد.

تصاعدت وتيرة قلقه وتحولت الإشارات التي يتلقاها من حاسته السادسة إلى فضائح، لا بد أنهما قد شكا فيه، ما هي إلا مسألة وقت ويتم إلقاء القبض عليه. مَن يدري؟ لربما كان الإنجليز في طريقهم إليه الآن.

حاول تهدئة قلقه مذكرًا نفسه بالمتاعب التي أوقعته فيها حاسته الخائبة تلك من قبل، ولكن قلقه لم يفتر، الناس لا يدخلون بيوت الآخرين لتخديرهم ومن ثَم يفتشون في أغراضهم، وبدل المرة مرتين.

كانت الساعة قد تخطت منتصف الليل بقليل، غرق المنزل في الهدوء إلا من صوت دقات الساعة التي لا تكل، يخفت صوت الرياح في الخارج قليلاً وتحل محلها أصوات نقاش حاد، يقترب من النافذة ليتبين مصدره فيسمع صوت كيتسوس وألينا يتراشقان على نحو أتاه خافتًا. يقول كيتسوس منفعلاً: أنت فاشلة، لا تستطيعين أن تفعلي شيئًا وحدك.

تجيبه ألينا في تحدٍّ: أفعل ما أفعله في الفراش وحدي.

ـ هذا كل ما تبرعين فيه، ولكن ليس العثور على شيء في شقة هذا العجوز المراهق.

أصابته كلمات كيتسوس بالمرارة، وأشعلت بداخله بركانًا خامدًا لو طالت حممه الرجل لأحرقته، أهكذا يراه هذا القواد؟ هل غدر به الزمن إلى هذه الدرجة؟

- ربما ليس لديه ما يخفيه.

قالت ألينا بعنف.

- ما هذا الكلام؟ إن كل شيء فيه ينضح بأنه نازي هارب.

- ليس من الضروري أن يحضر معه ما يدينه يا كيتسوس. توقف عن الغباء.

-إنما أنت فاشلة ليس إلا.

- تعال معي المرة المقبلة وأرني براعتك، إن المخدر يجعله ينام كالقتيل.

لن تكون هناك مرة مقبلة أيتها الفاسقة شديدة الفتنة، هذا يكفي تمامًا.

فليرحل من هنا وقد تأكدت مخاوفه، لا يمكنه المكوث في هذا المنزل، أصبحت كل ثانية تضيع دون أن يبدأ التحرك تقربه أكثر من السجن مدى الحياة، أو الإعدام.

الوصف الذي نعته به كيتسوس يرن في رأسه ويؤلم كرامته، بينما هو يلملم ما يستحق في حقيبة كبيرة، خرج من شقته وأغلق بابها خلفه بحذر، الدرج يغرق في الظلام، مر بهدوء من أمام شقة كيتسوس فلعنه في سره.

خرج إلى الشارع ليتلقفه هواء المساء البارد مطيبًا خاطره. الشوارع صامتة كأن أصحابها هجروها، أعمدة الإنارة تلقي على الأرض

شباكها المصنوعة من النور تحاول اصطياد العابرين، بين كل اثنتين مساحة معتمة كأرض مجهولة لم يكتشفها إنسان.

عندما وصل إلى الكورنيش كانت حقيبة السفر في يده تثقل عليه، تُخِلّ بمشيته وتجعل مظهره لافتًا كرجل قذفت به امرأته في الشارع بعد خلاف عميق. لا يريد هذا الجنون، ولكن أين المفر؟ كل شيء مغلق والناس ما زالوا مختفين إلا سمار آخر الليل، دراويش المتعة والعشق.

عليه العثور على مكان يقضي فيه ليلته، هناك بنسيون غير بعيد، وصل إليه فوجده مغلقًا. لماذا؟ ألا يريد صاحبه المزيد من الرزق؟

رأى سيارة أجرة تمر وحيدة، فأوقفها طالبًا من سائقها أن يأخذه إلى حيث يظن أنه ملجأه الوحيد.

فيلا والديه، جلس أمامها على دكته الخشبية الأثيرة، معلقًا عينيه عليها كأنه يطلب من الراحلين مشورة لا تأتي. اتخذ قرارًا جريئًا فقصد المبنى المتشح بسترة الليل. قفز فوق السور الصغير مهرولاً ناحية الجانب الشرقي، عند نافذة صغيرة في البدروم خلع سترته ولفها حول يده، وضرب الزجاج ضربة محكمة حطمته. قفز داخلاً لتستقبله رائحة العطن التي تشي بطول الهجر. عندما صعد إلى الطابق الأرضي كان الضوء المتسلل من الشارع كافيًا لكي يرى ما حوله.

ما زالت الفيلا كما هي، ولكن الغبار يعلو كل شيء، وأخشاب الأرضية تئن من وجوده، هنا كان يلعب بين السلم والمدخل، هنا كان أبوه يجلس مستمعًا إلى الموسيقى وإلى ثرثرة أمه المحببة، ما زال الجرامافون في مكانه، وما زال مقعداهما كما هما.

أصابته لوعة دامت دقائق، تقدم في صمت من درج الأسطوانات فأخرج أسطوانة، وضعها في الجرامافون ثم بهدوء بعثته الخشية والرجاء وضع الإبرة فوقها، فتصاعدت موسيقى حالمة ملأت أركان المكان وامتلأ بها وجدانه. أغمض عينيه وهز يده مع الإيقاع، ببطء بدأ الضياء يغمر المنزل كاشفًا عن تفاصيل كل ما به بألوان زاهية، ضوء دخل شعاعه من النافذة العريضة في الواجهة فنفذ إلى جنبات الظلام وغمر روحه. تصاعدت الموسيقى أكثر فانفض الغبار وبرقت الأركان بأثاثها. رأى أمه وأباه جالسين ورأى نفسه صغيرًا يلعب بينهما. نادت عليه أمه فذهب إليها لتحتضنه في حب، قبل أن تقول شيئًا لأبيه فيضحك وهو ينظر إليه في سرور. ابتسم وملأت روحه نشوة أشعرته بأن الحياة ما زال بها ما يستحق أن يعيش من أجله. اقترب أبوه منه ثم انحنى ليقارب طوله الصغير ويقول له بصوت حنون: لست وحدك، نحن معك أينما ذهبت. نظر إلى أمه مستفسرًا فابتسمت له مؤكدة.

بينما هو غارق في نشوته بدأت الموسيقى تخفت وتبتعد، وبدأت عوالم الواقع تتشكل من حوله مرة أخرى بماديتها الكئيبة المنفرة، حاول إعادة الفكرة إلى رأسه مرة أخرى فلم يفلح، أغمض عينيه متشبثًا بها فجمحت وابتعدت، تمسك بأطرافها النورانية ليبقيها فتمنعت حتى اختفت. فتح عينيه ليجد كل شيء قد عاد كما كان مظلمًا وخاليًا، إلا من صوت أنفاسه الوحيدة أمام الجرامافون الصامت منذ عقود.

نظر حوله في حسرة قبل أن يصعد إلى الطابق العلوي، قادته قدماه إلى غرفته القديمة، الأثاث لا يزال في مكانه، الساعة الصغيرة المعلقة على الحائط، وفي وسطها رسم طفولي لعصفور يقفز فرحًا. جلس

على طرف الفراش المترب، اجتاحه الحنين بعنف فانقلب إلى حسرة عميقة تؤلم القلب. وضع سترته تحت رأسه واستلقى على السرير، نظر إلى السقف وراح يمتع عينيه بالنظر إلى إطاره المزركش الذي طالما استرعى انتباهه صغيرًا، حتى ابتسم بقلب مثقل ثم سقط في أحضان النوم.

استيقظ في الصباح وذهنه أكثر صفاء، قضى وقتًا يتأمل الفيلا في ضوء الشمس، وقبل أن يخرج منها مر على غرفة أبيه وأمه طالبًا مباركتهما فمنحاه إياها بنفس راضية. رأى حياته تمتد أمامه كطريق مرسوم، تسلح بعزيمة كافية لمغالبة المجهول، ملأ عينيه بما حوله عالمًا بأنه لن يراه ثانية، خرج متسللاً كما دخل وهو ينفض الغبار عن ملابسه، شاهد مركب صغيرة تبحر مبكرة في القناة في دعة. ابتسم للفيلا مودعًا، ابتعد عنها بكل ما تحمل من رمزية الماضي واتجه في طريقه. داعبت نسمة هواء منعشة خصلات شعره، ومن ورائها لمست الشمس وجهه بلطف، كما لو كانا يطمئناه بأن الآتي أحلى.

كان شاردًا غارقًا في أفكاره حين فاجأه صوت مكابح شديدة، لم يجد الوقت حتى ليتلفت إلى مصدر الصوت، طار في الهواء ثم سقط على الأرض متحطمًا. انقلب على ظهره متراخيًا وماد به الوجود. فتحت السماء أبوابها وخرج منها شعاع ضوء عبرت من خلاله خيالات نورانية تهبط مسرعة ناحيته. أنجيت من جوزيف جوبلز في برلين لتقتلك سيارة في الإسكندرية؟ كم أنت تعس يا محمود، إن كان فقط يستطيع إرجاع الزمن لحظي بميتة أقل حسرة وأكثر عظمة.

-٣٤-

ما هذا الشعور اللطيف؟ خدر شامل ودود كصديق قديم يتذكره جيدًا، شيء واحد فقط يمكنه أن يصيبه بهذه النشوة، المورفين! مرحبًا بك أيها الصديق الرائع، كيف عشت هذه السنوات دونك؟ تعال عانقني فقد افتقدتك بصدق، احملني معك إلى سحابة في السماء واتركني فوقها. يا حبذا لو تركتني أختارها، أشعر اليوم برغبة في امتطاء بجعة بيضاء، أريدها وديعة ومسالمة، فقد أصبت خريف عمري ولا طاقة عندي لبجعة محاربة. طار في السماء يتفقد السحب، هذه على شكل أرنب وهذه تشبه الفيل، لا أحب الأرانب ولا الأفيال. أين سحابتي التي طلبتها؟ لماذا يجب أن أحصل على كل شيء بمشقة؟ شعر بالحنق فتساءل في نفاد صبر: أليس هناك من نسأله عن بجعة هنا؟

أشار المورفين في صمت إلى سحابة على شكل طائرته في الحرب العظمى الأولى، فقال محمود وهو يقترب منها فيجد أن هناك من

يسطيها: إنها كاثرين! ولكنني لن أركب هذه الطائرة الملعونة ثانية.

صاح بصوت عالٍ: كاثرين! تعالي معي لنبحث عن بجعتي ثم أحكي لكِ عما حدث لي في غيابك.

ولكنها لم تلتفت إليه وهي تحلق بالسحابة مبتعدة، نادى بصوت أمل: كاثرين! لماذا تبتعدين؟

استمرت في تجاهله فصاح محاولاً استعطافها: لقد حاولت إنقاذك يا حبيبتي.

التفتت إليه ويا ليتها لم تفعل، وجهها أزرق متجمد وقد تخثر الدم حول شفتيها وتحت أنفها، وتبعثر شعرها المقصوص من جانب واحد دون الآخر، عيناها جاحظتان ورقبتها وصدرها يحملان آثار جروح غائرة. فتحت فمها كاشفة عن أسنان محطمة وقالت له في مقت: أيها الخائن الجبان، أنا أكرهك.

اضطربت أعصابه واختلج قلبه بعد أن كاد ينعم بدفء اللقاء الذي طال، ولكن كاثرين لم تأبه به، وأكملت ابتعادها تاركة إياه يقول في لوعة: عودي يا حبيبتي، لا تتركيني!

فجأة اقتحم صوت ناعم خواطره قائلاً بالإنجليزية في إشفاق: المسكين يهلوس!

عاد إليه القليل من وعيه، لم يستطع إدارة عنقه ناحية الصوت فحاول حتى استسلم. لم يفهم سبب عجزه ولكن الحنق الذي سيطر عليه في أحلامه استمر معه في صحوه فقال بالألمانية: من أنت وماذا تريدين؟

قال صوت جديد خشن بالإنجليزية: ماذا يقول؟

جاوبته صاحبة الصوت الأول: لا أدري، إنه يتحدث بالألمانية.

تشوش عقل محمود وداهمته آلام فتأوه وزاد حنقه. قال بصوت أراده عاليًا فخرج واهنًا: لماذا تكبلونني؟

قال الرجل: ابعثي في طلب الدكتور مصطفى، إنه يتحدث الألمانية.

دهمته موجة متعالية من التشوش فاختفت الأصوات من حوله، وجد نفسه يمشي في أرض قاحلة تفجرت فيها الدماء والحمم وتناثرت من حوله هياكل عظمية فاغرة أفواهها على ضحكات خاوية. مشى يتخبط دون هدى وهو مكروب حتى شاهد عن بعد رجلاً يمشي منحنيًا، فهرع ناحيته ليجد أنه جوزيف جوبلز، انقض عليه في مقت وهو يلعنه ولكنه لم يتزحزح. أراد أن يكيل له اللكمات ولكن يديه لم تطاوعاه، فجن من عجزه وظل يصرخ بصعوبة في وجهه: أيها الملعون! التفت إليه الأخير دون تعبير وتساءل: ماذا تفعل في الطريق إلى الجحيم يا محمود؟

رد في شراسة: أزفك إليها أيها النجس.

- لقد سبقني هتلر وباقي الزملاء، أنا أسير في أعقابهم منذ زمن طويل.

تلونت السماء بلون أحمر بعد أن أصابها برق يخطف الأبصار، وارتفع صوت هزيم رعد صم أذني محمود الذي قال بذات الشراسة: ما زلت على قيد الحياة، أما أنتم فقد نفقتم دون أن يحزن عليكم أحد.

- هنيئًا لك بحياة لا تحبها. قالها جوبلز وهو يكمل سيره.

- يهونها عليّ خاطر أنك في الجحيم مع الشياطين.

اشتدت الرياح وعلا صفيرها، بينما جوبلز يقول له وهو يبتعد: ستلحق بنا ذات يوم.

ـ هيهات أن يجمعني بكم مكان واحد.

كرر محمود ما قاله كما لو كان الإصرار يغير القدر، ثم قال مودعًا: بلّغ لعناتي لهتلر.

وقف يلهث من مجهود اللقاء، ثم نظر خلفه ليجد أعدادًا لا تحصى من البشر يمشون ناحيته. كانوا جميعهم يسيرون مثل جوبلز بالبطء نفسه والانحناء نفسه دون أن تبدو على وجوههم أي تعبيرات، منظرهم بائس وشقاؤهم واضح لا يحتاج إلى عنوان. شعر بالتوتر يداهمه. إن كان هذا هو الطريق إلى الجحيم فماذا يفعل هنا؟ سمع فجأة صوتًا يقتحم عليه أفكاره متحدثًا بالألمانية: هل تسمعني يا سيد هانس؟

قال محمود في حيرة: هانس من؟

ـ أنت، هانس فريدريتش.

رد بنفس الحيرة: لا أعلم عمن تتحدث. ثم أضاف متألمًا: لماذا لا أستطيع فتح عيني؟

ـ لقد خضعت لعملية جراحية ناجحة وستتعافى منها سريعًا.

ـ لا أتذكر شيئًا.

ـ تحتاج إلى الراحة يا سيد هانس، وددت لو...

قال محمود في عصبية: هانس مرة أخرى، ماذا دهاك؟

رد الصوت عليه بهدوء: أعتذر، هل تتذكر اسمك إذًا؟

ـ اسمي محمود تيمور، هل يمكن للمرء أن ينسى اسمه؟

تبادلت الأصوات من حوله حديثًا بالإنجليزية ضاق به صدره واعتبره تجاهلاً مقصودًا، فقال وعصبيته تتزايد: رد عليّ، إنك تتحدث مع مدير مستشفى برلين.

تجاهله الصوت مرة أخرى وهو يترجم ما يسمع إلى من حوله، فقال في منتهى الحنق: أنا صديق شخصي للفوهرر وجوزيف جوبلز! ثم تذكر شيئًا فأضاف: النجس!

ساد الصمت لمدة ثوانٍ قبل أن يعاود الصوت حديثه معه بهدوء: هل أنت متأكد مما تقول؟

ـ هل أعرفك يا هذا لكي أمزح معك؟

ـ وماذا تفعل هنا يا سيد محمود؟

ـ ما هذا السؤال العجيب؟ أنا مدير هذا المستشفى.

قال الصوت بالإنجليزية لمرافقيه: إن ما يقوله يستدعي بعض الفحص، فإما أنه يهذي من أثر الحادث، وإما أنه نازي هارب أوقع به المورفين فاعترف على نفسه.

احتاج محمود لبقية اليوم كي يعود إليه إدراكه، عندها أيقن أن الأمور ليست على ما يرام. لم يدر ماذا قال ولكن كل شيء حوله كان مريبًا. وجد نفسه مكبلاً في فراشه بأصفاد حديدية. هذا شيء يفوق شد وثاق مريض يفيق من التخدير، تأكدت مخاوفه عندما جاءه ضابطان إنجليزيان للتحدث معه، كان تحقيقًا قام فيه الطبيب بدور المترجم. محاولة ادعاء أنه هانس فريدريتش وإصراره عليها قابلتها رغبة ملحة من المحققين في دفعه لقول الحقيقة، الرعب الذي أصابه

لم يفده، بل وضح على وجهه فزادهما إصرارًا على تكذيبه.

في اليوم التالي أخرجا له صورة فوتوغرافية لهتلر أمام برج إيفل باريس، حيث وقف منتصرًا ومن حوله رجاله. يتذكر هذه الصورة الملونة جيدًا. قال له الضابط بهدوء وهو يشير بإصبعه إلى من يقف خلف كتف هتلر مباشرة: لم تتغير كثيرًا يا سيد محمود.

لا فائدة ترجى من الإنكار، صورة يتيمة له مع هتلر كشفته وهو من عاش دائمًا في الظل، قبس واحد من الضوء كان كافيًا للإيقاع به، لقد خسر معركة الهروب، تذكر خوفه من تلك اللحظة، ها هي تتحقق. لقد وشى به صديقه القديم، المورفين، يا للسخرية المقيتة الهازئة. هو الذي سعد في البداية بسطله بعد طول امتناع، ها هو سحره ينقلب عليه والمورفين ذاته الذي كان السبب الرئيس في أن يتسبب في إفساد حياة ناس وتكديرها، يفسد عليه حياته هو الآن، ويخط كلمة النهاية في كتاب هروبه.

أعلن استسلامه، لقد هزم في هذه اللحظة بالذات، ها هو يعلنها واضحة، لن يحاول الهرب مرة أخرى حتى لو استطاع فافعلوا ما أنتم فاعلون، وليلعن الله كل يوم مر عليه وهو خائف. لم يثمر الخوف فائدة تمنع عاقبة هذا اليوم، وإنما مهد له بشكل مزعج أفسد عليه أيامه، وأوقعه في هوة سحيقة من القلق المستمر.

عندما خرج من المستشفى بساق في جبيرة إلى سيارة نقلته كالأسرى إلى مكان مجهول، أيقن بأنه سيبدأ رحلة جديدة، ويزداد يقينه بأنه مقبل على مصيبة.

لم يحاول إنكار شيء في التحقيقات وإن ادعى البراءة، كان التعب

هـو ملهمه، والحزن على ما كان وما سيأتي هو مـا يعطيه الطاقة عل الإجابة. لم يذق للنوم طعمًا، في الصباح تناول إفطاره بشهية مفتوحة، كيف يأكل بهذا الحماس وهو في الأسر؟ هذا سلوك حيوانات السيرك، فليقدم عرضًا طيبًا إذًا.

تمنى لو كان التعود على المصائب يقلل من تأثيرها، للأسف لا، عندما أخبروه بأنه سيتم نقله إلى إنجلترا وجد نفسه في شدة القلق كعذراء في ليلة عرسها.

في إنجلترا شـعر أن للجو رائحة ومذاقًـا مختلفين، لا بد أنه مذاق الأسر، كان المطر ينهمر ولون السـماء رمادي، انقبض صدره وتشـبع بقلقه فازداد طعم الهواء في فمه غرابة.

وضعوه في سـجن ذي أسـوار عالية بني من أحجـار قديمة كأنها فككت من إحدى قلاع العصور الوسـطى، كئيب كما ينبغي لسجن، وإن لم تكـن عليه أبراج حراسـة أو أسـلاك شـائكة. هو شـخص لا يخشى منه على أي حال.

زنزانته غير مريحة، قال له حارسـه شيئًا وهو يغلق الباب فهم منه أنه يشـير إلى الطعام. على الرغم من شـدة جوعه سحب عليه الغطاء ونام في أقل من دقيقة. اسـتيقظ بعد مدة لا يعلمها شاعرًا بتعب يدق عظامه كأنه يُضرب بمطرقة خشـبية. عندما تذكر أين هو شـعر بكآبة خانقة، هناك نافذة صغيرة تطل عليه من ارتفاع يسـتطيع أن يرى من خلالها السـماء فقط، مظلمة وغيومها كثيفة. اتجه إلى الحوض ليغسـل وجهـه فكانت المياه مثلجة. انتظر قليلاً لعله يصيبها بعض الدفء ثم تذكر أنه في سجن وأن ما يطلبه سخيف.

الآن يريد أن يأكل، دق بيديه على الباب مرات عديدة حتى انفتحت الكوة الصغيرة كاشفة عن وجه غير مرحب، أشار إلى فمه علامة الأكل، جاء الطعام بعد فترة طالت وسط تذمر معدته، عصيدة بنية اللون لا يعلم كنهها، وقطعة خبز صعبة المضغ، وحبة بطاطس أكلها بقشرتها.

لم يأته أحد لمدة يومين. يستطيع أن يتدبر أمر حياته كلها في هذه الزنزانة. أراد أن يقنع نفسه بأنه كان إنسانًا جيدًا فلم تطاوعه على ذلك، يعلم أنه كان مؤذيًا للناس وأولهم الأقربون، هذا ليس شيئًا يؤخذ به، ولكن من أدراه أن هذه المحاكمة ليست صورية، وأن حكمها ليس محددًا بالفعل؟ في هذه الحالة فليتعود على عصيدته المجهولة، فإنها ستكون طعامه الوحيد لسنوات طويلة. هذا إذا لم تجنح المحاكمة إلى نهاية مأساوية ينتهي فيها عنقه ملفوفًا بحبل غليظ خشن.

-٣٥-

نصف الساعة التي يخرج فيها يوميًّا من زنزانته للتريض تزيده كآبة، يمضيها في فناء ضيق تحيط به جدران عالية، فوق رأسه سماء لا يظهر الأزرق فيها على الإطلاق، ولا يتوقف انهمار المطر منها إلا بمعجزة. يعود إلى زنزانته وقد حصل على بعض الهواء النقي واكتأبت نفسه أكثر.

يأخذونه إلى غرفة تحقيق ذات إضاءة صفراء باهتة لا تسر، حيث تنهال عليه الأسئلة عن كل شيء، نشأته، حياته، علاقته بمن كانوا كبارًا. كل شيء!

قال كل ما لديه، ظل دافعه الأول تجميل صورته، إضافة قصص لم تحدث يعد أمرًا مقبولاً في حالته. عدم علمه بحجم الانتهاكات التي كانت تحدث ضد اليهود، اعتراضه على ما يحدث، قصة كاثرين ودمعتان في وسطها كانت الشيء الوحيد الصادق. إنه الغضب عليه بسبب آرائه المعارضة.

جاءه آمر السجن وسأله إن كان يحتاج شيئًا فقال: أريد أن أكتب خطابًا لقريبة لي في ألمانيا.

ـ هذا حقك، وسنعمل على توصيله إلى وجهته بأنفسنا.

جاءه القلم ومعه أوراق معدودة، استعان على هواجسه بالذكريات السعيدة التي لا تأتي، انعكست مخاوفه على الخطاب فمزق ما كتبه عدة مرات حتى كاد الورق ينفد. في النهاية كتب صفحتين تخلوان مما يبطن من مشاعر تقارب الذعر. لا يريد أن يترك أثرًا ينضح بخوفه، ليس هذا ما يريد أن يتذكره به التاريخ إن كان سيخصص له أي سطور فيه، ليته خنق جوبلز، لكان الآن في مكان أفضل.

كتب يقول:

عزيزتي أديلينا

يحلو لي تذكر جلساتنا في كشك حديقة منزل جدتي، حينما كانت الشمس تدخل من النوافذ فتقابل الستائر البرتقالية الخفيفة، وتنشر درجات شتى من الألوان الدافئة على الأرض الخشبية. تنعكس على الخرز الملون فيضيء كالجواهر. شق الفأر المهجور حيث خبأنا رسم كفينا في ورقة طويناها وأودعناها خزانة الزمن. ترى هل ما زالت الورقة في مكانها؟ كفك الصغيرة بداخل كفي الأكبر، كنت سعيدًا وأنا أرى الفرق الواضح بين حجم كفينا. شعرت بالفخر لأنني الأكبر وشعرت بمسؤولية حمايتك، للأسف لم أنجح في هذا الأمر وكنت أنت دائمًا من تحمينني.

أتذكر تركيزك الشديد وأنت تدخلين الخرز في الخيط، لسانك يخرج من شفتيك وعيناك تضيقان، هذا النمش البسيط الذي اختفى

في وقت مـا كأنه لم يزين وجنتيك أبدًا. عيناك الزرقاوان وهما تلمعان في براءة كبحيرة عذبة، ثم تنتهي جلستنا بوعد الطفولة غير المكتوب. السـعادة المتجددة في نهاية كل يوم. إيماننا بالغد الذي لم يخلق بعد. إنه لا يمكـن أن يحدث ما يمنع اللقاء في اليوم التالي، وكل شيء سـيبقى على حاله الوديع.

كان كل شيء في هـذه الغرفة رائعًا، عالم مثالي يمكن أن نعيش فيه طيلة عمرنا. ليتنا لم نكبر يا أديلينا. ليت الحياة ظلت بهذه البساطة.

أعلـم أنك لن تطمئني لحامل هذه الرسـالة، ولـك حق. لقد عثر عليّ الإنجليز في النهاية بطريقة لا تخلو من سخرية. أنا الآن في إنجلترا وسـأمثل للمحاكمة قريبًا. تبدو نهاية درامية لا أستحقها، لقد عشت عمري مكتفيًا بدوري من الصفوف الخلفية، وبناء عليه فمن حقي أن أختفي ولا يبحـث عني أحد، أو على أقصى تقديـر أحظى بمحاكمة بسيطة في بلدي، أما هذا فكثير.

كيف حال ماتيلدا العزيزة؟ كم تمنيت لو كان لدي الوقت لأقضيه معها وأتقرب منها، للأسـف كنت مشـغولاً بما يحـدث حولنا كأنني في وسـط الطوفان يأخذني في طريقه بقسـوة، ويا ليت هذه المشـاغل كانـت ذات فائدة في النهاية، وإنما اليوم حيث أجلس اكتشـفت أنني قد أضعت عمري في أوهام تافهة.

لـن أقول الوداع، اعلمي أنني أشـتاق إليك فوق الوصف وأتمنى رؤيتك.

محمود

أسـبوعان مـرا عليـه قضاهمـا في رحـلات متكـررة إلى غرفـة الاسـتجواب. استمر على نهجه في تصنع البراءة الكاملة. قال له أحد

المحققين يومًا وهو يخرج سيجارة ويدعوه لمثلها: أليس لديك اعتراف تريد البوح به؟

ـ لست مجرمًا يحتاج إلى الاعتراف ليريح ضميرًا أضناه العذاب.

ـ ربما حسّن اعترافك من موقفك في المحاكمة.

ـ إن كانت محاكمة عادلة فستبرئني، وإن كانت نتائجها معدة سابقًا فلن ينفعني مئة اعتراف.

ـ لقد كنتَ تسير في ركب أعتى مجرمي العصر، ألم تفعل معهم شيئًا يدينك؟

ـ أنا طبيب يا سيدي، إن كنت مقربًا من القمة في وقت ما فهذا لا يعني أنه كان لي تأثير عليهم.

ـ ألم تكن تستطيع الإيعاز بإيقاف الحرب؟

ضحك قائلاً: لا بد أنك تمزح.

ـ من كان يمكنه أن يوقفها؟

ـ أنتم.

تساءل المحقق في دهشة: كيف؟

ـ إذا كنتم قبلتم ما جاء به رودلف هيس إليكم، ولكنكم أصرّيتم على الحرب حتى النهاية.

رد المحقق مستنكرًا: هذا كلام فارغ.

قال مستمتعًا بإنارة بصيرته: إذا كنت تريد وعظي عن مكارم الأخلاق فمن الأحرى بك أن تكون أمينًا معي.

قال المحقق في استماتة: رحلة رودلف كان غرضها الهرب من هتلر.

قال متلذذًا بتغير وجه المحقق: وأنا أؤكد لك أنه جاء لبحث السلام مع رئيس وزرائكم.

أكمل بينما وجه المحقق يزداد انزعاجًا: لقد أرادت قيادتكم تحطيم هتلر، لم يكن السلام ليروي ظمأها، فلم يضِرها سفك المزيد من دماء أبنائكم لتحقيق النصر الكامل.

ثم أضاف في شماتة واضحة: لا يوجد في هذه الدنيا أخيار وأشرار على طول الخط، كلنا نقف في المنطقة الرمادية التي تفصل بين هذين العالمين، تارة نكون ملائكة ثم نصبح شياطين.

استرخى في مقعده وقال: كنت تتحدث إليّ عن العدل منذ قليل، أليس كذلك؟

جلس الرجل يفكر في كلامه، ثم قام ليخرج قبل أن يستدير إليه قائلاً في مرارة: العدل الذي أعرفه هو ألا يسبق الابن أباه إلى القبر نتيجة لحرب عبثية.

لم يرد محمود، يبدو أن للرجل جرحًا لن يندمل، ولكن ما الجديد؟ الجميع مثله في هذا الزمن الصعب.

في يوم استدعوه إلى قسم من السجن لم يره من قبل، وجد آمر السجن يقف في انتظاره عاقدًا كفيه وقال له: لديك زيارة، سنعطيك خمس عشرة دقيقة لا تزيد.

استقبل كلامه بدهشة، من يمكنه المغامرة بزيارة مسجون سيئ السمعة مثله؟ عاين الغرفة وهو يدخلها باحثًا عن زائره الكريم فوجد سيدة تجلس وحيدة. أديلينا!

لم ينتظر سماحًا، اندفع ناحيتها واحتضنها في قوة وبكيا معًا. بدت

في حال جيدة على الرغم من هزالها وزحف السنوات تحت عينيها وفي ثنيتي فمها. قالت له وهي تمسك بوجهه: لقد ازددت وسامة.

ابتسم وقال: لم أتخيل أن تأتي.

ـ قادني قلبي فأطعته.

جلسا متشابكي الأيدي كحبيبين سرقا من الزمن لحظة سعادة نادرة. وقف آمر السجن ومترجم وحارسان على مقربة. تجاهلهم محمود ونظر إلى أديلينا في شوق قبل أن يقول متأسفًا: أعتذر عما سببته لك من ألم.

ـ لا وقت لهذا الكلام، كنت دائمًا قدري.

قال في رجاء: هل تسامحينني؟

ـ من كل قلبي.

قبّل يدها في عرفان ثم سألها: ماذا فعل جوبلز بك؟

طاشت نظرتها في سقف الغرفة واختفت ابتسامتها للحظة قبل أن تقول بصوت حنون: لا يهم ما حدث، المهم أنني بخير وأنك تجلس أمامي.

ثم سألته هي بدورها: ماذا سيحدث لك؟

ـ هذا أمر ستقرره المحكمة.

قالت في قلق: هل تظنها ستكون عادلة؟

ـ هذا ما يقولون، إن كانوا قد حكموا على رودلف بالسجن فأنا لا أرى سببًا يدعوهم لإعدامي.

قالت في استنكار: لا أتحدث عن الإعدام، إنما عن السجن أو الحرية.

قال بابتسامة منكسرة: لا أظن الحرية فكرة مطروحة بالنسبة إليّ.

ثم قال: كيف حال ماتيلدا؟

ابتسمت وقالت: تكبر كل يوم، أنا سعيدة لأنها لن تعيش صباها في زمن الحرب.

قال في سرعة: أين تعيشين؟

- ما رأيته من السوفييت في الشهور الأولى بعد الحرب كان كافيًا لكي أبيع الفيلا، وأرحل إلى الجانب الآخر. وجدت مشتريًا بصعوبة، ودفع فيها مبلغًا زهيدًا أتاح لي بالكاد ابتياع شقة معقولة.

- وكيف تكسبين رزقك؟

- أعمل في وظيفة إدارية مع الأمريكيين، الراتب ليس كبيرًا ولكنه يكفي.

قال مترددًا بعد صمت: هل تظنين أن ما فعلته كان يستحق؟

- هل كنت لتغير شيئًا إذا عاد بك الزمن إلى الوراء؟

- ربما كنت سأبتعد عن هتلر، وبالتأكيد كنت سأترك جوبلز ليموت على ذلك الرصيف.

ابتسمت ثم قالت: بل كنت ستتبع الطريق نفسه بحذافيره.

- لقد أعمتني الفتوة عن سماع صوت العقل، ما الذي كنت أطمح إليه بالضبط؟

- ربما كان هتلر في بدايته نموذجًا مبشرًا، لو كان وجد من يصحح له مساره كلما حاد عنه لتغيرت النتائج، ولكنه وجد شعبًا كاملاً يعبد كلماته، تغيبه نبرة صوته وحركات يديه. يقف معه مهما كانت أفعاله

كارثية، يقتل أولادهم فيدفعون إليه بالمزيد، أما من لم ينضم للجموع المفتونة فقد اختفى ولم يبق سوى المهللين. النتيجة الطبيعية هي أن تفسده السلطة المطلقة.

ـ على من نلوم إذًا؟

ـ على أنفسنا، نحن من أوصلناه إلى هذا السعار.

قال في صعوبة: وزمرة السوء من حوله، ماذا عنها؟

قالت بصوت خافت: يقع عليهم الذنب الأكبر، لقد كانوا جوقة تعزف أنغامًا مسحورة تزيد جنونه، كأنهم شياطين يوسوسون له فيطيعهم.

قال في كرب وهو يتمنى أن يسمع منها نفيًا: وأنا معهم.

صمتت، فقال مدافعًا: لم يكن لي تأثير على أحد.

ـ هذا لأنك لم تكن أفضل العازفين، وهذا شيء يحسب لك، فعلى الرغم من سعادتك بقربك منه بقي في نفسك شيء من الضمير، أو كنت تبذل قصارى جهدك وهذه هي أفضل إمكانياتك، في الحالتين كان تأثيرك لا يذكر.

هل كان فعلاً يحاول أفضل ما لديه وهذه هي قدراته؟ بحث عن بذرة صلاح في نفسه فوجدها، ولكنه وجد أيضًا بذورًا كثيرة فاسدة.

قالت له وهي تضم يديه في رقة: لا أقصد مضايقتك، ولكن وقت المجاملات قد مضى، إن كانت هذه الحرب قد علمتني شيئًا فهو أنه لا مكان في الحياة إلا للصدق، فروحنا هي كل ما يبقى لنا في النهاية.

قال متضرعًا: أنا لم أرتكب جريمة ولم أؤذ أحدًا عن قصد.

ـ أنا لا أحكم عليك، لديك ضمير أعلم أنه ما زال يقوم بدوره فاحتكم إليه.

قال وهو يكاد يبكي: هل تظنين أن أمي كانت لتفخر بي؟

- رحمها الله، كانت ستنهاك عن هذا الطريق منذ البداية.

أجهش بالبكاء، فواسته برقة قائلة: نحن بشر، نحب بعضنا بعيوبنا وبما فينا من علات. وحبك مختوم على قلبي فلا تحمل نفسك فوق ما تستطيع، في النهاية نحن نعشق الخطأ، هكذا خلقنا وهكذا سنموت.

أنبأهما آمر السجن بأن المقابلة ستنتهي بعد دقيقتين، فقالت أديلينا في رجاء: عندما تنتهي محنتك ستجدني في انتظارك.

قال لها في حب: أنت الآن سبب تمسكي بالحياة، حافظي على نفسك وعلى ابنتك، أنشئيها نشأة صالحة وذكريها بي، وقولي لها عني كلامًا جيدًا. إن لم نلتقِ ثانية فاعلمي أن محبتك في قلبي لا نهاية لها.

قالت مشجعة بصوت خرج كئيبًا: ما زال لدينا الكثير من الأيام لنقضيه معًا.

تقدم الرجال ناحيتهما كإشارة على انتهاء المقابلة، فغابا معًا في عناق حار بلل بالمزيد من الدموع. ذهبت أديلينا تاركة وراءها عطرًا من الشجن وأثرًا أخيرًا للأحباب الذين رحلوا.

تركت زيارتها بعض التفاؤل في نفسه، أحس براحة لأنها بخير رغم الأهوال التي وضعها فيها، ولأنها تسامحه.

أنبأه آمر السجن في يوم أن محاكمته ستنعقد في اليوم التالي، فانمحى التفاؤل من نفسه وبقي القلق مترسبًا كقطران في قاع بركة مياه آسنة، النوم ينجي من القلق، إن جاء!

كان الصباح قد تنفس بالكاد حين اقتيد إلى المحاكمة، ألصق وجهه بكوة صندوق السيارة وأخرج أنفه من بين القضبان يشتم نسمات

الصباح المشبعة بالندى، رأى أسفلت الطرقات وأرصفة يمشي عليها القليل من الناس، بينما يجهز باعة الصحف أكشاكهم، وطيور تحلق وأشعة شمس تخترق بعناء سحبًا متكدسة. صباح مشرق للأحرار، للأسف هو ليس منهم.

جلس ينتظر في غرفة ضيقة كصدر كافر، قاده ضابط إلى القاعة فمشى وراءه منكس الرأس بطيء الخطوة. بعد قليل سيجلس وسط رجال يقيّمونه ويحكمون على أفعاله، المحاكمة في حد ذاتها تعذيب، لماذا يعطي إنسان لنفسه حق تفنيد أفعال إنسان آخر والحكم عليه؟ لا يحاكم لأنه خالف إحدى الشرائع السماوية، إنما فقط بسبب أنه كان يقف في صف الطرف الخاسر. لولا جنون هتلر لكانوا انتصروا، ولكنه اليوم يقف أمام شخص غريب يحدد مصيره. يا لهول ما نفعله ببعضنا باسم العدل والحق.

القاعة على شكل مستطيل، ضلعاه الطويلان بكل منهما ثمانية نوافذ زجاجية طويلة، يدخل منها النور فيكشف عن آلاف الجزيئات الصغيرة في الهواء تحوم في فضاء القاعة. اصطفت المقاعد الخشبية كأنهم ينتظرون دورهم في شيء ما، لم يكن هناك جمهور، فقط الأشخاص المسؤولون عن المحاكمة، يترأسهم ثلاثة قضاة يرتدون شعرًا أبيض مستعارًا، لم يكن يتوقع شيئًا فخمًا على أي حال، لقد انتهت محاكمات نورينبرج بكل ما صاحبها من اهتمام ويبدو أن الناس قد سئموا، تحدث المدعي كثيرًا وكانت الترجمة التي تأتيه من سماعات الأذن مقتضبة. قال وهو يشير إليه: هذا الرجل استفاد بقربه من مجرمي الرايخ الثالث في التنكيل بالناس وقتلهم. لقد كان هو السبب

فيما حاق بالغجر من عذاب عندما أوعز إلى هتلر لأسباب مجهولة بأن يذكرهم في كتابه الأسود.

نظر إلى الأرض غير مصدق، كيف عرف المدعي بهذا الأمر؟ إن هذه المعلومة وحدها كفيلة بأن تقوده إلى مقصلة ذات نصل بارد لم يشحذ أبدًا، تهوي على عنقه مِرارًا لتعذبه دون أن تفصل رأسه عن جسده.

استمر المدعي في توجيه التهم إليه: على الرغم من أن زوجته كانت يهودية لم يحاول أن يدفع الأذى والتعذيب عن اليهود، فقط استصدر لها إعفاء من صديقه رودلف هيس، واكتفى بهذا دون النظر إلى آلام الآخرين، ولم تكترث طبيعته الوحشية إلا بمن يحبها، متناسيًا أن الآخرين لهم أيضًا أحبة يهتمون بأمرهم.

نظر بطرف عينه متوجسًا إلى من وكلوه محاميًا له، هذه بلاد تكره الألمان، الجميع خسر في هذه الحرب شخصًا أو شيئًا، على الأقل خسر إحساسه بالأمان وهي خسارة جسيمة، سيؤدي هذا المحامي دوره مكرهًا، هذا يعني نهاية حزينة لهذه المحاكمة.

استمر المدعي في تأجيج سخط القضاة عليه حتى اكتفى، انتهت الجلسة دون أن يقول محاميه كلمة واحدة، فعاد إلى محبسه متشائمًا. ليلة أخرى تعيسة تضاف إلى سجل لياليه المتشابهة. أين هو من ليالي الطرب والأنس؟ من الرائع أن يحصل على حقنة مورفين الآن، إن كان سيذهب إلى المشنقة فمن الأفضل أن يذهب بابتسامة كبيرة. إذا سألوه عن أمنيته الأخيرة قبل إعدامه فسيطلب منهم حقنة مورفين ونصف ساعة لكي يؤتي المخدر مفعوله، تبدو فكرة لا بأس بها تحمل في طياتها سخرية منهم ووفاء للمورفين صديقه الأثير، هكذا يجب أن تكون النهايات.

-٣٦-

ثلاث جلسات كاملة استهلكها المدعي في كيل الاتهامات له، وفي النهايـة وجه إليه تهمتين كل واحدة منهـما أنكى من الأخرى: جرائم ضد الإنسـانية والتخطيط لجرائم حرب. ما زال يتمنى أن يعرف من الذي وشى به على هذا النحو الدقيق، من أين لهم بهذه المعلومة؟

انتهـت مرافعة الادعاء بطلبه أن تحكم المحكمة على محمود بأقصى عقوبة ممكنة.

عندما جاء دور محاميه في الكلام أيقن أن حبل المشنقة التف حول رقبتـه، استـخف بما يحـدث حوله حتى ود لـو قاطع هـذه المحاكمة الهزلية وانصرف، ولكن المحامي لم يكن سـيئًا بقدر ما توقع، وإن بدا عليه تعجل غير مفهوم، كما لو كان وراءه موعد هامّ يريد اللحاق به.

بنـى المحامي العجـول مرافعته عـلى أساسـين؛ الأول الطعن في صحـة هـذه المحاكمة؛ التي كان لا بد أن تتكـون من قاضٍ إنجليزي وآخـر ألمـاني وقاضٍ ثالث من بلـد محايد. والثاني هـو التأكيد على أن

القانـون الدولي لم يحتو على نصوص بالاتهامات الموجهة إلى محمود في الزمن الذي وقعت فيه الحرب، ولا يمكن أن يُحاكَم الأشـخاص بأثر رجعي، وفي النهاية طالب بالإفراج عن محمود.

أحسنت يا حضرة المحامي، اضرب في الصميم وخلخل الأسس النخـرة ليتقـوض البناء وينهار. جلس ينصـت إلى المدعي وهو يحتج قائلاً: لقد وضعت محاكمات نورينبرج والمحاكمة العسـكرية الدولية للـشرق الأقصى أسسًـا متينة للتهـم الموجهة، فالقوانـين التي يدعي الدفـاع عـدم وجودهـا لم تعطل قضـاة المحاكمات سـالفة الذكر عن إصدار أحكامهم التاريخية الشـجاعة، فإن لم يكـن في القانون الدولي وقت الحـرب ما يجرم أفعال هذا المتهم، فـإن في هاتين المحاكمتين ما يكفي من الاستنادات القانونية لكي يجرم.

قال المحامي موجهًا حديثه إلى القاضي: سيذكر التاريخ اختلال ميزان العدالة في هاتين المحاكمتين اللتين لم تبنيا على أسس قانونية، وهو الأمر الذي أدى إلى انقسام آراء قضاتها، بالذات في المحاكمة العسكرية الدولية للشرق الأقصى.

اسـتمر السـجال على هذه النقطة لفترة، قبل أن يحين وقت سـماع الشهود. نادى الحاجب على الشاهد الأول فتعلقت عينا محمود بباب القاعـة، ترى أي مصيبة يخبئ له هذا الباب؟ دخل رالف أدلر، كانت مفاجأته عظيمة وتهـاوى اطمئنانه. كان رالف قد تبدل تبديلاً، دخل القاعة يمشي مفكك الأوصال بجسـد هزيل وأناقة ولت بغير رجعة، وإن ظلت نظراته نبيلة رغم ما بدا عليه من انقلاب الحال.

نظر إلى محمود نظرة عميقة تتحدث لغتها الخاصة زاغت لها عيناه، حكـى قصته بمـرارة نابعة عن عـزة نفس كـسرت ولم تنجبر، كانت

أسئلة المدعي كلها تدور حول الحادث الذي جمعهما يومًا، كان مثالاً جليًا على سوء استخدام محمود لسلطته. لم يجد المحامي ما يدافع به عنه سوى سؤاله عما جرى له في السجن الذي كان محمود السبب في إيداعه فيه.

وللأسف أتت الإجابة لتزيد موقفه صعوبة، قال رالف إنه تعرض للضرب والإهانة والتهديد الذي طاله هو وكل أهل بيته. ختم حديث بقوله: لقد كانت أهوال الحرب عظيمة، ولكن هذه الحادثة هي أفظع ما تحمله ذاكرتي عن الحرب.

نظر المدعي إلى محمود في انتصار وقال مخاطبًا القضاة: أرجو أن يتسع صدر عدالتكم لشاهد آخر.

كاد يهز رأسه في يأس، شاهد آخر معناه ازدياد موقفه سوءًا، نادى الحاجب على الشاهد فدخل رجل لم يره محمود من قبل، يرتدي نظارة سوداء لم يخلعها. عرف نفسه قائلاً: جيرهارد إديلبيرت.

احتاج إلى ثوانٍ لكي يتذكر الاسم، وما إن فعل حتى أسقط في يده تمامًا. كيف ينبشون في ماضيه على هذا النحو المؤثر؟ لا يتبقى له سوى أن يحضر ليتيشيا لتتلو نبوءاتها أمام المحكمة. ماذا قالت له في ذلك اليوم؟ قالت له أنت ملعون! هذا هو ما يحتاجه الآن بالضبط، لعنة عرافة غجرية تكتمل بها تعاسته الضاربة حتى الأعماق.

لم ينظر جيرهارد إلى محمود وهو يحكي قصته، جيرهارد الصحفي المعروف، حتى في إنجلترا سمعوا عنه. حقق العديد من السبقات الصحفية المشهودة، لم يمِل كثيرًا إلى نظام الرايخ الثالث وكان يعارضه بحنكة فلم يبعدوه ولكنهم لم يقرّبوه. رجل عمله هو الاستقصاء

والبحث عن الأخبار. قال جيرهارد: منذ اليوم الذي زارني فيه السيد محمود جعلت مشروعي الأكبر هو البحث عنه، جمعت كل المعلومات اللازمة عن ماضيه، والتقيت أشخاصًا كانوا قريبين منه.

نـوه المدعـي العـام قائـلاً: السـيد جيرهـارد تفضـل بتقديم كل المعلومات التي جمعها إلينا.

ثم أضاف خاتمًا: هلا تفضلت يا سـيد جيرهـارد بعرض ما فعله بك محمود تيمور؟

خلـع جيرهارد نظارتـه في بطء فبـدت عينه اليـسرى خاوية من مقلتهـا. لقد أنهاها محمـود في ذلك اليوم وترك مكانهـا فراغًا كاملاً. كان هذا هو أسوأ انطباع نهائي يمكن أن يحصل عليه.

عندما جاء دور المحامي لم تكن لديه أسـئلة إلى جيرهارد، كإعلان صريح عن سـوء الموقف، ولكن محمود طلـب الإذن في التحدث مع الشاهد فأذن له.

قال بصوت مختنق: سيد جيرهارد ما هي فرص أن تسامحني؟

رد في ازدراء: معدومة.

قال محمود في حرقة: لقد قضيت سنواتي الأخيرة شريدًا مختبئًا، أنام كل يوم على خوف وأسـتيقظ على قلق، تطـاردني هواجسي وتزورني أشـباح المـاضي، كنـت أفكر في كل مـن قابلت في حيـاتي، ولكنني لم أتذكـرك قط. قرأت لـك مقالاً ذات يوم بعد الحـادث فتذكرتك، ثم نسـيت كل شيء عنك مرة أخـرى. لقد زرتك وأنا تحـت تأثير مخدر شـديد وقرأت مقالـك وأنا تحت تأثير المخدر نفسـه. لا ألومك إن لم

تسامحني ولكن اعلم أنني لن أنساك ثانية أبدًا، وسأظل أدعو الله أن تغفر لي يومًا.

لم يعقب جيرهارد. كان قد ارتدى نظارته مرة أخرى وجلس ينظر إليه من ورائها. تسللت دمعة وحيدة من تحت النظارة ونزلت على خده فلم يمسحها. شعر محمود أن أي حكم عليه الآن سيكون مباحًا في مقابل تلك العين الضائعة والدمعة الحارة المقهورة. جلس ينتظر الحكم في صمت مراقبًا جيرهارد وهو يغادر القاعة.

ولكن إعلان الحكم تأجل إلى اليوم التالي. عاد إلى زنزانته وهو لا يشعر بشيء. سيقضي سنوات طويلة في السجن فلا يهم إن كانت عشرًا أو عشرين، سيخرج عجوزًا، هذا إن خرج، سيجد الدنيا قد تغيرت بشكل لا يستطيع مجاراته، أو سيحكم عليه بالإعدام. لا شيء أقسى من حياة تنتهي في ميقات معلوم، يصبح الانتظار عذابًا وتنفيذ حكم الموت هو الراحة، فأي سخرية!

في اليوم التالي كان في القاعة ثلاثة صحفيين، صور عديدة التقطت له قبل أن يكتفوا ويجلسوا مثرثرين بأصوات خافتة. خبر جديد عن العدالة التي تطال المجرمين ولو بعد حين سينشر غدًا. فكر في والده الذي سينشر اسمه في الصحف مقرونًا بجريمة، لم يكن يستحق هذا. نظر إلى الضوء الذي يخترق القاعة عبر النوافذ في حزم تنكسر على الأرض الرخامية. قررت الشمس أن تسطع في خروج عن المألوف بالنسبة إلى هذه المدينة الكئيبة. كأنها تحتفل بإحلال العدالة على الأرض. إحدى النوافذ تلقي بضوئها عليه مباشرة. تذكر تلك الليلة في السماء مع جورنج، وعلى الرغم من التشوش الذي يراوده كلما تذكر تلك الفترة من حياته شعر بدغدغة محببة في روحه عندما راودته

الذكرى، ليته لم يهبط ذلك اليوم، ليته لم يزل هائمًا في السماء منذ حينها. الحرية الكاملة التي يوشك أن يفقدها.

اقترب منه محاميه وقال له: أعتذر إن كنت قد خذلتك.

رد محمود في هدوء: أنا من خذلت نفسي، أشكر لك صبرك على ما تكره.

بضع صور جديدة التقطت. دخل القضاة بوجوه صارمة فوقف لهم الجميع. جاءت لحظة النطق بالحكم. على الرغم من هدوئه البادي تأهب، الآن يحدد مصيره على أيدي رجال مثله لا يعرفون إن كانوا سيحيون حتى يخرجوا أنفاسهم من صدورهم أم لا.

عشرون عامًا من الحبس المشدد، على الرغم من يقينه أنه ملاقٍ هذا المصير فإن لحظة الحقيقة قاسية.

ولكن من ظلمة اليأس يولد الأمل، ومن قلب المأساة يأتي الفرج، اليوم قررت المصائب في حياته تغيير عادتها في الإتيان مجتمعة، فجاء وسطها تبدل نادر المثيل. قال له القاضي بعد أن انتهى من تلاوة الحكم: ستسجن في سجن شبانداو مع صديقك رودلف هيس، سيكون لديكما متسع من الوقت معًا لمراجعة أفعالكما وطلب المغفرة من خالقكما.

صور كثيرة التقطت له، جلس هادئًا بينما القضاة يغادرون منصتهم، كان هذا الخبر هو أسعد ما ورد عليه منذ زمن لا يتذكره. ليتهم ألقوا القبض عليه منذ البداية وجنبوه عذاب الهروب. عشرون عامًا مع رودلف المسجون مدى الحياة، هذا معناه أن ينهيا حياتهما معًا كما بدآها معًا. استرخى في مقعده. لحظات كافية لكي ترتسم ابتسامة خافتة على

وجهه وينتشر الارتياح في روحه. لحظة التقطها أحد المصورين، ستصير هذه الابتسامة أشهر من ابتسامة الموناليزا وسيحار الناس في تفسيرها، منهم من سيقول إنها لا مبالاة مجرم عتيد، ومنهم من سيقول إنها شهادة للعدالة الإنجليزية، ولكنه ببساطة سحر الصداقة التي كلما طال عليها الزمن لم تزدد إلا قوة ومتانة.

فليسعد صباحك أيها القاضي، فليسعد كل أيامك، فمن بين كل سجون العالم اخترت لي السجن الذي لن أشعر فيه بقسوة الحبس. رن صوت عم إبراهيم في أذنه وهو يقول بصوته المميز المنغوم «مكتوب»، فازداد راحة على راحة وشعر بحنين واشتياق لا حدود لهما. تراقصت حزم الضوء الآتية من النافذة احتفالاً، وعرف لماذا أشرقت الشمس في هذا الصباح بالذات، ففتح قلبه للسجن، وود لو مكث فيه إلى الأبد.

تمت

الرجل الذي شاهد
هتلر يبكي

كان مستقبل محمود تيمور يبدو واعدا ويدعو للتفاؤل.. فبالرغم من وفاة والده المفاجئة، والتي أثقلت نفسه وترك على أثرها مصر راحلاً مع أمه الألمانية إلى بلدها، إلا أن ألمانيا أحسنت وفادته وساعدته حياته بها على التخلص من الغضب الذي لازمه طويلا.. اقنعه رودلف هيس صديق طفولته بالاستماع إلى رجل ملهم يقول كلاما كالسحر. رجل اسمه أدولف هتلر. من يومها يبدأ محمود في الدوران في فلك هتلر. ويفعل ما يمكنه ليحوز علي إعجابه. ولكن تكون لأفعاله هذه تبعات تتحكم في مسار حياته إلى الأبد. بعد أن فتنته السلطة التي اقترب من مركزها أكثر مما تستطيع روحه المضطربة أن تتحمله.



مهاب عارف

كاتب مصري من مواليد عام 1979. تخرج من كلية سان مارك بالاسكندرية عام 1997. ثم حصل علي بكالوريوس العمارة من كلية الفنون الجميلة بالاسكندرية عام 2002. يعمل حاليا كمدير تخطيط في مجال التشييد والبناء. وتعتبر رواية "الرجل الذي شاهد هتلر يبكي" هي روايته الأولى.